
عبد الحليم قنديل
على اسم الشهيد
نهاية
إسرائيل
LOVE
إصدارات سطور الجديدة
الغلاف: حسين جبيل

على اسم الشهيد

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د.فاطمة نصر

المستشار الفني: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

على اسم الشهيد

نهاية إسرائيل

عبدالحليم قنديل

طبعة سطور الأولى ٢٠١٠

ـ نهاية إسرائيل؟
– تأليف: د. عبدالحليم قنديل
ـ غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com
ـ المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shemawy@yaoo.com
ـ إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com
الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠
رقم الإيداع: 2010/7496
الترقيم الدولى: 977-5868-66-1

٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩
WWW.sutouralgadida.com
e.mail address: sutour@link.net
الموقع الإلكترونى
WWW.sutouralgadida.com

بيانات الفهرسة

نهاية إسرائيل

عبدالحليم قنديل

– ط ١. القاهرة: مكتب سطور، ٢٠١٠

٢٨٩ ص، سم ١٧× ٢٤–

تدمك ٩٧٧٥٨٦٨٦٦١

١– النزاع العربى الإسرائيلى

أ– العنوان: ٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩

www.darsutour.com

e.mail address: sutour@link.net

على اسم الشهيد

1

هذا كتاب على باب الدم وعلى اسم الشهيد. كتاب فى ذكر المقاومة الاستشهادية الجديدة، والتى طورت قواعد وأساليب حرب من نوع فريد، وخلقت للأمة المنكوبة جيشها الذى لا يقهر.

وقد يكون لدينا ألف سبب لكراهة حالنا، بؤس الحكام، وغيبوبة الشعوب، وتردى الثقافة، والغنى السارق، والفقر الداهس، وسيوف الأعداء السالكة فينا، وتداعى الأمم علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعة الرمم .

قد يكون لدينا ألف سبب لكراهة حال الأمة، وضعف قوتها، وقلة حيلتها، وهوانها على الناس، وغربتها عن التاريخ الجارى، وغيبتها الكبرى، وكأنها قد أخذت إجازة مفتوحة من سباق الحياة اللاهث، وانتهت إلى منافى الروح وفيافى العقل ومرافئ الموت المعلن .

قـد يكون لدينا ألف سـبب لكى نيـأس، ونصلى صـلاة مـودع، وفى اليـأس إحدى الراحتين، وفى يأسنا فسـحة ضاقت حتى استحكمت وتلاشت، ولم يعد بوسعنا أن نيأس أكثر، فقد بلغنا تمام اليأس، ونزلنا إلى قاع القنوط، وانتقلنا من اليأس إلى فوات الوعى، وإلى الغياب الذاهل، ولم يعد بمقدورنا ـ حتى ـ أن نفهم كلمات العزاء، ولا آداب الجلوس فى سرادقات الأحزان .

تبـدو أحزاننا بلا جـلال، وجنازاتنا بلا شـهود، ومـآتمنا بلا دموع، والأمـة التى تعجز عن البكاء تعجز عن الفرح .

كانت تلك أحوالنا ولا تزال، ربما باستثناء المقاومة الاستشهادية التى توقظ نفوسنا، وبقدر ما يكون يأسنا استثنائيا داهما خارقا لجدار القلب المثقل، بقدر ما كانت المقاومة الجديدة عاصفة خارقة لحجاب العقل الغافى .

ففى كل حروب الدنيا، كانت حسابات العقل البارد بالورقة والقلم والمسطرة، موازين السلاح والاقتصاد هى الأهم، وحساب المعنويات فى حواشى الهوامش على متن السلاح، وقد قلبت المقاومة العربية الجديدة حسابات العقل الجامد، وابتدعت حروبا من نوع مختلف، سحبت فيها المتن إلى الهامش، وجعلت الهامش فى أصل المتن، بدأت بثقافة الاستشهاد ومعجزاته، وبناء مصانع القنابل البشرية، بدأت بصبر القلة المؤمنة، المفارقة لعجزنا، ولقيود الجاذبية الأرضية، والمعتصمة بروح الله، وأدارت المنازلات الكبرى، وتوالت مشاهد الدراما الدموية على جبهة الصدام المباشر مع العدو الأمريكى الإسرائيلى، دار الصدام بين قرار الروح العفية وجبروت السلاح الذكى، بين أعلى قيمة إنسانية وأعلى قيمة تكنولوجية، وثبت أن سلاح الجسد

الناسف أقوى من التكنولوجيا المدمرة، ثم ثبت أن المقاومة الاستشهادية تقدر على اكتساب التكنولوجيا، فيما تعجز التكنولوجيا الفائقة عن اكتساب حس الشهادة .

وقد نفهم أن لكل أمة شهداءها، ولكل أمة مقاوماتها، لكن مقاومة هذه الأمة الآن من نوع خاص جدا، فاستشهاديتها عمل بتلقائية الفطرة، ثم أنها مقاومة وحيدة محاصرة، وتحالفت الدنيا كلها لقطع خطوط الإمداد والعطف عنها، وثبتت - مع ذلك - فى ميادين القتال الضارى، وثبت أنها القوة التى لا تقهر، وتقهر الجيش الإسرائيلى الذى قيل إنه لا يقهر، وتنزل بالهزائم الثقيلة على أم رأس أمريكا أكبر "أرمادا" عسكرية فى التاريخ البشرى كله .

وعلى باب الدم الشهيد، تقف سطور هذا الكتاب ومقالاته المتفرقة، تقرأ فى دفتر الزمن، تفسر وتحلل وتتنبئ بما كان ويكون (وقد وضعت أغلب المقالات بتواريخ نشرها لبيان مقدرتها على التفسير والتنبؤ)، وتتابع لحظات تحول العالم، وخيانة النظم، ومأزق إسرائيل، وخريف أمريكا، وربيع المقاومة الجديدة التى تنفخ فى الصور من رماد أحزاننا .

عبد الحليم قنديل

الهرم فى ١٩-٩-٢٠٠٩

..فى ذكر الخيبة !

2

المفارقة الكبرى هى أننا ـ كعرب ـ تخلفنا، وانتهينا إلى الخيبة، وحيث تقدم الآخرون بالضبط .

المفارقة الكبرى هى أننا صرنا غرباء عن العالم وفيه، رغم أننا ـ بالجغرافيا ـ فى قلبه، ورغم أننا ـ بالتاريخ الجارى ـ فى مركز حوادثه العنيفة الدامية .

المفارقة الكبرى هى أننا خرجنا من سباق الدنيا، وربما فى ذات اللحظة التى تحول فيها تاريخ العالم إلى معنى يقترب باتساع من جغرافيا العالم، فلم يشهد تاريخ العالم الحديث سنوات أعظم فى دراما التطور من الثلاثين سنة الأخيرة بالذات، نفس الثلاثين سنة التى تدحرج فيها العرب على المنحدر إلى هاوية، وبدا أنهم انتهوا إلى "ثقب أسود" يشبه حكاية بدء الخلق وربما نهايته .

نعم، الثلاثون سنة الأخيرة هى الأكثر ثورية، ورغم إغراء مقولات رائجة أثقلت نفوسنا، وغامت بخيالنا، وكفت منا حدود البصر والبصيرة، كأن يقال لك - مثلا - أن تداعى الاستقطاب على القمة الدولية حرمنا من اتصال التطور، وأن التهدئة الأمريكية - السوفييتية التى بدأت أوائل السبعينيات، ثم تحولت إلى خلاء كامل مع انهيارات موسكو السوفييتية أوائل التسعينيات، وتفرد القطب الأمريكى "الأوحد" بمصائر العالم، أن كل هذه التطورات هى التى جعلتنا يتامى، وانتهت بنا إلى القاع، وإلى وضع الفريسة، ولم يترك لنا من خيار سوى أن نلوذ بكنف أمريكا، ونلعق أقدامها، وتماما كما جرى للآخرين(!).

وليس أكثر خطأ - أضف الخطر - من هذه النظرة، ثم أنها كاذبة فى أصل التكوين، ومحض أوهام تبرر ولا تفسر، ولايقوم مثالا عليها سوانا، وكأننا

لسنا بشرا كالبشر، ولا أمة كالأمم، وكأننا من دنيا غير الدنيا، بينما نحن فى قلبها ،لا تنقصنا موارد، ولا ثقافة تليق، ولا جغرافيا تحكم، ولا تاريخ حديث - ليس قديما ولا وسيطا - يثبت لنا أهلية وحقا فى التطور وتقرير مصائر العالم.

فى بدء التاريخ الحديث كانت أوروبا، وكان الغرب، كانت دواعى النهضة، وكان العام ١٤٩٢ حاسما، ففيه سقطت غرناطة، وجرى اكتشاف الأمريكتين، ثم كان طريق السيطرة الأوروبية إلى الشرق الأقصى بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وبدا الغرب كأنه العالم، أو قل: إن العالم بدا كأنه الغرب والباقى، الغرب هو الثورة الصناعية، الغرب هو مدينة النور، الغرب هو نظريات السياسة والاقتصاد، ومناهج الأدب والفن، والفلسفات، ومركز الإلهام، وقوة الاستعمار الزاحفة بأسلحة العصر النارى، يدمر ويبيد ويسيطر،

ويذيب الثقافات والقوميات، وكنا نحن - كغيرنا - في المحنة، انتهت الإمبراطورية العثمانية إلى الضعف الأخير بعد هزيمتها على أبواب "فيينا" سنة ١٧٦٣، وأرغم السلطان عبد الحميد الأول على توقيع معاهدة "كوشوك" في إبريل ١٧٧٤، وعبثا حاول سلاطين "الآستانة" استعادة الروح بإدخال المطبعة، لكن نتاج المطبعة ذاته كان تكريسا لدواعي التخلف والشعوذة، وزحفت طلائع الاستعمار على القلب العربي، بالحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، ثم بحملات البريطانيين ،ثم بالإجهاض الأوروبي - العثماني لنهضة محمد علي، ثم بسباق بريطانيا وفرنسا في الزحف على المشرق والمغرب العربي، ثم بتوقيع "اتفاق سايكس - بيكو" عقب الحرب "العالمية" الأولى، ونهاية خرائط العرب إلى التجزئة المتصلة، ولم تخل الصورة - مع عموم الظلام - من ظواهر "تحدي الغرب"، حركات مقاومة، وحركات تجديد ونهوض، وثورات شعوب، كانت الشعلة تضئ وتنطفئ، وإلى أن جرى تطور أضعف قوة الغرب، فقد اندلعت الحربان الغربيتان - لا العالميتان - الأولى والثانية، وكانت النتيجة: إضعاف الغرب بالصدام الدامي، ثم ظهر الوزن الروسي (السوفييتي) متحديا ظاهرا عقب الحرب الثانية بالذات، وهو ما سمح لحركات تحدي الغرب - حركات التحرير الوطني - بانتصارات بالجملة، فقد كانت أوروبا الاستعمارية منهكة، وأمريكا الاستعمارية تتقدم إلى قلب العالم، وبعد أن كانت لها السيطرة لقرن سبق على حديقتها الخلفية في أمريكا اللاتينية، بدأت تتطلع لشد العالم كله إلى ركابها، ومع هذه التطورات والانشقاقات جميعا، كانت موجة تحدي الغرب تحقق النصر تلو النصر، وكان تاريخ العالم الجديد يكتب عندنا بالذات، فقد كانت معركة السويس - ١٩٥٦ - هي التي قطعت ذيل الأسد البريطاني وأنهت الإمبراطورية الفرنسية، وبدأ عالم جديد في التقدم إلى المسرح، وتفاعلت أشواق شعوب إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وتعاظم

وزن حركة عدم الانحياز والحياد الإيجابى ورفض الأحلاف، وكان عبد الناصر ـ كقطب عربى ـ مع شواين لاى وتيتو ونهرو وكاسترو هم أئمة العصر، ولم تكن الظاهرة مجرد رغبة فى تحدى الغرب بدواعى استقلال العلم والنشيد، بل انطوت على تجارب تنمية وتصنيع متصل، أخذت عن الغرب وقاومته فى اللحظة نفسها، وكان بلد عربى كمصر ينمو ويتقدم بمعدلات مثيرة، ورغم توالى حروب هزمت فيها وانتصرت، كانت مصر ـ فى معدلات التنمية والتصنيع والاختراق التكنولوجى ـ رأسا برأس مع كوريا الجنوبية، وإلى ما بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ولا تبدو التفاصيل مهمة وهى كثيرة، المهم: أننا كنا ـ كغيرنا ـ ضحية لاستعمار الغرب وتوحشه، ثم أننا كنا فى قلب موجة تحدى الغرب حين زحفت، وحين بدأت تطورات الدنيا تنتقل من زمن "تحدى الغرب" إلى موسم "تحدى الغرب"، خرجنا من السباق، وانتهينا إلى مجرد ضحية مجددة للغرب ... تحت القيادة الأمريكية هذه المرة (!).

ثم كانت دراما الثلاثين سنة الأخيرة، عند الآخرين وليس عندنا، بدت هذه السنوات هى الأعظم ثورية على مدى الخمسة قرون، فقد مالت قوة الغرب فيها إلى تناقص، وصعدت قوة الشرق والجنوب، كان امتياز الغرب الأعظم فى تفوقه المادى والتقنى، كان امتياز الغرب الأعظم هو تفوقه الساحق بقوة الاقتصاد والسلاح، وكانت "قوائض القيمة" المجلوبة بالنهب الاستعمارى الواسع توسع فى شوارع الغرب، وتضئ مدنه بالبريق الخلاب، وإلى حد بدا معه الغرب كأنه "عجل أبيس" المصنوع من ذهب مصهور، وبدت معه "عبادة الغرب" كأنها حلت بديلا لعبادة الله ،ثم بدا الغرب ـ فى الثلاثين سنة الأخيرة ـ كأنه يهزم بسلاحه هو بالذات، فقد انتقلت قوة التقدم المادى والتقنى باتجاه الشرق، كانت اليابان قد سبقت بثورة الميجى فى القرن التاسع عشر، ثم بإعادة البناء بعد خراب الحرب "العالمية" الثانية، لكن التحول الشرقى لم يقف

عند حدود اليابان، وصعدت ظاهرة نمور آسيا، كوريا الجنوبية واصلت طريقها، وفى زمن تداعى الاستقطاب الثنائى بالذات، ظهرت معجزات ماليزيا وأندونيسيا، وتواصل التطور بالاقتصاد والسلاح فى الهند، وبالسلاح فى باكستان، ثم كانت معجزة الصين الكبرى، حققت الصين فى ثلاثين سنة ما حققه الغرب فى خمسة قرون، حققت أعلى معدلات تنمية متصلة (بمتوسط ١٣٪ سنويا) فى تاريخ العالم الحديث، ومع تحول بندول التقدم المادى والتقنى إلى الشرق، انتقل بندول الإلهام إلى الشرق أيضا، تراجعت إغراءات وأسماء آدم سميث وكينز وروزفلت وتشرشل وإيرهارد، ولم يعد الغرب ينجب فلاسفة ولا آباء إلهام فكرى، وحلت أساطير دينج هسباوبنج ومهاتير محمد ولى كوان بو، وصارت مدن كشنغهاى وكوالالمبور وطوكيو وسول أكثر نظافة ونظاما وبريقا، وأغنى بناطحات السحاب من مدن كنيويورك وباريس ولندن، وبدت القيم الآسيوية وثقافات الشرق القديم كأنها تسترد اعتبارها، وتؤكد تفوقها على قيم الغرب التنافسية العدمية إلى ما لا نهاية، وفى الغرب الأقصى كانت الظاهرة ذاتها تطرد، ولم تتوقف سيرة أمريكا اللاتينية عند "موت جيفارا" كآخر خبر فى الراديوهات، ولا عند انقلاب شركة النحاس والمخابرات المركزية على الرئيس الاشتراكى سلفادور الليندى المغدور فى شيلى، بل جرت تطورات اقتصاد وتصنيع وسياسة هائلة، وبدت البرازيل والأرجنتين وشيلى كقوى اقتصاد صاعدة بامتياز إلى حلبة التنافس الدولى، وتداعت السيطرة الأمريكية على بيتها الخلفى الأصلى، وظهر اليسار مجددا - وبقوة - فى دول حوض الكاريبى والمكسيك، وبدت عواصم أمريكا اللاتينية فى اللون الأحمر، فقد جددت ثورة الاقتصاد والتكنولوجيا عافية هذه المجتمعات، ودخلت فى قلب تطورات العالم، وفى مدن الإلهام والأحلام، رغم أنها - بالجغرافيا - عند الطرف القصى، وفى قلب العالم وعند حدود العرب بالذات، بدت ظاهرة

"تجاوز الغرب" على اطرادها، روسيا (نصف الشرقية - نصف الغربية) تستعيد نفوذها مع بوتين بعد خراب يلتسين وأيامه، انحسر نفوذها غربا وزاد إلى الشرق، وبدت "معاهدة شنغهاى" كأنها الحلف الوارث لحلف وارسو، وبدت قوى الجوار العربى (إيران وتركيا) على اتصال أعظم بدراما العالم المتغير، إيران الخمينى التى تحدت أمريكا تنتصر بثورة التصنيع وبالمشروع النووى، وتركيا التى التحقت مبكرا بحلف الأطلنطى، وانتهت لحنين إلى شرقها الإسلامى، تركيا العائدة من غيبوية تحقق - مع حزب ذى ميل إسلامى ديمقراطى - نهضتها الكبرى، وصارت القوة الخامسة عشرة فى موازين اقتصاد العالم.

باختصار، تبدو تطورات العالم فى غير صالح الغرب، وفى غير صالح أمريكا بالذات، وفى غير صالح خطة مد القرن الأمريكى لقرن آخر، فقد بدت أمريكا - عقب انهيارات موسكو - كأنها القوة المرغوبة المرهوبة فى آن، بدت مرغوبة كأرض الأحلام، وبدت مرهوبة كأكبر أرمادا عسكرية فى التاريخ، وصحيح أن أمريكا لم تفقد امتياز الاقتصاد والسلاح إلى الآن، وتحاول - ببلطجة السلاح - مد عمر القوة الطاغية، لكنها - بمعايير القوة الصلبة - إلى تراجع محسوس، عقب الحرب "العالمية" الثانية كان اقتصاد أمريكا نصف اقتصاد العالم، وكانت أمريكا فى وضع احتكار الرعب الذرى، وتراجع اقتصاد أمريكا - الآن - إلى ربع اقتصاد العالم، بينما انتشرت خرائط الرعب الذرى - أو إمكانية تصنيعه - إلى ثلاثين دولة وأكثر، والمعنى: أنه ليس بمقدور أمريكا - موضوعيا - أن تقرر مصائر العالم وإن أرادت، ولا أن تصبح قطبا وحيدا، فقط بمقدور أمريكا - ربما بفضل ديناميكية الهجرة أساسا - أن تنتهى إلى قطب بين أقطاب، وبمقدور الغرب أن ينتهى لثقافة بين ثقافات، لا إلى الثقافة الأعظم كما كان الأمر يجرى فى خمسة قرون مضت، فالصين

وحدها ـ بعدد السكان ـ ضعف الغرب كله، والصين وحدها ـ بمعايير قوة السلاح والاقتصاد ـ ربما تصبح القطب الأول فى عشرين سنة، لو واصلت وتائر النمو الراهن، وهو ما يوحى بعالم جديد يتجاوز الغرب بالجملة، وترجح فيه موازين الشرق والجنوب، وينتهى الغرب إلى قطعة من العالم بأقدار الجغرافيا، وليس إلى رأس للعالم ودينامو دوار لحركته الفوارة .

كل هذا يجرى فى الدنيا الواسعة من حولنا، بينما نحن فى الخيبة... بالويبة(!).

في ذكر المقاومة

3

صحيح أن التاريخ لا يعيد نفسه، وأن المياه لاتجرى في النهر مرتين، لكن الحوادث قد تتشابه في مغزاها، وقد تمضي في ما يشبه القانون أو الاتجاه العام، ودورات حياة الأمم قابلة للتجدد، وقابلة للتبدد أيضا، وللنهوض قوانينه، وللسقوط - أيضا - مقدماته وتداعياته، فالأمم تخلق من رماد المحن لا من زبد الأحلام .

وفى سيرة قرنين من محاولات الأمة للنهوض فالسقوط، يبدو ظاهرا تلازم بين تأثيرات الخارج وتفاعلات الداخل، فقد جرت محاولات النهوض تحت حد السيف الغربى، جرى احتلال أقطارنا كما جرى للآخرين فى الدنيا الواسعة من حولنا، وكنا ـ كغيرنا ـ فى الصدام الدامى من أجل التحرير، وكنا ـ كغيرنا ـ فى دراما مرحلة "سيادة الغرب" إلى مرحلة "تحدى الغرب"، وكان دور مصر ـ بالذات ـ حاسما فى الدورات كلها، ليس فقط بكثافة السكان واتصال التاريخ بالوجود إلى عمق ممتد لآلاف السنين، بل ـ أيضا ـ بقانون التاريخ والجغرافيا، والذى جعل معارك مصر التكوينية الكبرى تجرى خارج حدودها، وفى الشرق العربى بالذات، ففى المهد الواسع لتكون الأمة العربية التى اكتملت ملامحها بدعوة الإسلام، جرت معارك مصر حتى قبل أن يتعرب

لسانها أول القرن الثامن الميلادى، معركة "مجدو" تحتمس جرت إلى الشرق العربى، ومعركة "قادش" رمسيس جرت هناك، وكذا معركة "حطين" صلاح الدين، ومعركة "عين جالوت" قطز، ومعارك إبراهيم باشا - سارى عسكر عربستان - قبل سقوط نهضة أبيه محمد على، ومعارك عبد الناصر إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ولم يعن ذلك أن الحوادث تكررت بتفاصيلها، وإنما كان المغزى هو ذاته، فقد بدت أدوار النهضة - فى تاريخ العرب الحديث بالذات - معلقة بما يجرى فى مصر، وكما أن سقوط تجربة محمد على كان له آثاره، وانتقل بزحف موجة الاستعمار القديم إلى مشرق الأمة العربية ومغاربها، فإن الانقلاب على نهضة جمال عبد الناصر صحبه التداعى فى حال الأمة، فقد جرى خلع وتد الخيمة، وبدا الطريق سالكا لطى الخيمة ذاتها، وانتهى النظام

العربى إلى خيبة، ولم يكن صدفة احتلال القاهرة سياسيا بكامب ديفيد ومضاعفات المعونة الأمريكية الضامنة، لم تكن صدفة أن سقوط القاهرة سياسيا فتح الطريق لغزو بيروت عسكريا أوائل الثمانينيات، ثم فتح الطريق لحرب تحطيم العراق - بعد غزو الكويت - أوائل التسعينيات، ثم فتح الطريق لغزو بغداد ذاتها عسكريا أوائل الألفية الثالثة، ففى الوقت الذى بدا فيه - عقب حرب ١٩٧٣ - أن الأمة قادرة على وصل الخطى فى سباق التاريخ، والتقدم إلى مشاركة فعاله فى مرحلة "تجاوز الغرب" بسباق الاقتصاد والسلاح، والذى نهضت إليه أمم كانت معنا أو من خلفنا إلى حرب ١٩٧٣، كانت خيمة العرب تنقلب إلى خيبة، وبدت خرائط العرب كأنها قطعة من التاريخ الذى مضى إلى أوائل القرن التاسع عشر، بدت كأنها حقل الرماية المفضل للغرب، ومهبط العودة - أو الرجعة - إلى مرحلة "سيادة الغرب"، وعودة الاستعمار - الأمريكى الإسرائيلى هذه المرة - بصورته القديمة الأولى .

وفى ملامح المشهد عن قرب، تبدو صدمة احتلال العراق كأنها التكرار - بالمغزى - لصدمة احتلال فلسطين، وتبدو قصة الستين سنة الفاصلة - إلى الآن - كأنها مقسمة بالتساوى، ثلاثون سنة أولى لقصة نهوض انتهت بعقد معاهدة كامب ديفيد أواخر ١٩٧٨، وثلاثون سنة تلت فى السقوط، جرى احتلال قرار السياسة والاقتصاد والثقافة فى مصر، وبدا الحكام - وبغير استثناء - أشبه بملوك الطوائف فى نهاية عصر الأندلس، قصورهم دانية لنفوذ الاستعمار العائد، وعلى نحو ما كانت عليه القصور قبل ومع صدمة ١٩٤٨، وتزاحمت قواعد الاستعمار العسكرية على طول البحار والخلجان، وتماما كما كانت عليه القصة قبل ثورة ١٩٥٢ فى مصر ومعاركها التحريرية الكبرى، وإلى حد لم يعد معه أحد يتخفى بعاره، وإلى حد أن دولة عربية - لايهم الاسم - أعلنت أخيرا عن استضافة قاعدة عسكرية بحرية فرنسية،

ويدت فخورة بالإعلان، وكأنها أرسلت رائد فضاء إلى سطح المريخ (!)، ما علينا، المهم أنه لم يعد أحد عاقل يعول على بقية من دور للنظام العربى، ولا على ملوكه ورؤسائه وأمرائه، فقد تحولوا إلى سند للاستعمار الأمريكى - الإسرائيلى الزاحف، وربطوا أقدارهم بمصائر الاستعمار، وتورط غالبهم فى إقامة حلف عملى مع إسرائيل تحت القيادة الأمريكية، وتأمل - مثلا - حكاية المبادرة العربية للسلام، فى البدء كان القصد سلاما مقابل عودة الأرض المحتلة، بينما بدت القصة فى آخرها كأنها انتقلت إلى نوع آخر من المقايضة، فلم يعد السلام مطلوبا مقابل أرض، بل أصبح السلام مطلوبا "مقابل سلامتك" على حد التعبير الساخر لعزمى بشارة، السلام لإسرائيل مقابل البقاء للنظم(!).

غير أن تلك ليست ملامح القصة كلها، إنه - فقط - مشهد النظم التى تحكم بالتفويض الأمريكى الإسرائيلى، وليس بتفويض الناس، وكما بدت استجابة الأمة عفية فى عمومها لصدمة احتلال فلسطين الأولى، وتوالت مشاهد النداء للثأر فى الولادة الأولى لحركة القوميين العرب وحزب التحرير الإسلامى، ثم أفسحت ظواهر التشنج مكانها لثورة نهوض بالتاريخ، وجرى الانتقال - بمعايير اللحظة وقتها - إلى ثورة فثورات الضباط الأحرار، وصعود دراما الأمة الجامعة بمعاركها فى الخمسينيات والستينيات، وإلى زمن الانهيارات الكبرى عقب حرب ١٩٧٣، وكما جرت استجابة ظاهرة بعد صدمة فلسطين، تبدو الأمة فى الثلاثين سنة الأخيرة على خط النار، وتبدو الاستجابة لصدمة الانهيارات متدرجة، استجابة بالتشنج العصابى على طريقة تنظيم القاعدة وروافده، واستجابة أكثر وعيا بالمقاومة الجسورة بالسلاح، وبالمقاومة بالسياسة - أيضا - فى القاهرة وغيرها، المقاومة بالسلاح بدأت فى ذات اللحظة التى تركت فيها النظم خيار اللجوء للسلاح، ففى صدمة احتلال بيروت

ـ وتداعيات مابعدها ـ ولدت المقاومة الجديدة، ولدت المقاومة بالذات فى لبنان، وفى أضعف نقطة لحكم النظم، فالدولة فى لبنان إطار افتراضى بأكثر منها حكم واقع ضاغط ،وهذه النقطة بالغة الأهمية، إذ إن الظاهرة ستتصل ـ بعد لبنان ـ إلى فلسطين والعراق، وفى ذات اللحظة التى انهار فيها الحكم الذاتى والحكم العراقى، فقد تحولت النظم إلى عبء على طاقة الأمه، وتداعى النظم ـ بالذات ـ هو الذى يفجر الطاقات المخزونة، ويتوالى بالمفارقات الملهمة، ففى مشهد الخيبة الذى روجت له نظم ومثقفون أقرب إلى جماعات المارينز السياسى، وادعوا فيه أن العالم يتغير، وهو قول الحق الذى قصدوا به الباطل، وأنه لم يعد من مكان لحروب التحرير الوطنى، فى هذه اللحظة بالذات، كانت الأمة ـ حيث تختفى النظم أو تضعف ـ تبدأ الرحلة إلى حرب عصابات تميزها بالذات، كانت الأمة تستدعى مخزونها الثقافى الإيجابى، وتبدو فى حرب التاريخ كأمة شهادة بأكثر معانى الكلمة تألقا، وكان الدم يهزم السيف حقا، ففى الوقت الذى بدت فيه "أوسلو" النظامية استطرادا لكامب ديفيد، ولم تنته إلى تحرير ناجز لشبر أرض، وضاعت ملامحها فى متاهة الخرائط والملاحق ومناطق ألف وباء وجيم، فى السياق ذاته، كانت المقاومة الجديدة تتطور، وتبدو قادرة على تخطى خانة الممانعة إلى إنجاز التحرير، فقد خابت رهانات أوسلو، ونجح رهان حزب الله فى تحرير الجنوب اللبنانى، ودون توقيع صك أو اتفاق تطبيع، وفى سنة التحرير ذاتها ـ عام ٢٠٠٠ ـ كانت انتفاضة فلسطين الثانية، وبحد السلاح هذه المرة، وحققت فى أربع سنوات إنجازا كان خيالا ومحالا، فقد أجبرت إسرائيل ـ وشارون على رأسها ـ على إخلاء مستوطنات غزة، والانسحاب من أرضها، ودون توقيع صك ولا اتفاق أيضا، ولا تزال المعركة متصلة إلى الآن بالصدام الدامى، ثم انتقلت العدوى ذاتها إلى العراق بعد انهيار النظام بالاحتلال، وولدت مقاومة

أسطورية لم تكن فى حساب أعظم المتفائلين، وبدت أمريكا - إلى الآن - فى وضع العاجز عن تثبيت الاحتلال، وكسب هدف السيطرة على مخزون البترول العراقى المقدر بأكثر من ثلاثين تريليون دولار، ويلفت الانتباه فى ظاهرة المقاومة الجديدة، ذلك الصدام بين إنسان الثقافة وإنسان التكنولوجيا، فالصدام مع أمريكا وإسرائيل هو صدام مع أعلى قيمة تكنولوجية توافرت فى الدنيا كلها، والمنازلة الجارية بدت كصدام فريد بإطلاق حوادث التاريخ الإنسانى، إنه الصدام بين أعلى قيمة تكنولوجية وأعلى قيمة إنسانية، فثقافة الاستشهاد ارتقت بقيمة الإنسان إلى حد الإطلاق السماوى، وقنابل الأمة البشرية بدت كأنها فى صدام مع قنابل العدو الذرية، أضف : فوائض الصبر واحتمال التضحية والعيش مع المكاره، وكلها لصالح الأمة بامتياز، أضف : أن المقاومة التى بدأت بثقافة الاستشهاد تطور نفسها تكنولوجيا، أى أنها تسحب من رصيد الخصم وتضيف إلى حسابها الصافى، وتأمل - كمثال - تطور القوى الصاروخية لحزب الله، وقذائف الصواريخ محلية الصنع فى غزة، وقذائف اختراق دروع الدبابات فى العراق .

ثمة دراما هائلة - إذن - تجرى فى المنطقة، فالمقاومة بالسلاح عنوان أولى على إرادة النهوض مجددا، لكن المعركة - بطبائع الصدام الحضارى - أوسع من المعنى العسكرى المباشر، وسباق السلاح لا يحسم المعركة وحده، والنهوض يعنى - بالطبيعة - اتصالا بالسباق إلى السياسة والاقتصاد والعلم والتكنولوجيا، ولا تعوزنا موارد، بل تصد النظم بعجزها، والتفاتها إلى النهب العام ولا شئ آخر، النظم ذاتها التى تحجز حق المقاومة بالسلاح، النظم ذاتها التى تحجز الأمة عن دور تستحقه في سباق العالم المتغير حقا، النظم التى ماتت إكلينيكيا وتحكم بغير تفويض شعبى، النظم التى تسد علينا الطريق إلى عين الشمس، لا نتحدث هنا عن نظام بعينه، بل عن كل النظم

بغير استثناء، ولا نتحدث عن مقاومة بالسلاح للنظم، بل نتحدث عن مقاومة بالسياسة للعدو الكامن فى قصور الحكم، مقاومة بالسياسة تسند المقاومة بالسلاح على جبهات القتال مع العدو الظاهر، وقد جرى شيء من ذلك عقب صدمة ١٩٤٨، وتقدمت ثورة الضباط الأحرار، وأطاحت بأنظمة زمانها، بينما لا نرغب الآن، ولا نقدر، ولا نريد ثورة للضباط الأحرار بعناصر الإيجاب والنقص فيها، فقد كانت النهضة التى تلت عرضة لانتكاس، والسبب الظاهر فى أنها كانت نهضة للناس وليس بالناس، سقطت - بعد صعود - لأنها لم تكن بالناس، فقد غابت ديمقراطية السياسة التى تصون النهضة، والمطلوب الآن: شفع مطلب الديمقراطية بهدف التغيير، والتقدم إلى ثورة بالناس الأحرار لا بالضباط الأحرار، وتلك دراما أخرى جارية بفصولها فى مصر وفى غيرها، فالقاهرة - بالذات - هى وتد الخيمة ومركز الخيبة.

مع حماس وضد عباس

4

نعم، ضد عباس، ولكن ليس ضد حركة "فتح" صاحبة الرصاصة الأولى فى حرب التحرير الوطنى الفلسطينى .

ونعم، مع حماس، ولكن ليس - بالضرورة - مع محمود الزهار بتشدده الدينى وخططه لهدنة طويلة الأجل مع إسرائيل .

وربما لا يصح الانزلاق بحديث السياسة إلى مقارنات شخصية، رغم أن المعنى الشخصى واضح ومؤثر بالإلهام. فقادة حماس الظاهرون على درجة رفيعة من الاستقامة وحسن السلوك، بينما يبدو قادة فتح الظاهرون على العكس بالضبط. فأن تنتهى حركة فتح إلى قيادات من نوع محمد دحلان وأحمد قريع وصائب عريقات، أن يكون هؤلاء فى واجهة فتح، فهذه هى المأساة بعينها. فالإيحاءات الشخصية مسيئة لدم شهداء فتح، وحتى الرئيس عباس نفسه لا يقدم مثالا مقنعا بتصرفاته الأسرية. فابن عباس - مثلا - مشغول بشراكة فى شركة اتصالات، بينما أبناء الزهار - مثلا - فى زمرة الشهداء، وكأن عباس تحول إلى "أبو البيزنس" لا "أبو مازن"، بينما يبدو الزهار فى صورة "أبو الشهداء"، قدم اثنين من أبنائه إلى مقام الشهادة إلى الآن، ويبدو - مع ذلك - صابرا محتسبا، لا يردعه خطر الاغتيال الشخصى عن نداء المقاومة، ولا تقعده أحزان كالجبال.

والمقارنة التى تصح - قبل وبعد الشخوص - هى بين برنامج وبرنامج، وربما بين حركة وحركة، وقد لا يلتفت كثيرون إلى المنشأ المتقارب لحركتى فتح وحماس، حركة فتح بدأت خلاياها الأولى من غزة تماما كحماس، ومؤسسو فتح الأوائل - فى غالبهم - خرجوا من معطف جماعة الإخوان المسلمين الفلسطينية، تماما كحماس، كان المؤسس المهندس ياسر عرفات إخوانيا قبل فتح، كذا خليل الوزير "أبو جهاد" وزير دفاع فتح الأول، وكلاهما انتهى إلى شهادة يستحقها، انتهى "أبو جهاد" إلى اغتيال فى عملية إسرائيلية بتونس، وانتهى عرفات إلى اغتيال مرجح بالسم الإسرائيلى، وبعد حصار طويل فى مبنى المقاطعة برام الله، ولا تزال تتدفق إلى الآذان والقلوب صيحته الشهيرة وسط الحصار، صيحة "شهيدا. شهيدا. شهيدا"، وكان عرفات - بتداعيات السيرة - ملك مناورة بامتياز، وقطا بسبع أرواح، لكنه - مع حس المناورة فى

طبعه - تحول إلى رمز مجبول بالدم لعذاب الشعب الفلسطيني، وحلمه في التحرير، كان عرفات هو الأكبر تأثيرا بين رفاق مؤسسين لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكان التالي في الأهمية القائد الراحل مؤخرا چورچ حبش، وفي مذكراته يروي حبش نكتة بدت كأنها تعليق على الطبع المناور لعرفات، تقول النكتة: إن عرفات امتنع عن رمي الجمرات في رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، وحين سئل: لماذا؟، قال عرفات: دعونا لا نرجم الشيطان فربما نحتاجه فيما بعد (!)، وقد كان هذا المزيج من الإخلاص الفدائي والمناورة السياسية واحدا من أسباب نهاية فتح إلى ما انتهت إليه، فقد تحصن عرفات بزعامته التاريخية موضع الإجماع، وكان لا يقطع خيطا مع عناصر ظاهرة السوء في قيادة فتح، أو في غيرها من حركات الفداء الفلسطيني، كانت هذه لعبته المفضلة، كان يأخذ الكل في حضنه، وكان يجمع الكل في معطفه، كان محمد دحلان مقربا من عرفات ربما بأكثر من مروان البرغوثي قائد فتح الراديكالي، ، كان عرفات يركب جوادين في وقت واحد، كان يمسك بعجلة القيادة إلى اليمين، ويندفع إلى اليسار كإعصار، كان ملتبسا لأكثر المقربين، ودافئ العواطف على الدوام، وكان أسيرا - على نحو ما - لفكرة التوحد بالمعتدي، وهي عرض نفسي يجعلك تتعلم من عدوك لتكرر فعله بالضبط، كان عرفات أسيرا لفكرة دور المال في سيرة الحركة الصهيونية ونشاطها، ولعب بالفكرة ذاتها مع رفاقه، ومع مثقفين عرب، ومع الأحزاب في حرب لبنان، لكنه وقع في الخلط بسبب من اختلاف الظروف بين سيرة الحركة الصهيونية وسيرة الحركة الفلسطينية، وحول التداول عند القمة إلى خزانة أسرار مفتاحها إلى يده شخصيا، لكنه - على أي حال - ظل قادرا على ضبط التوازنات في فتح بأثره الشخصي الحاكم، وحين اختفى ذهبت التوازنات، وتحولت القيادة إلى أكوام ملح، كأن رأس الجناح الراديكالي المجدد لتنظيم فتح مروان البرغوثي في الأسر الإسرائيلي، بينما عباس ودحلان وصحبه على

رأس القيادة، وفى وضع الحصانة الممنوحة من إسرائيل، وسرعان ما أطيح بفاروق القدومى آخر صقور الحرس القديم، أعطيت له رئاسة فتح لوقت قصير عابر، وانتهت قيادة فتح إلى بيت مخصوص لعباس، كانت النهاية مسيئة لحركة فتح التى تمثل قطاعا هائلا من الشعب الفلسطينى، وظلت لعقود عنوانا على الهوية الفلسطينية بكاملها، تحولت فتح - بعد عرفات - إلى تنظيم بلا رأس قادر، وانتهى تنظيمها الواسع إلى كيان مهلهل غير منضبط بالجملة، واندفعت التناقضات المتوارية بظل عرفات إلى منتهاها، تناقضات "التوانسة" مع قيادات الداخل الخارجة من رحم الانتفاضة الأولى، ولجنة مركزية متيبسة متقادمة، شاخت قياداتها وأفسدتها الأموال السائبة وامتيازات سلطة العبث، وأثرت حملة الاعتقالات والأسر الإسرائيلى على تنظيم فتح الداخلى بشدة، ولا يزال أغلب الأسرى - إلى الآن - من حركة فتح، صحيح أن حماس أصابها هى الأخرى ربما أكثر مما أصاب فتح، وتوالى اغتيال قياداتها بعد اغتيال الشيخ أحمد ياسين إلى اسماعيل أبو شنب وعبد العزيز الرنتيسى، لكن حماس بدت قادرة على تجديد قياداتها بكفاءة عالية، زادتها المحن صلابة، بينما انتهت فتح إلى تفكك وذهاب ريح تكاثف الضباب على صورتها الأصلية، وبدت فتح - بالجملة - كأسطورة تنسحب من التاريخ، بينما حماس تتقدم إلى المنصة، صحيح أن قيادة عرفات فى أواخرها عطلت التحول لصالح حماس لبعض الوقت، وبدت قادرة على حفظ دور مرئى لتنظيم فتح فى الانتفاضة الثانية، والتى تفجرت بعد رفض عرفات التنازل عن القدس وحق العودة فى مفاوضات كامب ديفيد الثانية، وهكذا تبقى لفتح بقية من دور مقاوم، وبدت قادرة على حضور ميدانى مؤثر، وبأدوار ظاهرة لقيادات من نوع البرغوثى وفارس قدورة وأحمد حلس، لكن المقارنة - بالجملة - بدت لصالح حماس التى ظهرت مع الانتفاضة الأولى، وبدت على درجة من الحضور عفى ومقتحم، وطورت تكتيك العمليات الاستشهادية إلى حد موجع بشدة - ربما مفزع - لكيان الاغتصاب الإسرائيلى، وتقدمت لدور البطولة الأولى على مسرح الانتفاضة الثانية، وهو ذات الدور الذى بدا محجوزا لفتح بالتقادم فى

الانتفاضة الأولى، بدا كأننا انتقلنا من زمن فتح إلى زمن حماس، وبدا التنظيم العسكرى لحماس "كتائب عز الدين القسام" فى صورة الذراع الأقوى بامتياز لحركة التحرير الفلسطينى، بينما بدت الأذرع العسكرية لفتح مفرقة ممزقة وأقرب إلى مكانة الدور الثانى، وموزعة الولاءات على قيادات مقربة من عرفات، ثم أقرب إلى تفكك وانحسار فى الموارد بعد رحيل عرفات، خاصة أن عباس استغل حصار إسرائيل لعرفات، وكون جماعة ضغط ضد عسكرة الانتفاضة، ولم يتورع - بعد وراثة عرفات - عن مطاردة الفدائيين حتى من فتح، وتحول بشباب فتح إلى ميليشيات سيئة الصيت على طريقة محمد دحلان، وكلها ظروف انتهت إلى انحسار الدور العسكرى المقاوم لفتح، وانكشاف خواء القيادة بعد عرفات، والتورط فى علاقات مريبة مع الإسرائيليين، وهكذا انتهى الدور السياسى لفتح - بعد تآكل دور السلاح - إلى عنوان مكروه باطراد لدى قواعد الشعب الفلسطينى، بدت قيادة فتح كأنها خصم مباشر لفكرة المقاومة، وبدت سكنا مختارا للامتيازات على حساب عذاب الشعب الفلسطينى، والنتيجة: انحسار التعاطف مع فتح، وتقدم حماس إلى دور سياسى وعسكرى حظى بتأييد مذهل، ولم تكن هزيمة فتح المدوية فى انتخابات أوائل ٢٠٠٦ هى آخر دليل، ولا هزيمة ميليشياتها المتضخمة المترهلة بصدام غزة أواسط ٢٠٠٧ هى آخر خيبة، بل لا تزال القصة جارية بفصولها فى رواية تقدم حماس إلى دور مركزى ينحسر عن فتح.. حتى إشعار آخر.

وحيوية حماس - كحركة - هى الضمان الأكبر لحيوية برنامجها، فالشباب الظاهر لقيادات حماس هو النقيض - بالضبط - لشيخوخة قيادات فتح الظاهرة فى الصورة، وعوضا عن شخص واحد من طراز عباس الطاعن بالسن فى قيادة فتح المتخفية، يبدو خالد مشعل ومحمود الزهار وإسماعيل هنية كأنهم قادة لهم القيمة ذاتها، فالقيادة تبدو جماعية عالية الكفاءة فى حماس، بينما القيادة فردية شائخة فى فتح، وتغييب مروان البرغوثى فى السجن الإسرائيلى انتهى بالغياب - أو ما يشبهه - لدور فتح وبرنامجها

المقاوم، بينما بدت حماس كأنها العنوان الأظهر على البرنامج المقاوم، وقد بدا دخول حماس إلى السياسة والانتخابات كأنه النهاية لبرنامج المقاومة، أو كأنه التسليم بصيغة أوسلو والضياع فى متاهاتها، لكن الاجتياح الانتخابى الذى تحقق لحماس حمل معنى اجتياح "أوسلو" ذاتها، وكانت "أوسلو" قد ضربت قبلها فى ما يشبه المقتل بحوادث الانتفاضة الثانية، والوضع الناشئ فى غزة بالذات بعد خروج إسرائيل بالسلاح وتفكيك المستوطنات، ولم تبد إسرائيل - ومعها أمريكا - مصرة على منع حماس من دخول الانتخابات، وإن فوجئت - مع النتائج - بالتداعى المريع فى مكانة فتح بعد عرفات، كان أمل إسرائيل : ترويض حماس، وكانت تلك مخاوفنا أيضا ومخاوف غيرنا، لكن توالى الحوادث بالحصار انتهى بحماس إلى طلاق عملى مع معنى السلطة وترويضاتها واستحقاقاتها، وإلى استعادتها لبرنامج المقاومة مجددا، أى أن التبارى عاد سجالا - بغير التباس - بين برنامج المقاومة وبرنامج المساومة، وفيما يبدو برنامج المساومة مأزوما، إذ إن إسرائيل لا تبدو مستعدة لمساومة فى الضفة والقدس بغير الضغط المسلح، ثم أنها تبدو بلا رأس - بعد غيبوبة شارون - قادر على مساومة تاريخية، ثم أنها متشككة فى مقدرة عباس على لعب دور الشريك الكفء فى مساومة تقنع الحد الأدنى اللازم من شرائح الشعب الفلسطينى، وهو ما يعنى أن خط المساومة - ولو بألف أنابوليس - انتهى إلى حائط مسدود، بينما تبدو الطرق سالكة لبرنامج المقاومة، وبالذات بعد دراما اقتحام معبر رفح، وعودة الموضوع الفلسطينى هاجسا ملحا ضاغطا فى رأس السياسة المصرية، وانفتاح ملف الآثار الخطرة لقيود كامب ديفيد على سيادة مصر ودورها، وانفساح المجال لتضاغط مؤثر فى مصر بين هيمنة أمريكا وإسرائيل وتصاعد دور حركة الوطنية المصرية الراغبة فى التغيير، ففتح ثغرة فى الحصار إلى مصر، فتح الثغرة ينبه مصر إلى قيدها بقدر ما يلفت لخطورة عزل الفلسطينيين، والمعروف أن ملاحق معاهدة السلام الأمنية حجزت الوجود المصرى العسكرى إلى شرق قناة السويس، وبعمق ٥٨

كيلو مترا فقط إلى داخل سيناء، وتركت عمق سيناء الاستراتيجى فارغا من السلاح إلا من أربع كتائب لحرس الحدود، ونزعت حق مصر فى إقامة مطارات وموانئ حربية بسيناء، ونزعت سلاح شرق سيناء بالكامل، وإلى عمق ٣٣ كيلو مترا من خط الحدود مع غزة فلسطين ومع إسرائيل، وهو ما يعنى - بالحقائق الصلبة - أن تفريغ سيناء أمنيا هو صناعة أمريكية وإسرائيلية، وقد تكشف الفراغ ظاهرا للعيان مع حوادث المعبر، وهو ما يتيح لصانع القرار المصرى - إن أراد - فرصة غير مسبوقة فى أثرها لاستعادة السيادة المضيعة، والمطالبة بتعديل جوهرى فى الملاحق الأمنية المهينة، وزيادة حضور القوات المصرية إلى شرق سيناء، والتى لا تتعدى إلى الآن ٧٥٠ فردا من حرس الحدود، تقرر وجودهم بتعديل محدود جرى أواخر ٢٠٠٥، أى أن الحوادث - بعد انتفاضة المعبر - فتحت الأقواس التى كانت مغلقة، وجعلت استرداد حق مصر فى السيادة مرتبطا أكثر بمعركة التحرير الفلسطينى، وكما لم يحدث منذ غابت مصر عن واجهة الصدام مع إسرائيل باتفاقات أواخر السبعينيات، وهو ما يقبل التطور - بالتداعى - إلى دعم معنوى وربما سياسى من مصر لحركة التحرير الفلسطينى، وليست القصة معلقة بترتيبات عاجلة يتفق عليها أو لا يتفق لإعادة تنظيم المعبر، بل الحال الفلسطينى كله - وربما المصرى أيضا - على المحك، خصوصا مع أزمة النظام فى مصر، وأزمة عباس فى رام الله، وأزمة الخيبة الأمريكية فى العراق، وأزمة القيادة فى إسرائيل بعد تقرير فينوجراد، وكلها موارد سياسية تدعم التحول لصالح برنامج المقاومة، أضف: دور قوة إقليمية مؤثرة جدا هى إيران، وهى تمد صلات بالسياسة إلى عواصم عربية مؤثرة من الرياض إلى القاهرة، وتدعم - بالمال وبالسلاح - برنامج المقاومة ضد إسرائيل وأمريكا، وهو ما يعنى أن التطورات كلها - بنصاعة المغزى - مع برنامج حماس وضد برنامج عباس .

التحرير الثانى والانتفاضة الثالثة

5

كل محنة تنطوى على فرصة، ومحنة حصار غزة - إلى حد قطع الكهرباء ليومين - جعلت التحرير الثانى ممكنا، وربما الانتفاضة الثالثة أيضا.

والمعروف أن إسرائيل قد جلت نسبيا عن غزة، تركت الأرض، وجرى تفكيك المستوطنات، لكن قطاع غزة ظل فى حالة خنق متصل، وبلا سيادة مكتملة، لا سيادة إلى البحر، ولا فى الجو، وعند المعابر بدا الحصار محكما، فالمعبر إلى إسرائيل (إيريز) هو - بالطبيعة - فى يد الاحتلال الإسرائيلى، ومعبر "العوجة" كذلك، وهو مخصص لنقل البضائع والمواد الغذائية، والمعبر إلى مصر (معبر رفح) وضعت له ترتيبات معقدة، مراقبون أوروبيون، ورقابة إسرائيلية بالكاميرات على الداخل والخارج من غزة، وفتح متقطع أعقبه إغلاق تام بعد حوادث صدام حماس وفتح، وانسحاب المراقبين الأوروبيين، وخوف السلطات المصرية من فتح المعبر توقيا لغضب إسرائيل، وإلى حد تحول معه معبر رفح - بذاته - إلى رمز لحصار مليون ونصف مليون فلسطينى فى غزة، فهو شريان الحياة الرئيسى، وقد توالت الغارات متقطعة لفتح المعبر، وتوالت

مـآسى حـجز الأسـرى الفلسطينيين فى مـدن سـيناء القريبة من خط الحـدود، وحـجز مـصريين على الجانب الفلسطينى، وجـرى السمـاح ـ أحـيانا ـ بعـبور الحـجـاج والعـالقين، ثم أعـيد الغلق، وبدا المعـبـر المغلق كـأنـه مـشكلة بـحـجم المشكلة الفلسطينية بكاملها.

ومع وصـول محنة غزة إلى ذروتها، والظلام الذى عم غزة ليومين، وتصـور إسرائيل أنها تعاقب أهل غزة بالجملة، بدا التحول فى تيار الحوادث لافتا، فقد أيقظت محنة غزة قطاعات من الرأى العام العربى، واستعادت قضية فلسطين تألقـها فى الوجـدان العـربى بعـامـة، وفى مـصـر بالذات، وعـادت التظاهرات والمسيرات فى عواصم الطوق العربى، وبدا كأننا فى حال اليقظة المستعادة، فالوقائع الحربية ـ وشبـه الحربية ـ هى التى تؤثر أكثر، بينما أنباء اتفاقات السلام العابث، والمفاوضات التى بلا جدوى، ولقاءات عباس وأولمرت، وإلى

سواها من حوادث العبث السياسى، بدا ذلك جميعه مما يبعث على السأم والضجر، أضف : ما بدا من انقسام فلسطينى على سلطة بلا قيمة، بدا - لوقت - أن كل ما يأتى من فلسطين لا يثير اهتماما، وبدا كأننا بصدد تصفية القضية الفلسطينية حتى فى الوجدان، لكن محنة غزة بدت فى الاتجاه المعاكس بالضبط، بدت معها فلسطين فى حال الصدام المباشر مع كيان الاغتصاب والوحشية الإسرائيلية، ومع تنامى موجات الغضب الشعبى فى غزة فلسطين، وفى عواصم عربية، بدا أن اختراق الحصار هو المهمة الأولى، وتداعت الأبصار بالذات إلى معبر رفح، وتطورت المطالبات الضاغطة لفتحه، وكان السلوك الفلسطينى التلقائى ملهما، تنظيم مظاهرات نسائية لاقتحام المعبر، وأوامر غبية صدرت من القاهرة بإطلاق النار لتفريق المتظاهرين، ثم جرى الاقتحام الفدائى حقا لحواجز الفصل بين الفلسطينيين والمصريين، جرى تفجير حاجز الحديد والأسلاك الشائكة فى معظمه، واندفع عشرات الألوف من الفلسطينيين إلى معبر رفح، وعبروه إلى مصر، وتغير سلوك السلطات المصرية هذه المرة، وبدا امتزاج الفلسطينيين مع الشعب المصرى مثيرا للعواطف، انفتحت ثغرة هائلة فى جدار الحصار على غزة، فوق أن فك الحصار يوحى بكسب ظاهر للحركة الوطنية المصرية، ففتح المعبر يستعيد بعضا من السيادة المصرية المضيعة فى شرق سيناء بقيود اتفاقات كامب ديفيد وما تلاها، ويؤكد الحقيقة التى تغيب أحيانا عن البال، وهى أن قضية فلسطين فوق كونها قضية عربية وإسلامية، فإنها أيضا - وبامتياز - قضية وطنية مصرية، ولا يكاد يوجد شعب عربى قدم من التضحيات فى الحروب مع إسرائيل بأكثر من الشعب المصرى، بل إن تضحيات الشعب المصرى تعادل - إن لم تزد - تضحيات الشعب الفلسطينى نفسه، وتطور الأوضاع فى غزة - مجددا - إلى صدام بالدم مع كيان الاغتصاب الإسرائيلى، ونشاط الفدائيين والاستشهاديين الفلسطينيين، هذه الدراما القتالية تدفع الأذى عن العمق

المصرى منزوع السلاح فى غالب سيناء، وتصب فى مصلحة الأمن الوطنى المصرى، وتماما كما تفتح الباب الحقيقى - لا الزائف - إلى تحرير فلسطين قطعة فقطعة .

وقد يكون لافتا ، أن قضية فلسطين كسبت الضوء مع محنة إظلام غزة بالذات، بدا المشهد الفلسطينى مضيئا موحيا مؤثرا بعمق فى الوجدان، وجالبا لتعاطف كان قد توارى مع نهاية الانتفاضة الفلسطينية الثانية، فقد كان المشهد الفلسطينى انتهى إلى متاهة بلا ضفاف، وبسبب اتفاقات أوسلو وأخواتها إلى أنابوليس وباريس، بدا المشهد الفلسطينى - لسنوات - كأنه المفعول به لا الفاعل، كأنه الضحية المقتولة بمسدس كاتم للصوت، بدا المشهد الفلسطينى أسيرا محجوزا لرغبات الاستعمار الأمريكى الإسرائيلى، بدت الخرائط والمراحل والمناطق والحواجز كأنها لعبة ميكانو أو لعبة السلم والثعبان، سلطة بلا سلطة، وبلا سيادة ولا أرض، سلطة على قبضة هواء فى الضفة الغربية بالذات، وألقاب بلا حساب، رئيس وحكومة ووزراء ومحافظون وقوات أمن، ولكن بلا دولة من أصله، كانت تلك صيغة أوسلو التى وضعها شيمون بيريز، استوحاها من "جيتو وارسو" الذى أقامه حكم النازى لليهود فى بولندا ، وفاوض عليها محمود عباس وأحمد قريع، وقبلها الرئيس عرفات - وقتها - على طريقته كملك للمناورة، بدت الصيغة كمصيدة حقيقية، فهى تضع الفلسطينيين فى "جيتو" ومعازل تحت السيادة الإسرائيلية المباشرة، وترفع عن كاهل الاحتلال أعباءه فى إدارة معايش الفلسطينيين ،وتوفر لإسرائيل مقدرة على سيطرة من نوع فريد، احتلال منخفض التكاليف المالية والإدارية، ووفر فى كلفة دم تضاف لفاتورة النزاع الفلسطينى - الفلسطينى، ووعد بحل نهائى لا يأتى أبدا ، وارتباط بالحبل السرى لدورة حياة الفلسطينيين مع الاقتصاد الإسرائيلى، ارتباط بشبكات الكهرباء وشبكات المياه وشبكات المواصلات، وإطلاق يد إسرائيل - فوق ذلك كله - فى أن تفعل ما تشاء، فقد

زادت حركة الاستيطان إلى الضعف فى سنوات ما بعد أوسلو، وتوحش الجدار العازل فى التهام أراضى الضفة والقدس، وزادت أرقام الفلسطينيين الأسرى فى سجون إسرائيل إلى ما يقارب الخمسة عشر ألفا، وظلت غارات الهدم والاعتقال والاغتيال على ما هى عليه، وتحولت السلطة الفلسطينية إلى شئ يشبه أفلام الكارتون. غير أن حدثين هامين حطما قواعد لعبة أوسلو، الحدث الأول هو الانتفاضة الفلسطينية الثانية، والتى تفجرت بنهايات العام ٢٠٠٠، وعقب شهور قليلة من تحرير الجنوب اللبنانى بمقاومة حزب الله، ودون توقيع صك تطبيع، ولا اتفاق سلام، أو الدخول فى المتاهة على طريقة أوسلو وأخواتها، والحدث الآخر هو انتصار حركة حماس فى انتخابات ٢٠٠٦، بدا الحدث الثانى كأنه تورط من حماس فى مستنقع أوسلو، والقبول بترتيبات رفضتها من البداية، وكان ذلك صحيحا بدلالة التصرف وقتها، لكن عواقبه فى النهاية توحى بطريق آخر، فقد ثبت أنه لا شئ ناجزاً جرى غير ما جرى فى غزة، فالجلاء النسبى لإسرائيل عن غزة - فى عام ٢٠٠٤ - هو الثمرة المحددة للانتفاضة الثانية، نعم يبدو ترك غزة متصلا باستعداد إسرائيلى سابق، وقد كانت غزة دائما عبئا لا يطاق عند صانع القرار الإسرائيلى، فهى الأكبر بكثافة السكان فى الدنيا كلها، ثم أنها كانت دائما موردا لحركات المقاومة الفلسطينية الكبرى، فقد بدأت خلايا فتح المسلحة من غزة منذ أوائل الستينيات، كذا بدأت خلايا "الجهاد الإسلامى" فى غزة، تماما كما بدأت "حماس" من غزة مع بدء الانتفاضة الأولى بنهاية الثمانينيات، وانتهى الصدام بالدم ويحد السلاح فى الانتفاضة الثانية إلى فرض واقع جديد، بدت كلفة البقاء الإسرائيلى فى غزة فوق فوائده المحققة، وجرى إرغام شارون على الجلاء عن غزة، وتفكيك المستوطنات وطرد المستوطنين، ورغم أن شارون نفسه هو صاحب عبارة : تقطع يدى ولا نترك غزة، وهو الذى وصف تفكيك مستوطنات غزة بأنه كتفكيك تل أبيب نفسها، لكن بركة الدم الفلسطينى

أرغمت شارون على تجرع السم الاستراتيجى، وقطعت دابر استيطان غزة، وانتهت بشارون ـ ملك السلاح الإسرائيلى ـ إلى سرير الغيبوبة (!) .

إذن، فقد جرى التحرير الأول لغزة بحد السلاح، وليس بألعاب التفاوض المميت، وعظة غزة كان لها أثرها فيما جرى بعدها، فقد تحولت غزة إلى غابة سلاح مقاوم، تحولت إلى عاصمة شبه محررة للمقاومين الفلسطينيين بعد ترك عواصم المنافى من عمان إلى بيروت فتونس، وكان لها دور ظاهر فى فوز حماس الباهر فى الانتخابات، فقد كانت المقاومة هى عنوان برنامج حماس، لكن حماس بعد الفوز بدت مرشحة ـ فى وقت منظور ـ للتورط فى المتاهة، بدا أنها قد تتحول إلى "فتح ثانية"، مع الوصول للسلطة منفردة، ثم مجتمعة مع فتح بتشكيل حكومة الوحدة الفلسطينية بعد الانتخابات بأكثر قليلا من عام، والتى عاشت لأسابيع، وبدأ بعدها الانقسام الفلسطينى إلى حكومتين، واحدة فى غزة والأخرى فى رام الله، بدا الانقسام على السطح مسيئا لصورة "حماس"، ومسيئا للقضية الفلسطينية كلها فى العمق، غير أن تلك لم تكن نهاية القصة، فقد اندفعت الرغبات الأمريكية الإسرائيلية محمومة ـ بدعم عربى رسمى ـ إلى حصار غزة، وطرح فرضية تفضيل عباس على حماس، وإغراق سكان الضفة ـ تحت قيادة عباس ـ فى النعيم بمليارات موعود بها من مؤتمر باريس، ووضع سكان غزة ـ حيث قيادة حماس ـ فى الجحيم، وبدت المحصلة الظاهرة كأننا بصدد تصفية نهائية للقضية الفلسطينية، غير أن سلوك القوة الإسرائيلية الغبية سرعان ما غير من ظواهر اللحظة، وقفز بالحقائق الأكثر صلابة إلى الواجهة، فالإيغال فى رغبة الانتقام من غزة يستعيد لحماس صورتها الأولى، ويحول برنامج المقاومة ـ مجددا ـ إلى برنامج عسكرى لا برنامج سياسى، ويغرى بإعادة تصور التوحيد الفلسطينى فى مقام آخر، فلا تصح العودة لخطة توحيد على أساس أوسلو إلى أنابوليس، ثم أن ذلك لم يعد ممكنا، والممكن الأقرب هو حل سلطة رام الله ذاتها، أو

التعامل معها كشبح بلا وجود واقعى مقنع للفلسطينيين ولا لإسرائيل ذاتها، فأزمة إسرائيل أكبر من أزمة الفلسطينيين، والخيارات الإسرائيلية تبدو مضطربة الآن، فإسرائيل تشعر أن "حزب الله" آخر - في صورة حماس وأخواتها - قد ظهر إلى الجنوب الفلسطينى فى غزة، وتضيق بمعادلة الردع الجديدة بالصواريخ محلية الصنع، ثم بما قد يصل من صواريخ أكثر ردعا، وقد لا تجد حلا سوى التورط فى المكروه وإعادة احتلال غزة، وإسرائيل متخوفة من هذه الخطوة بالذات، وتخشى من هزيمة مضافة على طريقة ما جرى فى حرب لبنان الأخيرة، ثم أن حصار غزة بدا قابلا للتفكيك، وبدلالة ما جرى قبل أيام فى عملية اقتحام معبر رفح، وبعمل جماهيرى وفدائى عظيم، وبدلالة اليقظة الظاهرة لحركة الوطنية المصرية فى مجرى دعم السلاح الفلسطينى، وهو ما يضع النظام المصرى فى حرج بالغ، ويضيف إلى الضغوط الأمريكية - الإسرائيلية على النظام ضغطا بالاتجاه المقابل، ضغط وطنى مصرى وفلسطينى قد يعزز نفوذ جناح أمنى فى النظام المصرى يرغب فى التواصل مع الفلسطينيين، حتى وإن احتملت القصة نوبات من الكروالفر .

وبالجملة، يبدو تيار الحوادث مندفعا إلى انتفاضة فلسطينية ثالثة، وعلى قاعدة وبإلهام ما يجرى فى غزة بالذات، وأذكر أننى طرحت الفكرة على السيد خالد مشعل زعيم حماس فى لقاء مغلق جمعه مع عدد من المثقفين المصريين قبل عام تقريبا، وكان رد خالد بالإيجاب، وإن عدد مصاعب ميدان قد لا يصح نشرها الآن، لكن الوضع الجديد فى غزة، وخصوصا مع احتمالات الاندفاع الإسرائيلى بالسلاح إليها، الوضع الجديد يجعل الانتفاضة الثالثة ممكنة أكثر، انتفاضة سلاح لاستكمال تحرير غزة، لتحريرها ثانية، وبوحدة السلاح الفلسطينى لا بوحدة حكومة هى - الآن - قبضة هواء.

خريطة طريق للمقاومة

6

ليس بوسع إسرائيل أن تنتصر على حماس، وهذا في حد ذاته انتصار لحماس، وربما لم يكن المتحدثون باسم حماس مغالين حين تحدثوا عن نصر في عملية "جباليا"، فالإسرائيليون أنفسهم يتحدثون عن فشل واضح لإسرائيل.

التعليقات الإسرائيلية على ما جرى ظاهرة المغزى، فهى تقول ببساطة: إن هدفا واحدا لإسرائيل لم يتحقق، وإن غزة مثل لبنان، لا يصح فيها الحساب بعدد القتلى من الجانبين، فقد زاد عدد شهداء الفلسطينيين على المائة، وزاد عدد المصابين إلى مئات، لكن قوة امتصاص الضربات عند الفلسطينيين تبدو بلا نهاية، تماما كما كان الأمر فى حروب إسرائيل مع حزب الله فى لبنان، والنصر فى النهاية محجوز للطرف الأكثر احتمالا لا للجيش الأعظم فى قوة نيرانه، وهذه عبقرية حروب الاستنزاف التى لا يقدر فيها لإسرائيل النصر أبدا.

وباستثناء تعليق واحد فى الصحافة الإسرائيلية جاء على طريقة (قلنا لكم)، وأثار فيه صاحبه مواجع قديمة، وتحدث عن الأهمية الاستراتيجية

لمستوطنات غزة التى جرى تفكيكها فى عام ٢٠٠٥، فإن أحدا فى إسرائيل لا يتحمس لإعادة احتلال غزة، صحيح أن تسيبى ليفنى - وزيرة الخارجية الشقراء - هددت بإعادة الاحتلال، لكن ليفنى - على ما يبدو - داخلة فى مزايدات سياسية مع باراك جنرال الحرب المستعاد من المخازن، والذى حدد أهدافا لما يجرى لم يتحقق للآن واحد منها، فقد تحدث باراك - بالعكس من ليفنى - عن فك ارتباط نهائى مع غزة، وطرح خطة عمل عسكرى متدرج متلاحق بأهداف ليس بينها إعادة احتلال غزة، تحدث عن هدف وقف إطلاق الصواريخ باتجاه "سديروت" و"عسقلان" وربما "أشدود"، وهو الهدف الذى تحقق عكسه بالضبط، فلم يتوقف إطلاق "القسامات"كما يطلقون عليها فى إسرائيل، بل فاجأتهم حماس بإطلاق صواريخ "جراد" باتجاه عسقلان بعد

سديروت، وهدد إسماعيل هنية - فى تصريح ذى مغزى - بأن إسرائيل كلها فى مرمى الصواريخ الفلسطينية، وليست القصة هنا فى الأثر الدموى أو التدميرى للصواريخ، بل فى نشر الرعب والهياج المذعور بين سكان إسرائيل، وهم الذين تعودوا - قبل صدمة صواريخ صدام فصدمة حزب الله - على العيش فى الحصن الحصين، وبعيدا عن نار الحروب وميادينها التى يجول فيها ويصول جيش إسرائيل (!)، والمغزى : خلق توازن رعب من نوع مختلف، رعب ربما يماثل ما جرى وقت مبادرة حزب الله بإطلاق الكاتيوشا باتجاه "كريات شمونة"، لكن الألم الإسرائيلى يبدو أكبر هذه المرة، فقذائف الكاتيوشا إلى الشمال الإسرائيلى كانت متقطعة، بينما قذائف "القسامات" - محلية الصنع - إلى مدن الجنوب الإسرائيلى متصلة منذ سبع سنوات، واحتمالات التطور بها إلى رعب أكبر ودمار أكثر واردة، فلا أحد يعرف - بالدقة - طبيعة مخزون حماس من الصواريخ، أضف : أن لدى حماس وسائل أخرى مجربة فياضة بالرعب للإسرائيليين مثل العمليات الاستشهادية، وهى قابلة للتجدد فى أى وقت، وتحت ضغط تصاعد محارق النيران الإسرائيلى فى غزة، وهو ما يعنى أن مشكلة إسرائيل صارت أكثر تعقيدا، وأن الحلم بتفكيك سلطة حماس - مع احتفاظها بأسير إسرائيلى - يبدو كأمل إبليس فى الجنة، فسلطة حماس زاد التأييد لها بشدة فى غزة أيام المحرقة بالذات، ونقلت صحيفة إسرائيلية عن "ضابط فتحاوى" قوله : "أن غزة صارت كلها حماس"، وهم فى إسرائيل يفسرون ما جرى على طريقتهم، يقولون : إن أهل غزة فى أسوأ أحوال معيشة، وإنه لم يعد لهم سوى كرامتهم، وإن حماس التى تحارب معهم وعنهم هى عنوان الكرامة، والتفسير - باستطرادات الشروح - فيه بعض الحقيقة، لكنه لا يشرح القصة كلها، فسلطة حماس لا تبدو سلطة بالمعنى الدارج المكروه المبتذل عربيا، فهى سلطة قد تنطوى على تشدد وضيق أفق

أحيانا، لكنها سلطة غاية فى النزاهة، ومثلها الأخلاقية لم تعطب بعد، ثم أنها تستعيد - بضغط الحوادث - برنامج المقاومة كاملا الآن، وبعد أن كانت مهددة بالتورط فى برنامج المساومة واتفاقات الهدنة، وتلك ميزة هائلة لحماس بالمقارنة مع خوار سلطة عباس.

والذى يراجع ما جرى أيام المحرقة، وهى قابلة للتكرار ربما بصورة أكبر، يجد أن برنامج حماس - أو قل برنامج المقاومة - قد كسب الجولة بامتياز، فقد ثبت أن قوة حماس فوق المقدرة الإسرائيلية على تفكيكها، ربما لأن تكاليف الدم المطلوبة فوق ما تطيق إسرائيل، ثم أن حماس استفادت من جلاء إسرائيل النسبى عن غزة، وطورت كتائب عز الدين القسام إلى ما يشبه جيش حرب عصابات محترف بتقاليد عسكرية غاية فى الانضباط، وهذه نقطة فى غاية الأهمية، إذ إن تشتت الأذرع العسكرية للفصائل الفلسطينية يبدو مشكلة كبرى، وتجاوز التشتت إلى التوحد لم يتم بعد، وإن بدت الرغبة ظاهرة فى تصريح أخير لأحد قادة "كتائب شهداء الأقصى" ذراع فتح العسكرى، والذى طالب باستعادة الفرقة العسكرية الموحدة، وفى غيبة الإمكانية السريعة لدمج الفصائل العسكرية، بدا البديل ظاهرا فى تطور وزن كتائب عز الدين القسام ذاتها، وبصورة جعلتها أشبه بالعمود الفقرى لفصائل السلاح الفلسطينى، ولا تبدو قوة كتائب القسام محجوزة فى خزين السلاح، ولا فى ترسانة صواريخ قابلة للتطور فقط، بل فى انضباطها وطابعها الاستشهادى، ومقدرتها المتزايدة على تطوير تكتيكات القتال، وفى الطابع الحيوى لقياداتها القابلة للإحلال والاستبدال بكفاءة ظاهرة، وهو ما يدهش الإسرائيليين إلى حد الذهول، فقد جربت إسرائيل تكتيك قطع الرأس فى حماس، واكتشفت أن حماس تبدو كائنا أسطوريا بألف رأس، اغتيالات القادة من أحمد ياسين إلى الرنتيسى وأبوشنب لم تؤد إلى تراجع فى طاقة حماس، ولم تضعفها حملات

الاعتقال لقادة الكتائب والوزراء ونواب المجلس التشريعي، ولا يبدو التقدم الإسرائيلي الوارد إلى حملة اغتيالات لقادة من وزن محمود الزهار وإسماعيل هنية وسعيد صيام - وغيرهم - تكتيكا مفيدا، فهؤلاء ليسوا من طلاب المناصب ولا من طلاب الدنيا، واغتيالهم يزيد من قوة حماس، والتي تبدو كشجرة ترتوي بدم الشهداء الزكي، تماما كما أن اغتيال المهندس يحيى عياش - قبل عقد ويزيد - لم يضعف كتائب عز الدين القسام، وصارت إسرائيل تتكلم اليوم عن أسطورة "الجعبري" رئيس أركان حرب حماس، وربما يدرك المعلقون الإسرائيليون - في غالبهم - حقيقة ما يجرى، فهم يتحدثون عن عدم جدوى تكتيك الاغتيالات والاعتقالات بالجملة، ويعتبرونها معارك صغيرة قد تجلب الحماس الجماهيري الموقوت لجنرالات إسرائيل، لكنه الحماس القابل للتبدد بسرعة، وإلى حد أن علق أحدهم على عبثية اختيار الحرب البرية في غزة، وتساءل ساخرا : هل يريدون تنصيب "فلنائي" رئيسا لسلطة غزة بدلا من هنية ؟!، وفلنائي - رئيس الأركان الإسرائيلي - هو الذي هدد غزة بالهولوكست، ونفذ المحرقة بالفعل، ولكن دون أن تحترق حماس، ودون أن يحترق حماس الناس لحركة حماس .

ولأن المعركة تبدو متصلة، ولا يبدو من مخرج لإسرائيل إلا أن تواصل الحرب، فإن انتصار برنامج المقاومة في المحرقة الأولى هو الخطوة الأولى في خريطة طريق من نوع مختلف، فلم تكسب حماس بقدر ما كسبت في أيام المحرقة، ولم تكسب القضية الفلسطينية من سنوات بقدر ما كسبت في الأيام ذاتها، فقد بدت سلطة عباس - وبرنامجها في المساومة - ذاهبة إلى المأزق الأخير، وخصوصا بعد أن كشفت مجلة "فانيتي فير" - الأمريكية - وثائق خطة دايتون التي تورط فيها دحلان وعباس ضد حماس، حاولت سلطة عباس في بداية المحرقة أن تجاري الدعاية الإسرائيلية، وأن تتهم حماس وصواريخها

بما جرى، لكن عاصفة الدم الفلسطينى انتهت بها إلى إحناء الرأس، وقررت وقف المفاوضات مؤقتا مع أولمرت، وهو ما اعتبرته رايس ـ وزيرة الخارجية الأمريكية ـ انتصارا لحماس، وجاءت لتصل ما انقطع فى شبكة عنكبوت "أنا بوليس" وخريطة الطريق الأمريكية، ولكن بلا جدوى مؤكدة، خصوصا مع الروح الجديدة التى أيقظتها معركة غزة فى أوساط الفلسطينيين بالذات، فقد بدت غزة مع الضفة والقدس موحدة على نداء المقاومة، وبدا احتشاد البوليس الإسرائيلى فى القدس هو الوجه الآخر لاحتشاد الجيش الإسرائيلى على حدود غزة، وبدت المعركة موحدة من رمى الصواريخ فى غزة إلى رمى الحجارة فى القدس، وبدا أن الانفصال الفلسطينى بين غزة والضفة ـ بأثر من انفصال السلطة ـ قد انتهى عند القاعدة الجماهيرية الأوسع إلى وحدة وطنية كفاحية، وربما يكون العائق الباقى هو وجود السلطة الفلسطينية ذاتها، سلطة العبث التى أقيمت كحاجز أمنى بين الشعب الفلسطينى وقوة الاحتلال الإسرائيلى، وطبيعى أن اتصال الحرب الإسرائيلية فى غزة، والغارات الإسرائيلية فى الضفة، وتداعى الحوادث بالدم السيال، والقلق المصاحب، كل ذلك ربما يجعل مهمة حل السلطة الفلسطينية ـ عمليا ـ أكثر سهولة، ونظن أن حل هذه السلطة مفيد لحرب التحرير الوطنى الفلسطينية، وقد يتيح الفرصة للبحث عن إطار سياسى موحد بمنظمة التحرير أو بغيرها، ويتيح الفرصة لوحدة وطنية فلسطينية فى ميادين السلاح أولا، ويسمح بالتقدم إلى بناء قيادة مسلحة بانتفاضة ثالثة هى أظهر ما يحتاجه الوضع الفلسطينى الآن، وفى دراما حرب استكمال تحرير غزة، والبدء بتحرير الضفة، ومما له مغزى أن تعليقات الإسرائيليين على مظاهرات القدس والضفة بدت منتبهة لما يجرى بأكثر من معلقين عرب، ووصفتها بأنها تشبه ما جرى عشية الانتفاضة الثانية، فقد كان الاعتداء على الأقصى هو شرارة تفجير الانتفاضة الثانية، وحرب "حرق غزة" ربما تصبح شرارة اشتعال الانتفاضة الثالثة.

الخطوة الثالثة ـ بعد حل السلطة ووحدة السلاح ـ فى خريطة طريق المقاومة بدت بوادرها ظاهرة فى عواصم العرب القريبة من فلسطين بالذات، فقد ثبت أن الحكام ليسوا صامتين كما يشاع، وأنهم شاركوا بالتواطؤ ـ وبدعم المجهود الحربى الإسرائيلى ـ فى عملية إبادة الفلسطينيين، وتولد ـ بالمقابل ـ تعاطف شعبى مستعاد لصالح القضية الفلسطينية، ففى وهج نيران المحرقة الإسرائيلية استيقظت العواطف الكامنة من مراقدها، وبدا اتصال المقاومة بالسلاح مع المقاومة بالسياسة ظاهرا بشدة، فعدا الوضع المموه والمختلط فى سوريا، بدت حركات المعارضة للنظم ـ فى القاهرة وبيروت وعمان ـ على خط النار مع الفلسطينيين بالضبط، وبدت القضية العربية موحدة ضد حلف النظم مع أمريكا وإسرائيل، وتأكد أن بركة الدم ـ الفلسطينى بالذات ـ تزيح الغشاوات عن الأبصار فإذا هى اليوم حديد .

قمة.. والعياذ بالله !

7

ربما لا يعرف أحد ـ بالضبط ـ سر ولع الملوك والرؤساء والأمراء العرب بعقد قمة دورية، مع أن القمة لم تعد تعنى شيئا عربيا، ولا يهم أحدا إن هى عقدت أو تأجلت أو حتى ألغيت، فقد تحولت إلى حفلة مراسم من طراز ردىء، وتحولت إلى ما يشبه الجنازة بالملابس الرسمية .

لطريف أن تقرير "دورية" القمة جاء فى الوقت نفسه الذى ذهبت فيه قيمتها، فالدورية - من حيث الإجراءات - قد تعنى الانتظام، بينما فى المضمون جاءت "الدورية" أقرب إلى نعى سنوى للنظام العربى برمته، وربما المفارقة ذاتها فى وضع الأمين العام للجامعة العربية، فالسيد عمرو موسى - وزير الخارجية المصرى الأسبق - واحد من أكثر أمناء الجامعة كفاءة واقتدارا، لكنه تولى الجامعة - لسوء الحظ - فى الوقت ذاته الذى ذهب فيه معناها، وربما تبقى له المبنى بعد انحسار المعنى، وبدا موسى حريصا على ملء فراغ المعنى بكثرة الإجراءات الإدارية، بإنشاء المفوضيات، وبتوالى " المكوكيات "، وبتنشيط العلاقة مع الصحافة، وباستعراضاته اللغوية التى انتهت إلى "إشهار يأس" فى اجتماع وزراء الخارجية العرب الممهد لقمة دمشق، وحيث استعار

الآية القرآنية الكريمة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، ثم ختم بالآية الأخرى "ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"، والمعنى - فى التفسير السياسى - أن موسى رغب فى تغيير بدا له مستحيلا، وأنه يسلم بمصير الجامعة وقممها ذاهبة الريح، وأنه يريد أن يحجز لنفسه حق القول - بعد التقاعد - أنه حذر وأنذر وما من مستجيب، فقد ألقى موسى عصاه فإذا هى "حية" ماتت، وتوافر للجامعة واحد من أفضل أمنائها فى نفس اللحظة التى كانت تزهق فيها أنفاسها الأخيرة .

وليس الخطأ بالطبع فى حرص دورى على انعقاد القمة، ولا فى محاولة بعث الروح فى الجامعة التى تجاوزت سن الإحالة على المعاش، بل الخطأ فى غياب الإرادة السياسية التى تحفظ للجامعة والقمة معنى، أو قل إنه الخلل

الجوهرى الذى جعل خيمة العرب مطوية على الرمل، لا نقول إنه الانقسام فى الآراء ولا فى الإرادات، فلا توجد آراء ولا إرادات ذاتية لأحد من المقعدين العرب فى قصور الحكم، إنما الإرادات مستعارة وتابعة بالجملة، وما يقال له "محور اعتدال" فى مواجهة "محور تشدد" يبدو كلاما بلا معنى، فليس من إرادة فى المنطقة الآن - بالمعنى النظامى - سوى إرادتين، إرادة أمريكا وإرادة إيران، وإرادة أمريكا هى السارية فى أغلب عواصم العرب، والبيت الأبيض هو منزل الوحى للنظام العربى بعامة، والعواصم العربية الرئيسية - بحكامها ووزراء دفاعها وخارجيتها بالذات - هى مجرد مكاتب ترجمة للإرادة الأمريكية، وقد كان الانهيار الكبير للنظام العربى مرتبطا أكثر بالمشروع الأمريكى، فقد خرجت مصر من الصراع العربى الإسرائيلى بكامب ديفيد الأمريكية، وكان خروج مصر - بثقلها الحاسم - من الصراع يعنى خروجها على النظام، كان خروج مصر يعنى خلعا لوتد الخيمة، ثم انزلقت مصر من الخروج إلى التورط المعاكس بعد غزو العراق للكويت، وذهبت العواصم الرئيسية (القاهرة - الرياض - دمشق) بسلاحها تحت القيادة الأمريكية إلى حرب الكويت، ثم جرى الاستطراد فى الخطيئة إلى نهايتها، وبدت خرائط العرب حقلا ممتدا لقواعد سلاح أمريكية من بورسعيد إلى الكويت، كانت تلك هى *الصورة "اللوجستية" الجديدة للمنطقة*، والتى ورطت العرب بدعم المجهود الحربى الأمريكى لغزو العراق بعد ثلاث عشرة سنة على حرب الكويت، وكان طبيعيا فى ظل التسابق إلى نجدة السلاح بالزحام أن انتهى النظام، وأن تغيرت هوية النظام الذى ظل يتحدث باللغة العربية على سبيل الخداع، بينما المضمون أمريكى خالص، وبينما انعقادات القمة محفوفة دائما بالبركة الأمريكية، وبينما جداول الأعمال مرتبطة - دائما - بأضواء خضراء أو حمراء تصدر من واشنطن، وبينما نظام الأمن الجماعى العربى - باعتباراته الذاتية -

يتوارى، ويحل محله نظام أمن جماعى أمريكى الأولويات، وإلى حد بدت معه القمم العربية فى خانة الموارد الإضافية للقوة الأمريكية، وتماما كقمم الثمانية الكبار، وقمم حلف الأطلنطى، وباعتبارات رعاية أكثر لقمم تعقد فى ساحة الصدام المباشر مع قوة إيران التى أخذت أجندة عربية تركتها الجامعة من زمان (!).

وليست مصادفة أن عمر الجامعة وقممها من عمر الصراع العربى الإسرائيلى ذاته، وبقطع النظر عن أدوار لبريطانيا ـ التى كانت عظمى ـ فى سنوات نهاية الحرب الثانية، فقد بدا التقدم لإنشاء الجامعة العربية مرتبطا بوصول التجمع الإسرائيلى "اليشوف" إلى ذروته فى فلسطين أواسط الأربعينيات، وليست مصادفة أن اتفاقات الدفاع المشترك سبقت اتفاقات السوق المشتركة، اتفاقات الدفاع بدأت أوائل الخمسينيات، واتفاقات الاقتصاد بالقرب من نهاية الخمسينيات، واتفاق السوق المشتركة فى أواسط الستينيات، وكانت الفجوة ظاهرة دائما بين الاتفاقات والوقائع، ربما كان السبب فى انقسامات تداعت بين طرف ذى إرادة عربية مركزه القاهرة، وأطراف أخرى ظلت تلتحف بظل الاستعمار فى دراما الخمسينيات والستينيات، كانت القمم المتفرقة تعكس باطراد واقع انسحاب الاستعمار بقواعده من المنطقة، لكنها لم تكتسب المعنى الجاد الجامع إلا فى الفترة من هزيمة ١٩٦٧ إلى حرب ١٩٧٣، وكان الدرس ظاهرا، فقد توافر الهدف الموحد المجمع عليه، وهو إزالة آثار العدوان الإسرائيلى، وكان الاختيار ـ فى قمة الخرطوم ـ لا صلح ولا تفاوض ولا اعتراف، وسمح الاتفاق على الهدف وفى الاختيار بتوزيع أدوار هو الأكثر كفاءة فى الحياة العربية الرسمية الحديثة والمعاصرة، دول على خط النار، ودول على خطوط الدعم، وكانت تلك هى القوة الدافعة وراء النصر العسكرى النظامى فى عبور ١٩٧٣، والذى عاد على عرب السلاح برد جزء من الكرامة

المستباحة فى عدوان ١٩٦٧، وعاد على عرب الدعم بطفرة هائلة فى مداخيل البترول، وبعد تجربة قصيرة لوقف تصديره على سبيل الضغط الداعم للسلاح، لكن خروج القاهرة بعدها - بخطيئة السادات - جعل النظام العربى فارغا من المعنى، وبغير مركز تأثير يوحى وينظم، وحوّل مبنى الجامعة فى قلب القاهرة إلى متحف أثرى قريب بالجغرافيا من المتحف الفرعونى، ثم كانت تداعيات الاستلاب للإرادة الأمريكية، وإلى حد أن القمة العربية سنة ١٩٨٧ لم تذكر القضية الفلسطينية بحرف، وهو ما كان سببا - بين أسباب - فى تفجير الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وإلى دفعة هائلة فى الأثر الملهم للمقاومة اللبنانية التى سبقت إلى التكون قبلها بسنين، كانت فكرة المقاومة تنفصل عن نظام عربى انفصل عن القضية، راحت المقاومة تصنع إرادتها المستقلة، بينما كان النظام يحجز إرادته للآخرين، ويتحول إلى مقام التسول السياسى، ويمبادرة فهد فى قمم الثمانينيات، والتى انتهت إلى حمل اسم المبادرة السعودية فالمبادرة العربية الآن، كان النظام العربى المتداعى يجهد فى ستر عوراته، بينما نيران المنطقة تحترق بحجب الستر، وبعد عشرين سنة على الظهور الأول لمبادرة السعودية، كانت المبادرة تتحول - فى قمة بيروت ٢٠٠٢ - إلى نوع من طلب الصفح الإسرائيلى، وردت عليها إسرائيل وقتها باقتحام رام الله وحصار عرفات فى بيت المقاطعة، كان المشهد مخزيا، لكن أوراق التوت كلها سقطت حين أعيد تجديد المبادرة فى قمة الرياض ٢٠٠٧، فقد جرى التأكيد على نزع مخاوف إسرائيل كلها من نص المبادرة، وجرى إسقاط حق عودة اللاجئين بعبارة "الحل العادل المتفق عليه" .. مع إسرائيل طبعا !، وجرى التأكيد على اعتراف عربى جماعى بإسرائيل، وعلى التطبيع بالجملة إن هى تجاوبت مع مطالب انسحاب من أرض احتلتها، ثم لم يعد الانسحاب شرطا لتطبيع، وذهب الكل - كقطيع الخراف - إلى لقاء أنابوليس بنهاية عام القمة،

وفى خطوة بدت كاعتراف دون وعد بانسحاب، فلم تعد القضية الفلسطينية هى حجر الزاوية، بل صارت القضية الإيرانية، وحيث يجرى توزيع الأدوار بين إسرائيل والدول العربية الثمانى (دول الخليج الست + مصر والأردن) فى حلف رايس، وتحت القيادة الأمريكية، وجرى عزل دمشق بدفعها للخروج من لبنان، ثم بعملية "خض ورج" للنظام السورى، وتهديده بمصير صدام، ومحاولة دفعه للدخول فى صدام بالسلاح مع حزب الله، وقطع الروابط مع "العدو الإيرانى" الذى يراد إحلاله محل "العدو الإسرائيلى" السابق، وبعد أن صار الأخير صديقا ظاهرا للنظام العربى وعواصم القرار فيه(!) .

هذه هى بيئة السياسة التى تعقد قمة دمشق فى سياقها، وليست هذه دعوة لعدم الاهتمام بالقمة، ولكن لوضعها فى مكانها بالضبط، فليس فيها شئ عربى من أصله، وإن ازدحم جدول أعمالها بما يبدو عربيا، ولا يصح وصفها بقمة الصامتين والعاجزين كما يقال أحيانا، بل هى قمة للمتواطئين، القضية الفلسطينية على جدول أعمالها، ولكن ليس لنصرتها بل لتصفيتها، والقضية الإيرانية هى التى فى البال، ولأن أمريكا ـ راعية القمة الحقيقية ـ تريد ذلك، وتوزيع الأدوار على أطراف "العدوان الثلاثى" هو جوهر الخطة، فالنظم العربية ـ بغالبها ـ هى الطرف الثالث فى العدوان مع أمريكا وإسرائيل، والتصور هو أن حصار إيران ـ إلى حد الهجوم العسكرى ـ هو الطريق الأسلم لتصفية جماعات المقاومة على جبهة الصدام مع إسرائيل، فإسرائيل لم تعد عدوا للنظم العربية، بل هى فى وضع الحليف الضمنى، والنظم العربية لم تعد تريد من إسرائيل أن تنسحب من أرض، بل تريد لها أن تبقى كما هى، ومقابل أن تبقى النظم العربية كما هى تحت الرعاية الأمريكية، فلم يعد مطلوبا مقايضة السلام بأرض، بل السلام مقابل سلامتك(!).

وربما تحتاج إلى خلع عقلك لتصدق أن خيرا له أن يتأتى من وراء اجتماع حكامنا بسلامتهم، فهم ذاهبون ليس إلى قمة فيها إيحاءات العروبة الدمشقية، بل إلى قمة يعظ فيها الشيطان الأمريكى .. والعياذ بالله!.

٢٠٠٨/٣/١٧

نهاية أمريكا فى العراق

8

لا تصدق الذى يقول لك إن أمريكا قادرة على كل شئ، فقد ثبت أن أمريكا عاجزة عن بلوغ أى شئ، وقد صنعت محنة العراق، لكنها انتهت إلى المحنة فى العراق ذاته، وربما ليس بوسعها الخروج من المأزق، أو استعادة حلم القرن الأمريكى الإمبراطورى الذى ذهبت به إلى بغداد .

ولا تبدو القصة رهينة بخيبة بوش وحماقته، ولا بتيار المحافظين الجدد، فالقوة الأمريكية ذاتها دخلت فى اختبار ربما يكون الأخير، وثبت أن أمريكا تملك قوة نيران هى الأعظم فى التاريخ، لكنها لا تقدر على شفع قوة النيران بقوة اجتياح وثبات على الأرض، فمجد أمريكا فى عربة النيران السماوية، وفى حاملات طائرات وصواريخ تقصف من بعيد، لكن ما إن تقترب حتى تتكشف ثغراتها وعوراتها، وتبدو هزيمتها أقرب للعبة تسلية.

شئ من خيبة أمريكا حدث ويحدث فى أفغانستان، لكن الهزيمة الأكبر كانت بانتظارها فى العراق، وقد فقدت إلى الآن - بأرقامها الرسمية - أربعة آلاف جندى من قواتها الرسمية، وأكثر من نصف هذا الرقم من قواتها غير الرسمية فى شركات المرتزقة الأمنية، أضف : عشرات الآلاف من الضباط

والجنود انتهوا إلى حالة عجز بدنى دائم، أو إلى تلف أعصاب وجنون بالجملة، وقد بدا الثمن الدموى فوق مقدرة أمريكا على التحمل، وإلى حد أن اثنين من فرسان انتخابات الرئاسة الأمريكية الماضية يطلبان الانسحاب من العراق، باراك أوباما يطالب بانسحاب فورى، وهيلارى تطالب بانسحاب أقل فورية، بينما تتناسل غباوة بوش فى المترشح الجمهورى جون ماكين، والذى قدم نفسه للجمهور الأمريكى باعتباره بطلا فى حرب فيتنام، أى أنه يقدم للناس بطاقة بطولته فى حرب هزمت فيها أمريكا، وكأن الهزائم هى ميدان البطولات، وهو ذات العوار النفسى الذى يدفع ماكين للتهديد ببقاء أمريكا فى العراق لمائة سنة مقبلة، بينما لا يريد بوش - عنوان الخيبة - انسحابا متعجلا يؤكد الهزيمة فى العراق .

وفوق فاتورة الدم، تبدو المؤسسة الأمريكية - الأبقى من الرؤساء - في حالة غم، فقد ذهبت أمريكا للعراق من أجل البترول أولا، ولم تكن قصص أسلحة الدمار الشامل، ولا دعاوى علاقة صدام حسين بتنظيم القاعدة، ولا حتى إسقاط صدام حسين نفسه، لم تكن تلك كلها سوى ذرائع ووسائل، وستار كثيف من دخان الأكاذيب، وبروباجندا صاخبة قصدت التخفي بالهدف الأكثر جوهرية، وهو سرقة بترول العراق في الحال والاستقبال، فلدى العراق احتياطي بترول تقدر قيمته في الحد الأدنى بثلاثين تريليون دولار، وهذا هو الكنز الذي ذهبت أمريكا لسرقته في العراق، وارتكبت من أجله أشنع الجرائم، قتلت مليون عراقي لأجل البترول، وشردت أربعة ملايين، وحجزت عن الشعب العراقي ثروته العظمى، ونزلت بنصف العراقيين إلى ما تحت خط الفقر المدقع المقدر بدولار واحد في اليوم، وحرمت ثلاثة أرباع السكان من مياه الشرب، وتضاعفت بأرقام البطالة إلى نصف القوة العاملة بتقديرات تقرير مثير لمنظمة العفو الدولية، كانت تلك مأساة مرعبة بذاتها، فوق أن دولة العراق جرى تفكيكها عمليا، وجيش العراق جرى حله منذ أول أيام الاحتلال، أي أنها وضعت العراق في الجحيم، لكنها - مع ذلك - لم تصل إلى جنة البترول، بل دفعت - فوق فاتورة الدم - فاتورة مال باهظة التكاليف، فقد أنفقت أمريكا على حربها في العراق ٥٠٠ مليار دولار إلى الآن، ولو قدر لها أن تبقى في العراق إلى أواسط العقد المقبل (٢٠١٥)، فسوف تقفز التكاليف الأمريكية إلى ثلاثة تريليونات دولار، أي أن أمريكا التي ذهبت إلى العراق لتكسب مالا وبترولا، وجدت نفسها تسحب من رصيدها .. وعلى المكشوف، وتزيد من عجز ميزانيتها المزمن، وإلى حد أن أصبح الدولار تهمة لا نعمة، وتراجعت قيمته كما لم يحدث من قبل، وصار رجل العملات المريض، وبدت حرب العراق - بتوابعها الاقتصادية - كأنها حظ أمريكا "النحس" في لعبة الأمم.

وكثيرا ما يقال إن حرب العراق تشبه حرب فيتنام، ورغم إغراء التشبيه بإيحاءات الهزيمة الأمريكية فيه، إلا أن حرب العراق تبدو أكثر تأثيرا فى مصائر العالم من حرب فيتنام، فللوهلة الأولى تبدو مقاومة فيتنام ـ فى زمانها ـ على حال أفضل لوجستيا، كانت مقاومة "الفيت كونج" فى جنوب فيتنام موصولة بالدعم من "هانوى" عاصمة الشمال، وكانت هانوى ـ هى الأخرى ـ متصلة خطوطها بدعم سخى من الصين والاتحاد السوفييتى السابق، وكان لهزيمة أمريكا فى فيتنام أثرها فى مد عمر توازن دولى من نوع خاص، كان لها أثرها فى مد عمر استقطاب ثنائى على القمة الدولية بين واشنطن وموسكو وقتها، أى أن أثر حرب فيتنام كان ظاهرا فى تثبيت صورة لعالم معين، بينما يبدو أثر حرب العراق مختلفا فى المغزى، فهو أقرب إلى تغيير صورة لا تثبيت صورة، صحيح أن المقاومة العراقية تبدو محرومة من خطوط دعم، وهذه معجزة فى حد ذاتها، أن تبقى مقاومة دون شرايين دعم موصولة عبر الحدود، وعلى ما يبدو من تناقض وتعدد لا نهائى فى فصائل المقاومة العراقية، فإن مقدرتها البادية توحى بمدد من خزان لا ينفد، وصناعة عسكرية ذاتية، وارتباط هائل بالسكان إلى الغرب والوسط والشمال الكردى بأكثر منه إلى الجنوب الشيعى، تبدو المقاومة العراقية كدولة تحت الأرض، دولة كاملة بأجهزة مخابراتها ونظامها السياسى والعسكرى، دولة محورة ـ إسلاميا ـ من نسخة دولة حزب البعث، وهو ما يمدها بطاقة شهادة دينية وتنظيم عصرى فى وقت واحد، ويفسر مقدرتها الهائلة على التجدد كلما بدا أنها انتهت، وعلى رسم سياسة "هندسة عكسية" لما تريده أمريكا بالضبط، وتحويلها لحكومة الاحتلال إلى مجرد رسم كاريكاتورى، وإلى رئيس وحكومة ووزراء وبرلمان يتخفى خلف حواجز المنطقة الخضراء، أو ربما وراء الحدود غالب الوقت، فهى حكومة تراسل شعبها ولا تحكمه، وتكتفى من مغانم السلطة بجوائز السرقة

العامة، وهو ما يفسر كيف أن دمى مثل الطالبانى والمالكى - وغيرهم - فى حالة فزع كلما ذكرت كلمة الانسحاب، فهم الأشد تمسكا ببقاء قوات أمريكا بأكثر مما تريد واشنطن ذاتها، فدولة المقاومة قادرة على هزيمة دولة أمريكا بالعراق فى بضع ساعات، وبمجرد أن تنسحب قوات أمريكا من العراق، أو حتى أن تركز انتشارها فى "قواعد دائمة" محجوزة بالجغرافيا على خريطة العراق نفسه، وهو ما يعنى أن أمريكا ذهبت إلى المستنقع العراقى لتغوص أقدامها فيه أكثر فأكثر، ودون مقدرة على تحقيق الهدف الأصلى بسرقة البترول، وبلا مقدرة على تثبيت نظام موال، ولا مقدرة على إعادة رسم خرائط المنطقة بخطة الشرق الأوسط الموسع، ولا مقدرة على مد عمر الهيمنة والتحكم الأمريكى فى مصائر العالم الأوسع .

فى كتابه "صعود وسقوط القوى العظمى"، تنبأ المؤرخ الأمريكى الشهير جون كينيدى بمأزق أمريكا الأخير، كانت البوادر ظاهرة فى ركود الاقتصاد الأمريكى فى الثمانينيات، وقد أعقبه انتعاش نسبى فى التسعينيات، وإلى ما قبل غزو العراق، لكن العلة ظلت على حالها، زيادة مخيفة فى عجز الميزان التجارى لصالح اليابان فالصين، وتراجع مطرد فى الطابع الإنتاجى للاقتصاد، وزيادة مطردة فى مكون المضاربات المالية واقتصاد الخدمات، ولجوء غريزى إلى تعويض النقص بتضخيم عضلات السلاح، أى التحول المطرد - والوصف التالى من عندنا - إلى سرقة العالم بإكراه السلاح، ونتصور أن ما جرى له دوافع مضافة إلى تناقض ثنائية الاقتصاد والسلاح التى ذكرها كينيدى، فصورة العالم كله كانت تتغير باطراد فى الثلاثين سنة الأخيرة، وقوة الاقتصاد والتكنولوجيا كانت تتمدد فوق الخرائط بصورة لم تحدث فى الخمسة قرون الأخيرة كلها، ففى اللحظة التى بدا فيها لأمريكا أنها تحمل الكرة الأرضية فوق أصابعها، كانت حقائق العالم تقول العكس، بدا

سقوط موسكو الشيوعية الدرامى مواتيا لأمريكا، كذا دمج شرق أوروبا ـ الشيوعى سابقا ـ إلى غربها، وفى الوقت الذى بدت فيه تحولات العالم فى الغرب والشمال لصالح قيادة أمريكا لغرب يحكم العالم، كان العالم الأوسع يفلت من هيمنة الغرب التاريخية، كانت الدنيا فى الشرق والجنوب تتغير بكثافة وسرعة، وكان زهو أمريكا بقواتها الأحادية القطب أقرب إلى الوهم والافتراض التخيلى، فقد نزل الاقتصاد الأمريكى من مكانة نصف اقتصاد العالم عقب الحرب الثانية، وانتهى إلى ما يزيد قليلا عن ربع اقتصاد العالم فى بدايات القرن الجارى، وجرى كسر احتكار أمريكا لسلاح الرعب الذرى فى نهاية الحرب الثانية، وتوزعت القوى النووية ـ سلمية وعسكرية ـ على أكثر من ثلاثين دولة، وبدت القوى الناهضة إلى الشرق والجنوب الآسيوى واللاتينى كأنها قلب الحركة الفوارة لعالم تتغير موازينه، ودون إنكار لديناميكية أمريكا كدولة استقبال لمهاجرين ممتازين من زبدة عقول الدنيا كلها، فإنها سوف تظل ـ على الأرجح ـ قوة عظمى ومؤثرة على خرائط العالم، لكنها ـ بالتأكيد ـ لن تظل فى مكانة القوة الأعظم، وربما كان الخوف الغريزى من تدنى المكانة، والرغبة فى التعويض بامتياز سلاح تبقى لها، ربما كان ذلك ما دفعها إلى حرب النهاية فى العراق، وربما الهروب إلى الأمام بهجوم محتمل ضد إيران، والتورط فى حرب استنزاف لهيبة الصورة الأمريكية بعد تشوش الأصل، إنها حرب أمريكا الأخيرة التى لن تنتصر فيها أبدا، بينما يبدو الربح محجوزا للآخرين.

الرئيس الأجرب وملوك الخيبة

9

بدت المفارقة ظاهرة، لكنها الخيبة التى تجمع الرئيس الأجرب مع ملوك "الكوتشينة"(!).

فى قصور الخليج، بدت شعبية بوش – وقتئذ – طاغية، وبدت السيدة رايس ـ وزيرة خارجية بوش آنذاك ـ كأنها تجمع عبيدها إلى مائدة، وبدا أمرها نافذا فيهم بغير تعقيب ولا تثريب، أمرتهم بالذهاب للعراق، وفتح السفارات فى المنطقة الخضراء، والتنازل عن الديون والتعويضات، وليس لأجل ضمان عروبة العراق، فوزير خارجية العراق ـ الذى صاحب رايس ـ كردى انفصالى وليس عربيا، وليس لأجل دعم الشعب العراقى، بل لدعم حكومة المالكى فى الحرب مع المقاومة الصدرية بعد البعثية والإسلامية، وعلى ظن أن ذلك قد يحاصر النفوذ الإيرانى، وكأن النفوذ الإيرانى مجرد سفارة فى بغداد قد يحاصرها وجود سفارات عربية(!)، وبدا انصياع عواصم الخليج ـ ومعها القاهرة وعمان ـ ليس عن مظنة اقتناع، بل تنفيذا لأوامر بوش التى لا راد لها، ولا عاصم من شقائها.

وفى واشنطن، بدت الصورة مقلوبة، بدا الأمر هنا مهانا هناك، بدت خيبة بوش أكبر من خيبة قبيلته من الحكام العرب، بدا بوش ضحية لفشله فى العراق بالذات، فقد نشرت صحيفة "الواشنطن بوست" مقالا لكاتب العمود الشهير دان فرومكين، كان العنوان: بوش هو الرئيس الأكثر فشلا فى التاريخ الأمريكى، وبأرقام الاستطلاعات الأحدث كان المغزى ظاهرا، ففى آخر استطلاع لمعهد جالوب، تراجعت نسبة الموافقين على أداء بوش الرئاسى إلى ٢٨٪، بينما كانت النسبة ذاتها ٩٠٪ عقب حوادث وعواصف سبتمبر ٢٠٠١، ووصلت نسبة المعترضين بشدة على أداء بوش إلى ٦٩٪، ٦٪ بسبب تراجع الاقتصاد، و ٦٣ ٪ بسبب الفشل المريع فى العراق، وفى استطلاعات رأى أخرى ـ كما يقول فرومكين ـ فإن أربعة أخماس الأمريكيين يريدون الخروج من

العراق، ولم يسبق لرئيس أمريكى أن انتهى إلى هذه الخيبة، فحين استقال الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون، وأرغم على الخروج من البيت الأبيض، وكان من حزب بوش الجمهورى نفسه، كانت نسبة المعترضين على أدائه الرئاسى بعد فضيحة ووترجيت ٤٨٪ لا أكثر، وكانت نسبة المعترضين على الأداء الرئاسى لهارى ترومان ـ سنة ١٩٥٢ ـ ٦٧٪، وليست ٦٩٪ كما هى حال بوش، وكان تدنى نسبة التأييد لترومان عائدا إلى الفشل فى الحرب الكورية وقتها، تماما كما أن انحطاط نسبة التأييد لبوش عائد ـ بالأساس ـ للفشل الأمريكى فى الحرب العراقية، أى أن بوش يبدو فى بلاده ليس كبطة عرجاء بل كرئيس أجرب، والسبب ـ بالذات ـ تضخم فاتورة الدم والمال التى يدفعها الأمريكيون فى العراق، ودون التقدم إلى إنجاز واضح فى هدف

السيطرة على احتياطى البترول العراقى، أى أن المنفعة غائبة والضرر ظاهر ومتفاقم، والمنفعة والضرر والحساب البراجماتى هى المعانى التى يفهمها الأمريكيون دون سواها، فلا أحد فى التفكير الغربى السائد يعرف الموقف الصحيح بصحته الأخلاقية أو القانونية أو المبدئية، ولا يعرف الخطأ بالمعايير العكسية المجردة، بل الصحة - دائما - مرتبطة بالنفع المباشر، والخطأ مقرون بالدم النازف والمال الضائع، وهذا هو السبب الجوهرى فى تحول ميزان الرأى العام الأمريكى ضد بوش، وليس لنوبة كرم وأخلاق مفاجئة، فقد كان يؤيده بحماس حين بدا بوش فى صورة رامبو بعد حوادث سبتمبر، وحين انتهى إلى المذلة فى العراق تفرق عنه تأييد الرأى العام، وربما تروق لبوش - فى محنته - فكرة الهروب إلى الأمام، وتوجيه ضربات جوية مكثفة ضد إيران، لكن الضربة - مهما بلغت ضراوتها - ليس متوقعا لها أن تسقط النظام الإيرانى، وهو ما يعنى أن خطر إيران فى العراق سوف يظل واردا، وربما بمعدلات أكبر، وعلى سبيل تصفية الحساب مع أمريكا، وبدوافع انتقام تتوافر وسائلها وقواتها .

وربما كانت هذه الصورة لمأزق بوش هى التى تدفعه لطلب نجدة من قبيلته العربية الحاكمة، وهو استطراد فى الخطأ إلى حد العمى، فملوك ورؤساء وأمراء حلف رايس - من القاهرة للبحرين - هم الذرية الضعاف فى القصة كلها، وخسروا الرهان على قوة رامبو الأمريكى الذى انتهى لمأزق لا فكاك منه فى العراق، فقد بنوا حساباتهم كلها على غرض البقاء لا غير، وبأى ثمن يسفح من كرامة أوطانهم أو من ثرواتها، ولم يروا غضاضة فى الإطاحة برأس صدام حسين مقابل أن تبقى رءوسهم، ونفذوا بالحرف أوامر السيد الأمريكى فى دعم المجهود الحربى، وبقواعد وتسهيلات وأجواء مفتوحة وحشود وجسر ممتد من بورسعيد على البحر الأبيض إلى الكويت عند رأس

الخليج، وقبل الإثم العسكرى كان الانحطاط قد جرى فى السياسة، وفى رهن الإرادة فى حساب بنك السياسة الأمريكية، فلم يكن ممكنا أن تفتح الطريق لغزو بغداد عسكريا، إلا أن سقطت القاهرة سياسيا قبلها بربع قرن، لكن الذى لم يتوقعه أحد حدث، نعم نجحت أمريكا فى غزو العراق كما كان متوقعا، وفى إسقاط صدام حسين فاعتقاله ثم إعدامه فيما بعد، وجرى تفكيك الدولة العراقية، بدا أن دولة العراق لقيت حتفها، لكن أمريكا أيضا - فيما لم يكن متوقعا - لقيت حتفها هناك، وربما المفارقة - الآن - أن العراق بوسعه استعادة الدولة، لكن أمريكا لم يعد بوسعها استعادة حلم النصر الذى تعجل بوش بإعلانه، ثم بدا أن حسابه طويل وبلا نهاية فى بيئة عراقية لديها من شراسة المقاومة ما يكفى لهزيمة ألف بوش .

بدت قبيلة بوش من الحكام العرب فى ذيل قوائم الحساب، فقد أدوا أدوارهم المقررة فى دعم المجهود الحربى الأمريكى، ثم تركوا العراق لواشنطن تفعل به ما تشاء، ثم لا شئ آخر، وكأن العراق - بعد الغزو - سقط من خرائط الجغرافيا والتاريخ العربى، أو كأنه حقل تجارب مخصوص لأمريكا، لكن الأخيرة بدت عاجزة، وبدت إعلانات بوش مثيرة للسخرية، وبدت ثقته فى حكومات الدمى - من علاوى للجعفرى إلى المالكى - فى غير محل، فهؤلاء بلا قيمة إلا بقدر ما للسيطرة الأمريكية بالسلاح، وهم جاءوا - فى أغلبهم - على ظهر دبابة أو فى معية طائرة عسكرية أمريكية، والانتخابات التى جرت كأنها لعبة أشباح، وتفكيك العراق - الذى أرادته واشنطن - فيه من الخطر بأكثر من دواعى السلامة للأمريكيين، فقد يبدو العراق - لأول وهلة كيانا مغريا بسهولة التفكيك، فهو أقرب إلى - والتشبيه لنا - "بواقى فساتين" تاريخية، الفستان الشيعى ممتد من مركزه الأكثف فى إيران إلى جنوب العراق ووسطه، والفستان السنى ممتد من مركزه فى السعودية وسوريا

والأردن إلى وسط وغرب العراق، والفستان الكردى ممتد من مركزه فى تركيا إلى رأس العراق، ويبدو العراق ـ على هذه الصورة ـ كأنه حقل دم، أو كأنه خط الصدام المباشر لجماعات محملة بأحقاد التاريخ وثاراته وأساطيره كلها، لكن هذه الصورة المغرية بالتفكيك وسهولته لا تبدو ملخصة تماما لأحوال العراق، هذه الصورة مجرد مشهد جانبى للعراق، وعلى ما يبدو فيها من إغراءات التصديق، فإن المشهد فى القلب ـ وبالتفاصيل ـ يوحى بالعكس، ففى الوسط الكردى نفسه تبدو النزعة العروبية ظاهرة بثقافة الإسلام ولغته الجامعة، وفى التكوين العراقى عروبة سلالية غالبة بنسبة ٨٠٪ على الأقل، وعشائر عربية جامعة فى الجنوب والوسط والغرب والشمال إلى كركوك، وهو ما يجعل الاصطفاف الطائفى الذى أرادته أمريكا ـ فى أوساط عرب العراق ـ على درجة من هشاشة الاصطناع لا ثبات الأصالة، ومحصور فى تكوين حكومات الدمى الطائفية بأكثر منه عند قواعد الامتزاج السكانى، ورغم محاولات تعميق الشرخ، وبعمليات تفجير مشبوهة كما جرى فى مرقد الإمامين العسكريين بسامراء، واستثارة ما يشبه حرب أهلية انتهت مشاهدها إلى فرز سكانى مؤسف، لكن عناصر التجاذب بدت صامدة وقادرة على الحد من أثر صناعة التنافر، وبدا النسيج العراقى الضام قابلا لالتئام، وربما تلخص سيرة المقاومة العراقية القصة كلها، فقد بدت المقاومة فى البداية كأنها سنية الطابع، وبدواعى استعادة العرش الضائع، ثم بدا للمراقب عن كثب، أن المقاومة تستقطب عطف الأكراد على الطريقة النقشبندية، فيما بدا تيار المقاومة الصدرية عروبيا بامتياز، ومستقطبا لغالب الولاء الشعبى فى أوساط الشيعة، أى أن المقاومة تميل أكثر فأكثر لأن تكون بحجم العراق، ورغم عوائق متصله بثارات موروثة من زمن صدام حسين، فإن عناصر التجاذب تبدو على حيوية أكبر من عناصر التنافر، وتبدو استعادة العروبة الموحدة للكيان

العراقى ممكنة أكثر على أساس وحدة المقاومة للأمريكيين، وبانتظار قوة صهر قادرة على بناء العراق العربى المقاوم لا عراق الوصاية الأمريكية .

وطبيعى، أن أمريكا لا تريد عراقا عربيا بالمعنى المقاوم، لا تريد لقاء ولا تقارب الصدريين مع البعثيين والإسلاميين المقاومين، وتخوض حربا ضد الكل وبغير أمل فى النصر، وتعلق هزائمها على مشجب النفوذ الإيرانى، ويستنجد رئيسها بوش بقبيلته العربية التى تطيعه طاعة العبد للرب، وليس واردا بالطبع أن تسدى نجدة ملوك الخيبة نفعا لبوش، فكلاهما ضحية لانتصار المقاومة، والفارق مهول بين العرب بالاسم والعرب بالمقاومة .

٢٨/ ٤ / ٢٠٠٨

نهاية إسرائيل

10

"تقرير فينو جراد" لن يكون الأخير من نوعه، دعك من التفاصيل، فقد كانت كلمة "الفشل" هى الأكثر تكرارا فى التقرير، واعترفت إسرائيل بهزيمتها فى أطول حرب شاملة مع طرف عربى، بينما كان "تقرير أجرانات" بعد حرب ١٩٧٣ مختلفا إلى حد ما، وانتهى إلى تقرير ما يشبه نصف النصر ونصف الهزيمة، وبالمخالفة لحقيقة أن إسرائيل هزمت وقتها - أيضا - بحد السلاح، وإن خدمتها السياسة التى عصفت بإنجاز السلاح.

وربما كانت حرب ١٩٦٧ هى الأخيرة التى انتصرت فيها إسرائيل ،وهى مع حرب ١٩٤٨ درة التاج الإسرائيلى، وخلقت أسطورة الجيش الذى لا يقهر، بينما بدت إسرائيل منذ١٩٦٧ على خط تراجع تاريخى أكيد، فقد تعرضت لمفاجأة المصريين والسوريين الصاعقة فى حرب ١٩٧٣، ثم هزمت مرتين على يد حزب الله، مرة بالخروج المذل من الجنوب اللبنانى أواسط عام ٢٠٠٠، ثم مرة أخرى بالقصف الصاروخى غير المسبوق - فى كثافته - لمدنها فى حرب ٢٠٠٦، وبينهما كانت الهزيمة الثالثة فى غزة بفك الارتباط وتفكيك المستوطنات عام ٢٠٠٤، وهو ما يعنى أن إسرائيل انتهت إلى العد العكسى، تفرغ من هزيمة لتستقبل أخرى .. وإلى يوم يرحلون .

ليست القصة ضياعا فى نشوة انتصارات تذهب بعقل، وربما لا يصح أن

يستهين أحد بقوة إسرائيل العسكرية بالذات، فلها رابع أقوى جيش في العالم، ولديها تكنولوجيا السلاح المتاحة لأمريكا بالضبط، وعندها ترسانة قنابل ذرية فوق الثلاثمائة رأس، كل ذلك معروف ومسلم به، لكن القوة الفائضة تبدو وكأنها ضلت سبيلها، أو قل: إنها لا تختار سبيلها ،فقد تحولت إلى ما يشبه القاعدة الأمامية المتقدمة لمشروع الهيمنة الأمريكية على العالم، وربطت مصيرها بمصائر المشروع الأمريكي الخائر باطراد، وضعف هامش الاختيار الذاتي، وتداعت فكرة المشروع الصهيوني في أصل تكوينه، وإلى حد تبدو معه قوة إسرائيل العسكرية متضخمة، ولكنها في خدمة مشروع ضامر ومتآكل باطراد .

ومع مناقشات تقرير فينوجراد في الصحافة الإسرائيلية ، يلفت النظر أن

قصة الهروب إلى قبرص بدت طافية على السطح، صحيفة إسرائيلية نشرت مقالا عن "الاستيطان الجديد"، ليس فى الضفة ولا فى القدس، لكن الموضوع : عن تدافع الإسرائيليين لشراء مساكن فى منطقة شمال قبرص تحت السيطرة التركية، أحدهم اشترى منزلا بأقل من ٢٠٠ ألف دولار عن مثيله فى إسرائيل، وحين سئل: لماذا؟، قال ببساطة: إنها نصف ساعة سفر وأكون هناك، فلم يعد أحد يضمن أمنا فى إسرائيل ،والخوف - هنا - من صواريخ حزب الله، أو من صواريخ إيران المهددة للعمق الإسرائيلى، فقد عادت قضية الأمن هاجسا ملحا ضاغطا - بأكثر مما سبق - على العقل الإسرائيلى، وقد لا يجوز لأحد أن يتنكر لحيوية العقل الإسرائيلى، ولا لحرصه الدائم على النظر وإعادة التقييم، ولا للخطط والبدائل التى تعد بعناية، لكن الطرق لا تبدو سالكة ممهدة أمامها، والخطط لا تنتهى إلى غاياتها بالضبط، فقد انتهت مواسم موشيه دايان، ومباهاته بذكاء الإسرائيليين مقابل جهل العرب، وتحديه أن يعلن خطة الحرب قبل الشروع فيها، وثقته التلقائية فى النصر لأن العرب لايقرءون، وإن قرءوا لا يفهمون، وإن فهموا لايفعلون (!).

لم يعد شئ من ذلك جائزا ولا واردا، ليس لأن النظم العربية صارت أفضل، بل لأن النظم سقطت، وخرجت من اللعبة إلى إشعار آخر، فقد كان بوسع إسرائيل أن تفوز على النظم بطريقة الضربة الخاطفة، ولم يعد ذلك متاحا لأن النظم لا تريد أن تحارب، وتتسابق لإرضاء إسرائيل وتوقى أذاها، وهكذا لا تتاح فرصة النصر العسكرى السهل، وتترك إسرائيل لقدر الهزيمة بعد الهزيمة، فليس بوسع إسرائيل - بإطلاق - أن تهزم حركة مقاومة فى حرب طويلة، ولا بوسع أمريكا ذاتها، والشواهد مرئية فى العراق ولبنان وفلسطين، وهو ما يعنى أن مواسم انتصارات إسرائيل صارت من الماضى، ثم استدار الزمن، ولم يتبق لإسرائيل فى الكأس غير الجرعات المرة، كانت تتقدم فى

الماضى من نصر إلى نصر، بينما تنتهى الآن إلى هزيمة مكتوبة بسن السلاح وثقافة الاستشهاد وتكنولوجيا الردع الصاروخى، وبدا أن القصة عادت إلى حيث بدأت مع تغير الظروف، وقد كان شارون ـ الذاهب فى الغيبوبة ـ صادقا تماما، وهو يرى ـ مع انتفاضة الفلسطينيين ـ أن حرب ١٩٤٨ جرى استئنافها بعد نصف قرن، وأن الحكم الذى صدر على العرب وقتها بالهزيمة والنكبة يجرى استئنافه الآن، ولأسباب بعضها يتصل بميادين السلاح، وغالبها متصل بحروب "الجامعات وغرف النوم"، والتى توقع آرنون سافير ـ عالم الديموجرافيا الإسرائيلى ـ أن تكون فيها النهاية والكلمة الفصل .

ولعل مما يلفت النظر تبادل الأدوار الذى جرى، فقد كان العرب ـ وقت وبعد النكبة الأولى ـ غارقين فى الخيال، يتحدثون عن إسرائيل المزعومة، وعن حلم إلقائها فى البحر، استعاضوا ـ بطريق الاحتيال النفسى ـ عن بؤس الواقع بفسحة الخيال، ومع مرور ستين سنة على النكبة، يبدو الوضع مقلوبا الآن، ويبدو لجوء الإسرائيليين لفسحة الخيال أكثر ظهورا، فالإسرائيليون يتحدثون اليوم ـ بل ويشترطون ـ عن الاعتراف بإسرائيل كدولة "يهودية"، وفى ذات اللحظة التى بدت فيها استحالة تعريف إسرائيل كذلك، فقد انتهى الحلم الصهيونى ببناء دولة نقية وخالصة لليهود إلى الحائط المسدود، وبحروب غرف النوم أولا، وتغير خرائط الديموجرافيا، فقد انتهت حرب ١٩٦٧ ـ بتداعياتها ـ إلى مأزق غير مسبوق لإسرائيل، نعم وقعت فلسطين التاريخية ـ ماعدا وضع غزة الخاص الآن ـ تحت الاحتلال الإسرائيلى، لكن الوضع السكانى مختلف فى المغزى، فعدد الفلسطينيين فى الضفة وغزة والقدس يقترب من حاجز الأربعة ملايين، وعدد الفلسطينيين وراء الخط الأخضر يصل إلى مليون و٣٠٠ ألف، وبنسبة تقدر بخمس سكان إسرائيل كلها، أى أن عدد الفلسطينيين فى فلسطين التاريخية يكاد يساوى عدد اليهود على الأرض ذاتها، وقد كان

التوقع أن يصل الطرفان إلى التعادل السكانى عام ٢٠١٥، لكن معدل نمو مواليد الفلسطينيين العرب تفوق بمقدار الضعف على عدد مواليد اليهود، وجعل السباق لصالح الفلسطينيين بصورة أسرع، أضف : عدد الفلسطينيين اللاجئين فى الدنيا كلها، وهو يفوق الستة ملايين الآن، ويكاد عدد الفلسطينيين الكلى يقارب عدد اليهود فى العالم كله، فالعدد الإجمالى لليهود فى العالم إلى ثبات بل إلى تناقص، ويعانى من عوارض "موت الشعب اليهودى"، ويدور حول رقم ١٣ مليوناً وربما أقل، ويشكل يهود إسرائيل حوالى ٤٠٪ من يهود العالم، ولا يبدو واردا أن تنعم إسرائيل بموجات هجرة يهودية مؤثرة إليها، فقد انتهى عهد الهجرة اليهودية الذهبى، وكان قد زاد بمعدل نمو إسرائيل إلى أكثر من ٩٪ سنويا فى الخمسينيات، ثم مال معدل النمو إلى انخفاض فى الثمانينيات، ونزل إلى واحد ونصف بالمائة سنويا، ثم زاد مع هجرة اليهود السوفييت إلى حوالى ٤٪ فى النصف الأول من التسعينيات، وكانت تلك آخر دفعة إنعاش سكانى، ولم يعد واردا لإسرائيل أن تتوقع هجرة ذات مغزى، فيهود أوروبا وأمريكا ـ وهم الغالبية ـ لن يذهبوا بالطبع لإسرائيل، فأحوالهم ممتازة ومتحكمة فى مجتمعاتهم، وأكثر ما يفعلون هو " صهيونية النفقة "، أى أن يدفعوا لإسرائيل التى هى فى وضع " المطلقة " المتروكة، وخشية الفضيحة أمام النفس والناس لاغير، والمحصلة : تجميد حالة نمو إسرائيل يهوديا مقابل الثورة السكانية المتدفقة للفلسطينيين العرب، فقد نضبت مخازن المادة للبشرية اليهودية المستعدة للذهاب إلى إسرائيل، وهو ما يعنى أن حالة إسرائيل كدولة " يهودية " إلى ضمور وتآكل بلا عودة، وأن الحديث عن إسرائيل كدولة " يهودية " قد يصح فى الأغانى وخطب السياسيين، لكنه مجرد تزوير للواقع الذى يهربون منه إلى فسحة الخيال (!).

ومن الديموجرافيا إلى الجغرافيا يا قلب لا تحزن، فقد حرص المخطط

الإسرائيلى على تلافى أخطاء الصليبيين الذين بنوا الممالك على الساحل الفلسطينى ثم زالوا، حرص المخطط على مبدأ الانتشار الجغرافى، لكن المحصلة لم تكن كذلك، فبحسب دراسة ممتازة للخبير الفلسطينى د.سلمان أبو سنة، يقيم ٨٠٪ من اليهود الإسرائيليين فى مدن الوسط، فى عشرة من ٣٦ إقليما طبيعيا بفلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨، وفى حالة تشبه الجيتو اليهودى القديم، وعلى مساحة تزيد فقط بمقدار ٨٤١ كيلو متر مربع عن المناطق التى كانت لهم زمن الانتداب البريطانى، بينما تبدو خرائط الفلسطينيين مختلفة على الأرض ذاتها، فإضافة لتركز غالبية الفلسطينيين - تحت ضغط الطرد واللجوء - فى الضفة وغزة والقدس، وعلى مساحة ٢٢٪ من فلسطين التاريخية، ينتشر الفلسطينيون فى ٢٦ إقليما طبيعيا بفلسطين وراء الخط الأخضر، وتصل نسبتهم إلى ٣٠٪ فى ١٧ إقليما، وهو ما يعنى - بحقائق الخرائط - أن الصراع على الأرض لا يزال متصلا ،وأن فكرة تطهير الأرض من الفلسطينيين صارت مستحيلة أكثر فأكثر، وأن خرافة تصوير فلسطين كأرض بلا شعب، والتى روجتها الحركة الصهيونية، هذه الخرافة سقطت وتكشّف خواؤها، فالشعب الفلسطينى يبدو عفيا منتشرا على جغرافيا أرضه التاريخية، وميل الفلسطينيين داخل إسرائيل ظاهر لاستعادة الهوية القومية المنفصلة وتأكيدها، ومقابل ميل سابق - فيما مضى - إلى الاندماج والأسرلة، بينما تبدو إسرائيل مالكة محتلة لأرض، وعاجزة عن ملء الأرض بشعبها المصنوع غير القابل للنمو المناسب، وهذه الأوضاع لها ما بعدها، فإسرائيل ككيان استيطانى إحلالى ليست استثناء عن القاعدة، فلم ينجح أى استيطان إحلالى فى التاريخ مع بقاء السكان الأصليين بحجم حرج، ونجاح الاستيطان الإحلالى مشروط دائما بإفناء السكان الأصليين كما يقول العلامة د.عبد الوهاب المسيرى، وكما جرى فى استراليا وأمريكا الشمالية بالذات،

وفشل الاستيطان الإحلالي مقرون دائما ببقاء السكان الأصليين وبحجم مؤثر مقاوم، وكما جرى في الجزائر وجنوب أفريقيا، وهو ما يعني - بالتداعي - أن ضعف إسرائيل السكاني هو الذي سيحدد مصيرها، وليس كثافة ترسانتها الذرية، أضف: أن المادة البشرية الإسرائيلية تفقد التواصل باطراد مع حلم الصهيونية الأصلي، فقد كانت مزارع "الكيبوتس" - مثلا - هي مشتل الصهيونية في فلسطين، وقد بدأت مبكرا جدا، وقبل إعلان إسرائيل بعقود، وكان نمط حياتها الجماعي، والتركيز على "العمل العبري"، وربط اليهود بالأرض وحمل السلاح، ومحاولة خلق اليهودي المزارع المقاتل عوضا عن اليهودي المرابي الجبان، كانت مزارع "الكيبوتس" تفرخ القادة لإسرائيل، ومن أول بن جوريون إلى إسحاق رابين، وكانت تقدم ربع ضباط الجيش الإسرائيلي الأكثر شراسة، لكن صيغة "الكيبوتس" نفسها تفككت - وإن لم تنته - بتداعي نفوذ حزب العمل الذي رعاها منذ البدء، ثم ارتباط إسرائيل المتزايد مع نمط الحياة الأمريكية، وزيادة الميل الفردي، والتركيز على الصناعة والتجارة مقابل ضعف نصيب الزراعة في الناتج القومي، والتفاصيل أكثر لمن يحب في موسوعة العلامة عبد الوهاب المسيري، لكن الاستغراق بالتفاصيل قد لا يكون مهما، المهم هو المغزى، وضعف "الكيبوتس" إشارة رمزية على ضعف يلحق بالتكوين القيادي الإسرائيلي، فقد كان وزير دفاع إسرائيل في حرب لبنان الأخيرة هو عمير بيرتس الذي يمسك نظارة الميدان بالمقلوب، وليس بين المتصارعين الأربعة على قيادة إسرائيل سوى جنرال وحيد هو إيهود باراك المستدعى من مخازن التاريخ، بينما الثلاثة الآخرون (أولمرت ونتنياهو وليفني) أقرب لسياسيي "التيك أواي" على الطريقة الأمريكية، ربما لذلك يشعر الإسرائيليون بأنهم في حماية الضعف نفسه، فلم يعد لإسرائيل ملوك بعد شارون الذي أنهكته الانتفاضة الثانية، وانتهت به إلى سرير الغيبوبة، وهو ما

يضيف إلى قلق الإسرائيليين الوجودى، ويدفع بهم إلى هروب وهجرة عكسية متزايدة إلى خارج إسرائيل، وإلى حد يقارب المليون إلى الآن، وحتى يهود روسيا المهاجرون يعودون بعد تحسن الأحوال الاقتصادية، وطبقا لآخر إحصاء روسى، فقد عاد إلى موسكو حوالى ثلاثين ألفا من اليهود المهاجرين فى العام الأخير وحده.

وعلامات الضعف الظاهرة فى التكوين الإسرائيلى لا تعنى أن النهاية باتت تلقائية، بل تعنى - بالدقة - أن النهاية صارت ممكنة أكثر، وقد لا تكمل إسرائيل عامها المائة، وإلى أن يأتى الوقت، فما من سبيل للفلسطينيين غير المقاومة، فاتصال المقاومة وحده هو الذى ينهك طاقة إسرائيل على البقاء، ويدعم مقدرة الفلسطينيين على البقاء فوق الأرض المقدسة، ويشجع على عملية إعادة بناء حائط المقاطعة العربية لإسرائيل، ويعجل بعمليات التغيير السياسى الشعبى لأنظمة الطوق، فالمقاومة فى فلسطين - بالذات - هى الألصق نسبا بأحلام التغيير والنهضة، ولا تبدو المقاومة اختيارا بالقرعة بين بدائل، إنها اختيار الفلسطينيين الوحيد، تماما كما أن هزيمة إسرائيل هى مصيرها النهائى فى اللوح المحفوظ.

النوم حرام فى غزة

11

النوم حـرام، والانفـجـار وشـيك فى غـزة، رغم أن حديث التهدئة - حتى ساعة كتابة السطور - يبدو سيد اللحظة، ورغم أن الوسيط المصرى يبدو متفائلا، ورغم أن إسـرائيل وحـمـاس أبدتا اسـتـعـدادا لبـحث كـافـة التفاصيل بما فيها صفقة الإفراج عن الجندى الأسير جلعاد شاليط .

أما لماذا يبدو الانفجار وشيكا؟، فلأن التهدئة لن تنجح، فليست من إرادة سياسية كافية فى إسرائيل، ومشهد الحكومة يبدو مرتبكا، إيهود أولمرت - رئيس الوزراء الحالى - غارق فى تحقيقات عن قضايا فساد منسوبة إليه، ويبدو مصيره الشخصى والسياسى معلقا وضاغطا على أعصابه بشدة، صحته مهددة بسرطان البروستاتا، وسيرته ملوثه باتهامات رشى، وحكومته على كف عفريت، وانسحاب خمسة - فقط - من أعضاء الكنيست كاف لإسقاطها، ، ووزراؤه الرئيسيون فى حالة سباق وتصارع على خلافته، تسيبى ليفنى - وزيرة الخارجية - تتطلع إلى فوز باسم "حزب كاديما" - أو غيره - فى انتخابات مقبلة، أو إلى اقتناص منصب رئيس الوزراء بالوكالة لو ساءت حالة أولمرت بأكثر مما هى عليه، وبنيامين نتنياهو - زعيم الليكود - يطالب بإجراء

انتخابات عامة مبكرة، وظنه أنه الأحق برئاسة الوزراء، وأن إسرائيل تنتظر صقرا مثله، وإيهود باراك - زعيم حزب العمل ووزير الدفاع - يرى أنه الأجدر، فهو الجنرال الوحيد الباقي على سطح السياسة الإسرائيلية، وفي سباق الكبار الجاري لا تبدو التهدئة مع حماس لها الأولوية، بل العكس بالضبط هو الأقرب إلى الصحة، والكل يقدم نفسه باعتباره الأقدر على هزيمة حماس، وليس التسوية معها، والتسليم بمطالبها، وهو ما بدا منظورا - باللفظ الصريح - في مجلس وزراء أولمرت، حاييم رامون - نائب رئيس الوزراء - هاجم بشدة ما أسماه "مفاوضات غير مباشرة" مع حماس عبر مصر، وقال : هكذا بدأنا مع عرفات، وربما ينتهي الأمر بدخول خالد مشعل - زعيم حماس - من الباب الرئيسي للبيت الأبيض، ودخل على الخط موشيه أرينز وزير الدفاع

الإسرائيلى الأسبق، وهاجم أى تفاهم مع حماس، واعتبر أن إسرائيل خسرت المعركة مع حزب الله لأنها انسحبت من جنوب لبنان، وهو ما شجع ظهور الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وصعد بظاهرة حماس، واعتبر - فى مقال بصحيفة إسرائيلية - أن اجتياح غزة هو الحل، وأن الخروج من غزة كان خطأ قاتلا، ورغم أن فريقا من الكتاب والسياسيين الإسرائيليين طالب أولمرت - فى نداء مفتوح - بالتفاوض مع حماس، إلا أن حمى التنافس على وراثة أولمرت تشيع أجواء من المزايدة فى السياسة الإسرائيلية، وتدفع أولمرت نفسه للإعلان عن هجوم عسكرى جديد ضد حماس فى غزة، وهو ما يلح عليه الجنرال إيهود باراك أكثر، وهو الذى دخل فى مفاوضات مطولة مع عمر سليمان مدير المخابرات المصرية، ثم مع الرئيس المصرى حسنى مبارك على هامش منتدى دافوس فى شرم الشيخ، وبدا راغبا فى وضع شروط مضافة على مشروع التهدئة المصرى، ورافضا لفكرة التزامن بين وقف الأعمال العسكرية ورفع الحصار عن غزة، وأعاد صياغة اقتراح التهدئة بصورة تجعله أدنى إلى التعثر فى التطبيق، وبحيث يتم وقف عمليات المقاومة وإطلاق الصواريخ مقابل وقف القصف الإسرائيلى، ثم يجرى الانتقال إلى وضع رجراج مفعم باحتمالات انتكاس التهدئة النيرانية، ويضع الإفراج عن الجندى شاليط كشرط لرفع الحصار وفتح معابر غزة، ثم وضع اشتراطات بلا نهاية من نوع وقف تهريب الأسلحه إلى غزة عبر الأنفاق، ومن نوع خلق جهاز مراقبة للبضائع الداخلة إلى غزة، والمحصلة : "فرملة" ما جرى كله، وجعل إسرائيل حكما نافذ الرأى فى مدى سلامة تطبيق الشروط، والعودة تقريبا إلى نقطة الصفر، هذا كله بافتراض أنه جرى الاتفاق على صيغة معقدة من هذا النوع، وكثيرة فى تفاصيلها المسكونة بالشياطين، ومتعددة المراحل، وبحيث لا يكون إقرار المرحلة الأولى ممهدا بالضرورة للدخول فى الثانية، ومع ضمان حق

إسرائيل فى إطلاق يدها العسكرية بلا رادع من اتفاق مقنن، وقد يصح أن نقول إن إسرائيل لم توافق على اقتراح التهدئة المصرى، وإنما ـ فقط ـ قبلت المناقشة فيه، ووضعت العصى فى العجلات، وسايرت المسعى المصرى حتى إشعار آخر، واحتفظت بحق نقض الاتفاق فى أى وقت، فهى غير ملزمة ـ بحسب المناقشات التى جرت ـ على موافقة خطية فى ذيل اتفاق تكون حماس طرفه الآخر، وتكتفى بإبداء الموافقة الشفهية لو تحققت مطالبها، ومقابل التزام خطى من الفلسطينيين يوضع فى عهدة المصريين، وهكذا لا تبدو نية إسرائيل ولا قرارها خالصا باتجاه أى تسوية مع حماس فى غزة، بينما تبدو مدافع إسرائيل مستعدة، وحيرتها محصورة فى نوع العمل العسكرى لا فى البحث عن تسوية بالسياسة، وهل تقدم على اجتياح غزة أم تكتفى بضربة مكثفة وحملات اغتيال ؟، فالسؤال الذى تطرحه إسرائيل الآن على نفسها فى غزة عسكرى بأكثر منه سياسى، وربما يرد الحديث عن تسوية بعد العمل العسكرى وليس قبله .

وبالمقابل، لا تبدو حماس مستعدة لمسايرة الشروط الإسرائيلية إلى آخر المدى، فقد أخذت فكرة التهدئة ذاتها من مكانة حماس، وبدت كأنها تستجدى اتفاقا، وتدفع الفصائل الفلسطينية الأخرى إلى الطريق ذاته، وبدت مستعدة لتراجع تدريجى، عرضت فى البداية اتفاقا للتهدئة يربط الضفة بغزة، ثم تراجعت عن الارتباط المتزامن، وطلبت فكرة التهدئة فى غزة أولا، وعلى أن يجرى إلحاق الوضع فى الضفة بعد ستة شهور لاحقة، ثم بدا أنها على استعداد لحصر القصة كلها فى غزة، فالحصار ضاغط، ويحتاج حلا سريعا، وهكذا جرى حصر شروط التبادل والتزامن والشمول فى غزة، وبدت صفقة وقف إطلاق النار والصواريخ مقابل رفع الحصار مغرية، وبعد أن انتهت حماس إلى بلورة اتفاق التهدئة، وجعلته وديعة لدى الوسيط المصرى، بدت

الفصائل الفلسطينية الأخرى مستعدة لقبول الصفقة ذاتها، أبدى الرئيس عباس موافقته باسم فتح وسلطة رام الله، وكانت حركة الجهاد الإسلامى وحدها هى التى تحفظت، وإن وعدت بالالتزام حال دخول الاتفاق حيز التنفيذ، لكن عدم نجاح عمر سليمان فى الحصول على موافقة ناجزة من إسرائيل، ووضع الأخيرة لشروط جديدة، جعل حركة حماس فى موقف لا تحسد عليه، فهى لا تملك التراجع بالكامل ولا الموافقة بالكامل، ثم أن خلط الأوراق يزيد الحالة تعقيدا، فقد فشلت الوساطة المصرية فى الوصول إلى صفقة بخصوص شاليط، وتضمن الإفراج عن الإسرائيلى الأسير مقابل إطلاق سراح مئات الأسرى من الفلسطينيين، ولا يعقل أن يجرى الاتفاق فى أسابيع على ما تعثر التوصل إليه فى سنوات، وهو ما يعنى أن تعود جولات عمر سليمان المكوكية إلى المتاهة ذاتها، فإسرائيل تريد خفض عدد الأسرى الفلسطينيين المنوى الإفراج عنهم إلى أدنى حد ممكن، وتريد إخضاع نوعية الأسرى لمعاييرها، وتفرق بين أسرى الاعتقال الإدارى، وبين آخرين تتهمهم بالتخطيط أو المشاركة فى قتل إسرائيليين، وتعتبر الأخيرين ممن لا يصح الإفراج عنهم، وهو ما يعنى فتح باب الجدال المتصل فى إسرائيل إلى ما لا نهاية، خاصة مع ارتباك الحكومة، وتربص أولمرت بحلفائه المحتملين، ثم حرص الحكومة الإسرائيلية على عدم الإيحاء بسهولة التوصل لاتفاق مع حماس، وفى ذات الوقت الذى تتعثر فيه المفاوضات مع عباس، ثم عدم رغبة عباس نفسه فى تيسير اتفاق تل أبيب مع حماس، فالاتفاق الإسرائيلى - لو جرى - مع حماس يضعف ما تبقى من نفوذ عباس فلسطينيا، ويقدم حماس كطرف قادر على القتال وإجراء التسويات فى الوقت ذاته .

تبقى حكاية الوسيط المصرى، وجهود عمر سليمان مدير المخابرات، وهى محكومة - بطبائع الأمور - بسقف منخفض جدا، فلا تملك مصر فرصة

الضغط على إسرائيل، بينما العكس هو الأكثر ورودا، وكل ما يهم مصر الرسمية هو الخلاص من حرج غزة، ووسط تدافع أمارات من عدم الرضا الأمريكي الكامل عن السياسة المصرية، وحرص الأخيرة على استرضاء إسرائيل لكسب عطف أمريكي يتداعى، وهى ظروف معقدة لاتسمح للوسيط المصرى بأكثر من دور "ساعي البريد"، وقد تعول حماس على تعهد مصر بالفتح الكامل لمعبر رفح لو تعثرت جهود التهدئة، وهو ما لا نظن أن مبارك قادر عليه، وأفضل ما يمكن أن يفعله هو فتح جزئى للمعبر، وهو ما قد يعنى استدامة المشاركة المصرية عمليا فى إحكام حصار غزة .

المحصلة - حتى إشعار آخر- عودة إلى نقطة الصفر، وانفجار آلام المحاصرين فى غزة، وانفجار العدوان الإسرائيلى بأعنف مما جرى من قبل.

٢٥/ ٥ /٢٠٠٨

لا تفعلها يا بشار

12

هل يعيد التاريخ نفسه فى سوريا لا فى مصر هذه المرة ؟ .

هل يعود الجولان لسوريا بذات الطريقة التى عادت بها سيناء لمصر، سيناء عادت لمصر على طريقة الذى أعادوا له قدما وأخذوا عينيه، عادت سيناء منزوعة السيادة عمليا، عادت منزوعة السلاح فى غالبها، وبنقاط تفتيش وإنذار مبكر، وقوات أمريكية، وبنزع كامل السلاح فى شرق سيناء، وبكتائب حرس حدود فقط فى قلبها الاستراتيجي، وبحجز القوات المصرية شرق قناة السويس، ثم لحقت المعونة الأمريكية وشروطها بقيود كامب ديفيد، وامتدت بنزع سيادة السلاح فى سيناء إلى نزع سيادة القرار فى القاهرة، وانتقل النظام من خطأ الخضوع لأمريكا إلى خطيئة التحالف مع إسرائيل، فهل تتكرر القصة ذاتها فى مرتفعات الجولان؟، والقصة هنا أعقد بما لا يقاس إلى الأوضاع فى سيناء وفى مصر كلها .

قبل ثلاثين سنة وأكثر، وحين فكر السادات في مخاطرة الذهاب إلى القدس، ذهب إلى شريكه في الحرب حافظ الأسد، وعرض عليه الأمر، وقتها فوجئ الأسد، وشعر بمرارة التخلى، واستطاع بصعوبة التخلص من نصائح معاونيه في قيادة حزب البعث، فقد نصحوا وقتها باعتقال السادات في دمشق، ورفض الأسد، ولم يكن من اختيار آخر، فقد كان الرجل غاية في هدوء الأعصاب واتزان التصرفات (الخارجية طبعا)، وكان مدركا لقيمة مصر، وعارفا بأن السادات - أيا ما كانت سيرته - هو رئيس " مصر " التي لا يصح المساس بقيمتها الرمزية الكبرى، ورفض اقتراح رجاله الأخرق، ورفض خطة السادات في الوقت نفسه .

واليوم، يبدو بشار الأسد - خليفة وابن حافظ الأسد - متعجلا في الذهاب إلى القدس عن طريق أنقرة، ومستعدا لاقتفاء خطى السادات في الجولان هذه

المرة، وبثمن لا يبدو نظامه قادرا على تحمله، فليس المعروض ـ فقط ـ نزعا لسلاح الجولان على طريقة ما جرى فى سيناء، ومحطة إنذار مبكر على قمة جبل الشيخ، بل وإضافة مصادر المياه فى الجولان إلى خزينة إسرائيل، وتبادل الاعتراف وعلاقات التطبيع الدبلوماسى والاقتصادى الشامل، وهذه ليست كل التكلفة، فالمطلوب أكبر من مجرد تكرار خطيئة السادات، المطلوب فوق مقدرة سوريا على الدفع .

أما لماذا لا تستطيع سوريا دفع ثمن السادات ؟، فالسبب واضح، فسوريا فى خرائط جغرافيا وتاريخ مختلف بالجملة، القاهرة على بعد مئات الكيلو مترات من خط الحدود، بينما دمشق على مرمى مدفع من بحيرة طبرية، والكتلة السكانية الغالبة فى مصر محجوزة بالوادى، فيما تبدو سيناء حاجزا صحراويا ممتدا، والتكوين السكانى المصرى غاية فى التجانس، وفى وضع

ملموم من حول النيل، بينما تبدو خرائط سوريا فسيفسائية قلقة، سنة ودروز وعلويون ومسيحيون، وحكم موزع بين دعاويه القومية وأساسه الطائفى العلوى، وامتدادات للطوائف ذاتها عبر الحدود إلى لبنان بل وإلى فلسطين المحتلة، وهذه خرائط جغرافيا سياسية تثير القلق .

وهذه الحقائق يعرفها النظام السورى بالطبع، ويعرف أن ليس بوسعه تحمل مضاعفات اتفاق فى الجولان على طريقة السادات، ويتفاوض غالبا لمجرد التفاوض وتفكيك الضغوط، ويستبعد بشار الأسد ـ بحسب تصريحات منشورة ـ إمكان إبرام اتفاق مع إسرائيل حتى رحيل بوش عن البيت الأبيض، وهذا صحيح تماما، وتؤيده إسرائيل، يؤيده إيهود باراك، ولا يتوقع اتفاقا قريبا، وإن كنا نعتقد أن الاتفاق ليس واردا الآن، وربما بانتظار استحقاقات لحروب واردة .

فليست القصة فى "وديعة رابين" التى كان الرئيس الراحل حافظ الأسد يتحدث عنها كثيرا، ولا فى "وديعة أولمرت" التى يتحدث عنها بشار، وخلاصة الوديعتين ـ كما هو معروف ـ وعد إسرائيل من حيث المبدأ بانسحاب من الجولان، وهو ما حرص باراك ـ وزير الدفاع الإسرائيلى الحالى ـ على نفيه فى تصريحات صحفية قريبة، لكن سوريا وإسرائيل تواصلان ـ مع ذلك ـ خط المفاوضات، وربما مع فارق ذكره باراك، فهو يقول إن إسرائيل تريد المفاوضات مباشرة وسرية، بينما سوريا ـ بحسب قوله ـ تريد مفاوضات غير مباشرة وتجرى فى العلن، والفرق بين الموقفين واضح المعنى، وربما ما يجمع الموقفين هو الرغبة الظاهرة فى اتصال التفاوض، وإن كنا لا نعتقد أن التفاوض مرشح لنجاح قريب، فليس لدى إسرائيل ـ فى المدى المنظور ـ استعداد لانسحاب من الجولان، والسبب مرئى، فليس ثمة ضغط عسكرى من سوريا الآن ولا من قبل، وليس ثمة ضغط سياسى من البيت الأبيض، ثم أن الخرائط الداخلية فى إسرائيل تبدو قلقة، وليس من زعيم أو قائد بوسعه اتخاذ قرار أساسى، فأولمرت ـ المهزوز بطبعه ـ يمضى أيامه الأخيرة فى

رئاسة الوزراء، والمتصارعون من حوله فى حزب " كاديما " يتعجلون خلافته، تسيبى ليفنى - جاسوسة الموساد - تحلم بتكرار سيرة جولدا مائير، ومع فوائض سحر نسائى لصالح ليفنى بالطبع، والجنرال شاؤول موفاز يسعى لكسب رئاسة "كاديما"، ويمد الجسور إلى أحزاب اليمين الدينى، ويتصور أن بوسعه تجنب انتخابات مبكرة قد يفوز بها بنيامين نتنياهو المتربص بالجميع، ثم أن تكوين الكنيست - الحالى والمتوقع - يميل إلى التشدد فى قصة الجولان بالذات، واشتراط موافقة الثلثين على أى قرار فى الجولان، والمحصلة : أنه لا أحد فى إسرائيل - الآن - قادر على وراثة دور شارون الغائب فى غيبوبة أبدية، وأنه لا توجد - فى الحال ولا فى الاستقبال - قيادة إسرائيلية قادرة على التقدم بالمفاوضات مع سوريا إلى نهايتها، وربما لذلك يتسع المجال لاقتراحات عبث لا نهائى، ومن نوع اقتراح الجلاء عن الجولان - فى حال الاتفاق - فى مدة تتراوح بين عشر سنوات وخمسة عشر عاما، وهو ما يعنى أن القصة كلها مبنية للمجهول .

وربما تبدو فكرة رهن أو حجز الجولان أقرب للنظر فى إسرائيل، فإسرائيل تتعامل مع الجولان كورقة ضغط لابتزاز السياسة السورية، وهذا بالضبط ما يوافق عليه البيت الأبيض، فليس المقصود - فقط - دفع سوريا إلى دفع الثمن الذى دفعته مصر من قبل، ورغم أن هذا الثمن بذاته فوق مقدرة سوريا على التحمل كيانا ونظاما، لكن المقصود قبلها - بورقة التفاوض - تفكيك الموقف السورى، وإزاحته كعقبة من طريق الصدام مع الأعداء ذوى الأولوية، فقد لا يبدو النظام السورى - فى ذاته - شيئا مقلقا لإسرائيل، بل سياسته الراهنة هى المقلقة لها، وبالذات حرصه على علاقات نشطة مع إيران، وعلى تواصل الود وخطوط الإمداد مع حزب الله فى لبنان، وعلى استضافة رموز من "حماس" و"الجهاد الإسلامى" فى دمشق، فتل أبيب تريد من دمشق - ببساطة - أن تدفع الثمن دون تسلم البضاعة، وربما بغير نية فى تسليم البضاعة من الأصل، وربما لا تجد إسرائيل نفسها وحيدة فى هذه الرغبة،

فالضغط الأمريكى ظاهر إلى جوارها، والدعم الأمريكى كان حماسيا لقصف موقع "دير الزور" قبل شهور، وإلى حد تهديد سوريا بشن حملة ضدها وبدعوى المخالفة النووية، وثمة عواصم عربية - إلى جوار واشنطن وتل أبيب - تبدو مستعدة للمشاركة بدور، وأولها - بالطبع - تلك العواصم المنضمة لتحالف سياسى مع أمريكا وإسرائيل ضد إيران، فالقاهرة تبدو مستعدة لوصل الجسور المقطوعة مع دمشق، وتشجيع خيار التخلى عن إيران وحزب الله، والرياض عند عتبة الباب، وقد تحولت عداوتها مع سلاح حزب الله إلى صدام ثأرى يكلفها مليارات الدولارات، وقد بذلت القاهرة ودمشق وعمان - بضوء أمريكى أخضر - جهودا لعزل دمشق، والامتناع عن الذهاب إلى قمة يترأسها بشار الأسد، وفى سياق عملية معقدة تستهدف "خض ورج" الموقف السورى، بينما تبدو السياسة السورية على قدر ملحوظ من الحذر، لا تريد أن تفرط بسهولة فى أوراقها، وتريد التطبيع مع البيت الأبيض فى الوقت نفسه، وتجنب الدعم الأمريكى الصريح لمعارضة الخارج الممولة سعوديا، وبالجملة : تريد السياسة السورية نوعا من التوفيق الحذر لأوضاعها، وربما يكون التفاوض - مجرد التفاوض - مع إسرائيل وسيلة لتجنب حرب لا تحتملها تركيبة النظام السورى، بينما لا تبدو دمشق مستعدة لتحمل ضرائب السير فى الشوط لآخره، فثمة فرق ظاهر بينها وبين حلفائها الحاليين، فحلفاء سوريا لن تتأثر أدوارهم كثيرا لو تخلت سوريا، فإذا فقدت إيران ورقة سوريا فلديها تلال من الأوراق، وحزب الله بلغ حدا من القوة قد لا يؤثر فيه كثيرا فتور العلاقة مع دمشق، و"حماس" و"الجهاد الإسلامى" موجودتان بمراكز الثقل المؤثر فى فلسطين لا فى دمشق، إذن فخسائر الآخرين فى الحد الأدنى، وخسائر دمشق فى الحد الأقصى .

ونظن أن بشار الأسد على قدر من حصافة السلوك بحيث لا يفعلها، أو هكذا نفضل .

٢٠٠٨/٦/٩

لا لتأبيد احتلال العراق

13

أتت لحظة الحقيقة فى العراق، وصارت بغداد بين واحد من مصيرين لا ثالث لهما، فإما أن تقع ـ لا قدر الله ـ فريسة لاحتلال أمريكى أبدى الطابع، أو أن تكون غلطة الاتفاقية الأمنية المطروحة سببا فى حشد جهد عراقى عام وراء المقاومة المسلحة وحدها.

في الست سنوات التي مضت على غزو العراق، كانت فرص المناورة واردة، وتقاطع وتداخل الاتجاهات مرئيا، كان لأنصار المقاومة المسلحة منطقهم الحازم، وهو أن ما سلب بالقوة لا يسترد بغيرها، وأن المقاومة بالسلاح وحدها كفيلة بهزيمة الاحتلال الأمريكي، وكان لخط المقاومة المسلحة إنجازاته العبقرية التي لا تنكر، فقد نجح في شل المقدرة الأمريكية على تحقيق الهدف، فلم تتمكن واشنطن - إلى الآن - من تحقيق هدفها في الاستيلاء على بترول العراق، وبالمقابل انزلقت أمريكا إلى خسائر فادحة بالمال وبالدم، وفقدت من جنودها ما قد يصل إلى خمسين ألف قتيل وجريح ومجنون، ونزفت من المال ما يزيد على ٥٠٠ مليار دولار، ودون أن تصل إلى تثبيت قواعد الاحتلال، ولا النجاة من غوائل الأرض المحروقة، اللهم إلا وراء أسوار المنطقة الخضراء،

وباختصار : فقدت أمريكا المقدرة على تحقيق نصر حاسم، وصارت أدنى إلى هزيمة مستحقة، ووجدت نفسها تغوص أكثر فى المستنقع العراقى، وتزيد من حجم قواتها وإنفاقها بلا حدود، ووسط تذمر متزايد من الشعب الأمريكى، والذى لا يرى من القصة كلها غير الدم السيال والنعوش الطائرة ونزيف الأموال المستقطعة من دافعى الضرائب .

وبانتظار نهاية الوقت الممنوح للقوات متعددة الجنسيات - قوات الاحتلال - من الأمم المتحدة مع أواخر العام الماضى، تدور عجلة العد العكسى، وتتضاءل فرص لعبة ارتداء الأقنعة، فقد كان يمكن لعملاء أمريكا فى العراق - وغيرهم - أن يدعوا وصلا بليلى وبهدف التحرير، وكان بعضهم يتحدث عن وجود مؤقت لقوات الاحتلال، وريثما تتم عملية بناء الجيش العراقى، وتمكينه من أداء المهام

الأمنية، وعندها ـ كما زعموا ـ يمكن إجلاء القوات الأمريكية والأجنبية، وكان يمكن لبعض هؤلاء أن يدعوا بأفضلية المقاومة السياسية، وعدم التعجل بصدام إلى أن يفرجها الله (!)، ولقى هذا المنطق المناور ـ على عواره ـ دعم عدد من مراجع السنة والشيعة، آيه الله السيستانى مثلا ـ وهو أكبر مراجع شيعة العراق ـ كان يعطف على ادعاء المقاومة السياسية، وحزب الإخوان المسلمين فى العراق (الحزب الإسلامى) دعم المنطق ذاته على اختلاف الهوى، وشارك فيما أسمى بالعملية السياسية، وتحت ستار كثيف من دخان ادعاء التعقل، وفى لحظة الحسم بانت المواقف على حقيقتها، وأبدى "الحزب الإسلامى" تأييده للاتفاقية الأمنية المطروحة، وسقطت أوراق التوت عن العورات المكشوفة، وأصبح الهاشمى ـ رئيس الحزب الإسلامى ـ فى صورة عميل الأمريكيين الأكثر سوءا وفحشا من نورى المالكى رئيس حكومة الدمى ورأس شيعة جورج بوش .

ودعك من التسميات المطروحة على اختلاف ألفاظها، فلا فرق أن يسمى الاتفاق الذى تفرضه واشنطن بالاتفاقية الأمنية، أو بإعلان المبادئ، فظاهر الحال ـ وباطنه ـ أن المطلوب تكريس السيادة الأمريكية فى العراق، وعلى حساب سيادة العراق التى لا وجود لها من أصله، اللهم إلا فى حكومة دمى أو برلمان على سبيل استكمال الديكور، فالاتفاقية تفرض دوام ما كان يتصور أنه موقوت، وتبقى القوات الأمريكية فى نقاط ارتكاز أو قواعد قد يصل عددها إلى خمسين كما قال تقرير " الإندبندنت " البريطانية، ولايهم الرقم، وسواء كان أربع عشرة أو أربعين قاعدة كما قالت مصادر أخرى للتخفيف، فإن النتيجة واحدة، واختلاف الأرقام موصول فقط باعتبارات لوجستية محضة، ولا يخل بتعميم قواعد الارتكاز فى جغرافيا العراق جميعها، ثم أن هذه القوات ـ فى كل حال ـ تظل طليقة الحركة، وأعمالها فى الاعتقال والقتل

محصنة من أى سؤال أو مؤاخذة، وكذا أعمال الشركات الأمنية الرديفة لقوات الاحتلال من نوع "بلاك ووتر"، وليست موقوفة فى عملها وتحركها على إذن من الحكومة العراقية، فوق أن أجواء العراق جميعا تظل مفتوحة مستباحة للطيران العسكرى الأمريكى، وموضع تحكم شامل، وكذا منافذ البحر والطرق البرية، أى أن المعادلة ستظل كما هى الآن، حكومة بلباس عراقى تحتمى بالجيش الأمريكى، وتستهدى بأوامره، وانتخابات واستفتاءات عبثية، وتكريس لانفصال الشمال الكردى، ودفع قيادات الأكراد ـ الأكثر ولاء للأمريكيين ـ إلى مراكز التحكم فى حكومة مركزية تظل من ورق .

وصيغة كهذه لا تعنى الانتقال من احتلال إلى وصاية كما يقال، بل تعنى انتقالا من احتلال موقوت إلى احتلال مؤبد، والمريب أن البعض يقيس ما يتوقع فى العراق ـ مع الاتفاقية ـ على ما جرى فى اليابان، ودون وعى باختلاف الظروف كليا، فقد كانت اليابان فى وضع المحارب لأمريكا حتى صدمة "بيرل هاربور"، ولم يكن ذلك وضع العراق، ثم أن اليابان استسلمت بأمر إمبراطورها المقدس، وأعلنت هزيمتها بعد رعب الاكتساح الذرى فى هيروشيما ونجازاكى، ولم يحدث ذلك فى العراق، بل حدث العكس فى سيرة صدام حسين الذى أعدم على حبل مشنقة، ودون أن يعترف بهزيمة، وفى اليابان جرى فرض دستور" ماك آرثر" كما فرض دستور "بول بريمر" على حكومات الدمى، وليس على العراق الذى ظل يقاوم، ثم أنه ليس فى اليابان موارد طبيعية تتطلع أمريكا إلى نهبها كما بترول العراق، وظلت القواعد الأمريكية فى اليابان معزولة بالجغرافيا ناحية "أوكيناوا"، ودون أدنى تدخل فى تفاعلات الداخل اليابانى، ولمجرد استخدامها فى ترتيبات استراتيجية ضد الاتحاد السوفييتى سابقا أو ضد الصين حاليا، إذن فالقياس على اليابان يبدو فاسدا بالجملة، أضف إلى ذلك اختلاف العراق جغرافيا

وتاريخيا، فالعراق جزء من محيط عربى إسلامى زاخر بمشاعر العداء للأمريكيين، وليس معزولا كجزر اليابان على هامش القارة الآسيوية، والمحصلة ـ فوق القياس الفاسد ـ أن ما جرى فى اليابان غير قابل للتكرار فى العراق، وأن طبيعة الصراع هنا حدية وليست نسبية كما فى الشرق الآسيوى.

وربما لذلك يبدو الاستقطاب ـ بمناسبة الاتفاقية الأمنية ـ على أشده، ولا تبدو من فرصة مضافة لاتصال المراوغة، فلم يعد من معنى ـ أو غطاء ـ لدعوى المشاركة فى عملية سياسية منزوعة السيادة كليا، والجديد : أن نزع السيادة ـ مع الاتفاقية ـ صار أبديا، وهو ما يعنى أن ما يسمى "العملية السياسية" ـ بالتعبيرات العراقية الجارية ـ ليست سوى دعوة للنوم السياسى تحت أحذية عسكر الاحتلال، بينما صار للمقاومة السياسية معنى وحيد منفصل عن أوهام العملية السياسية إياها، وأقرب إلى دعم المقاومة المسلحة، فالاتفاقية ـ على عوارها الظاهر ـ توفر فرصة نادرة لتأليف وطنية عراقية جديدة جامعة، بيانات الرفض الأولى حملت توقيع أسماء بارزة من كل طوائف وقوميات وجهات العراق، وانشقاقات الشيعة ظاهرة خصوصا مع رفض أبداه المركز الإيرانى، الجعفرى ـ رئيس الحكومة السابقة ـ انشق عن حزب الدعوة الذى يجمعه مع نورى المالكى، وأسس مايسمى "تيار الإصلاح"، وعلى قاعدة المعارضة لترتيبات الاتفاقية الأمنية، وتيار الصدريين يحصل على دعم أكبر من طهران، ويبدو ـ بقاعدته الشعبية الواسعة ـ فى موقف المعارضة المؤثرة، وحزب البعث وحلفائه فى موقف الرفض بالطبيعة، وجبهة علماء المسلمين فى الموقف ذاته، ربما الفرق فى التفاوت على تقدير حجم الخطر الإيرانى، فالجماعات ذات المنشأ الشيعى تبدو أقل حساسية تجاه إيران، أو ميالة للتحالف معها، بينما الجماعات ذات المنشأ أو الثقل السنى ـ علماء المسلمين

وحزب البعث إلى حد ما ـ ضد التغول الإيرانى فى العراق، لكنها تختلف عن جماعات السنة العميلة فى نقطة فارقة، وهى تحديد العدو الأولى بالمواجهة الآن، العملاء فى أوساط السنة يروجون لضرورة الاحتماء بالأمريكيين من الخطر الإيرانى، والمقاومون فى موقف مختلف، فهم يعطون الأولوية لمواجهة الاحتلال الأمريكى، وقد سمعت من الشيخ الجليل حارث الضارى ـ فى لقاء مباشر ـ تعبيرا موحيا بنكهة عراقية فواحة، فقد شبه الوضع الاحتلالى الحاضر للعراق بنخلة حطت عليها طيور الشؤم، وهو يرى فى النفوذ الإيرانى طيرا أسود حط على نخلة الاحتلال الأمريكى، وأن الأولوية لقطع واقتلاع النخلة ومن جذورها، والتشبيه فى بلاغته وإيجازه يغنى عن مزيد من الشروح.

باختصار: ثمة فرصة لجمع المقاومة بالسلاح إلى المقاومة بالسياسة فى حركة تحرر وطنى عراقى جامعة، وعلى قاعدة الرفض المطلق لاتفاقية تأبيد الاحتلال الأمريكى .

١٦/٦/ ٢٠٠٨

تهدئة النصف متر

14

تبدو التهدئة - على الجبهة الفلسطينية الإسرائيلية - لمسافة نصف متر، أى أنها قصيرة العمر جدا، ثم أنها ملغومة قابلة للانفجار فى أى وقت، ولم تكد تمر أيام على بدئها حتى حدث اختراق إسرائيلى فى الضفة الغربية، وتبعه إطلاق الصواريخ من غزة، وإن بدا الأمر قابلا للتحكم فيه - إلى حين - بتطمينات من حماس وتهديدات من إسرائيل(!).

بدت إسرائيل مضطرة لقبول تهدئة موقوتة، فالصواريخ الفلسطينية رغم تواضع أثرها التدميرى، هذه الصواريخ عنصر إزعاج سياسى، ورمز للخوف الذى شمل فئات من الإسرائيليين من "سديروت" إلى "عسقلان"، وبدا قلق سكان إسرائيل - إلى جوار غزة - واحدا من عناصر التأثير الظاهرة فى الساحة الإسرائيلية، وبدت فكرة وضع غزة تحت النار المتقطعة غير مفيدة، فهى لم توقف الصواريخ التى أبدعت الفصائل الفلسطينية فى تطوير مداها، ومن ثم بدت العودة إلى نقطة الصفر دائما قدرا لسجال النار بين حماس وإسرائيل، فقد تملك إسرائيل قوة نيران أكبر بما لا يقاس، لكنها عاجزة عن ردع إرادة الصواريخ المصنوعة محليا، وليس من قرار إسرائيلى - إلى الآن - باقتحام غزة بالكامل، ولا من مقدرة مؤكدة على خوض معركة كبيرة من هذا النوع، ليس فقط بحساب الخسائر المحتملة للجيش الإسرائيلى، ولكن - أيضا

- بحساب الفوضى الجارية فى صناعة القرار الإسرائيلى حالياً، فإيهود أولمرت وصل لنهايته السياسية، وحسابه مثقل بفضائح فساد، ووزراؤه الرئيسيون يتصارعون على خلافته، وحزبه "كاديما" صنع على مقاس شارون الذاهب فى غيبوبة، وربما ليس بوسعه - مع غياب شارون الأبدى - أن يحقق فوزا فى انتخابات مبكرة يبدو الذهاب إليها محتما، بينما تبدو الغلبة - بحسب استطلاعات الرأى - لحزب الليكود وزعامة بنيامين نتنياهو، وهو ما يعنى أننا بصدد "وقت مستقطع" فى السياسة الإسرائيلية، وربما يكون الوقت المستقطع ذاته هو وقت التهدئة القلقة على جبهة غزة .

أولمرت يناور لكسب وقت مع تعجل الآخرين لدفنه ودفعه للاستقالة، وربما يحلم بتحقيق اختراق قد يعزز فرص بقائه طافيا على سطح السياسة الإسرائيلية، ولو فى صورة رجل قابل لإعادة الاستدعاء السياسى، أو حتى

منح فرص أكبر لحزبه "كاديما" فيما لو جرت انتخابات تبدو وشيكة، وجوهر ما يريده هو إنجاز صفقة الإفراج عن الجندى الإسرائيلى الأسير فى غزة جلعاد شاليط، ويكاد يكون التصور الإسرائيلى للتهدئة مبنيا فى الأساس على هذه الفكرة، فلم تتعهد إسرائيل سوى بوقف مشروط لإطلاق النار فى غزة دون الضفة، وبتخفيف جزئى بطئ لحصار البضائع والوقود قابل للتراجع عنه فى أية لحظة، ثم أنها لم توقع على أى تعهد فى المسألة كلها، واكتفت بوعود شفوية أبلغتها للمصريين الذين لعبوا دور الوسيط، غير أنها نجحت فى خلط قضية التهدئة بقضية شاليط، فقد حصل أولمرت على تعهد من الرئيس مبارك - فى مباحثات شرم الشيخ - بترك معبر رفح مغلقا إلى أن يتم الإفراج عن شاليط، وهو ما يعنى أسر سكان غزة مقابل أسر شاليط، فمعبر رفح هو الوحيد المسموح عبره بانتقال الأفراد، والمعابر الأخرى مخصصة لنقل البضائع، وهى تحت التحكم الإسرائيلى بالكامل، وقد أغلقتها بعد أيام على بدء سريان الهدنة، وربط شاليط بمعبر رفح يتيح لإسرائيل فرصة أكبر للضغط، فالمعروف أن الوساطة المصرية قديمة فى قضية شاليط، وأن القضية تنطوى على تبادل أسرى، وتريد إسرائيل - مقابل شاليط - أن تقلل إلى أدنى حد عدد الفلسطينيين الأسرى المنوى الإفراج عنهم، وحصرهم فى نواب حماس والوزراء الأسرى وبعض المحتجزين إداريا من النساء والأطفال، بينما تريد حماس إفراجا عن أسرى بالمئات، وعن المعتقلين والمساجين الأكثر أهمية ميدانيا، وعن الذين تصفهم إسرائيل بأصحاب الأيادى الملطخة بدم اليهود(!)، وذوى المحكوميات العالية، فقد كان أسر شاليط عملية فدائية، وما من معنى للإفراج عنه بدون إفراج مقابل عن مقاومين ومقاتلين وفدائيين، ثم أن حماس تريد الإفراج عن أسرى من كل الفصائل، وليس من حماس فقط، فهذا موقف سياسى يعطى لحماس طابعا وطنيا جامعا هى فى أمس الاحتياج إليه، والفجوة بين موقفى حماس وإسرائيل تظهر حقيقة المأزق .

والوسيط المصرى - بطبائع الأمور - ليس على مسافة واحدة من الطرفين،

فقد يملك فرصة الضغط على حماس بإغلاق الحدود، لكنه لا يملك فرصة الضغط على إسرائيل، ويسعى لتليين الموقف الإسرائيلى بدواعى الرجاء والإغراء ليس أكثر، وربما لذلك بدت استجابة مبارك لطلب رئيس الوزراء الإسرائيلى طبيعية جدا، بينما لا تبدو الاستجابة ذاتها على هوى حماس بالطبع، فمفاوضو حماس يريدون الفصل بين قضية الحصار وقضية شاليط، ومطلبهم الأكثر أهمية هو رفع الحصار وفتح معبر رفح بالذات، فاستمرار الحصار يضعف شعبية حماس، وربما لذلك بدت حماس مستعدة لمرونة أكبر، ولتقديم تنازلات فى مفاوضات تنظيم المعبر الحيوى، فهى تقبل الآن بوجود أكبر لحرس الرئاسة التابع لسلطة منافسها الرئيس عباس، ثم أنها تقبل بعودة بعثة المراقبة الأوروبية، وتقبل - أيضا - بوجود مراقبة إسرائيلية عبر الكاميرات للداخلين والخارجين، غير أنها تريد حجب "الفيتو الإسرائيلى" على سيولة الحركة عند المعبر، وتريد دورا لقواتها عند المعبر ولو على مسافة جغرافيا، وقد تبدو هذه التنازلات مفيدة للوسيط المصرى، وتعطيه ضمانات تتيح البدء فى مفاوضات متعددة الأطراف لفتح المعبر المغلق - إلا من استثناءات عابرة - منذ استئثار حماس بالسلطة فى غزة، غير أن "الفيتو" الإسرائيلى الجديد قد يعيد القصة كلها إلى نقطة الصفر، فاشتراط حل قضية شاليط أولا يعنى أن الوسيط المصرى بات هو الآخر فى المأزق، خاصة أنه لايبدو متعجلا فى الحرص على فتح المعبر، ولديه أسبابه الذاتية لاستمرار الإغلاق، ويتحرك بحذر وبطء قاتل تخوفا من اتهامات وضغوط أمريكية وإسرائيلية .

والصورة - على هذا النحو - تعنى أننا بصدد موقف ملغوم، أو بصدد استراحة قلقة لمحارب متحفز، وبصدد تهدئة قد ينقصف عمرها فى أية لحظة، وبدون سابق إنذار، فالمزايدات الانتخابية المتوقعة قد تستعيد الحمى لجسد العسكرية الإسرائيلية، والخطط المعدة سلفا لعدوان كبير فى غزة قد تجد طريقها للتنفيذ، خاصة أن أولمرت يبدو ضعيفا وقلقا وبلا أمل، وصارت

صورته عنوانا على خوار إسرائيلى ظاهر، فقد هزم فى حرب لبنان، وهزم - حتى بمبدأ التهدئة - فى حرب حماس، وقد يلجأ لهدم المعبد على رءوس الجميع، ويحرق الأرض تحت أقدام خلفائه المتطلعين لوراثته، ويبدو كشمشون هزلى، والثقوب التى يريد أن ينفذ منها كبيرة، فربط وقف إطلاق النار برفع الحصار وقضية شاليط، هذا الربط المتعسف يعنى أننا بصدد متاهة، وإنجاز صفقة شاملة - فى هذه المسائل كلها - يبدو فوق الطاقة المتواضعة للوسيط المصرى، وضعف إمكانية التقدم بالتهدئة إلى تسوية يهدد التهدئة ذاتها، خاصة أن استثناء الضفة الغربية من وقف النار يهدد دائما باستئناف حرب النيران فى غزة، ثم أن الرئيس عباس لا يبدو سعيدا بالتهدئة بين حماس وإسرائيل، فهى تضعف موقفه أكثر على الساحة الفلسطينية الداخلية، وتغرى بالنظر إليه كبطة عرجاء، وكرئيس تائه عند مفارق الطرق، وهو الذى احترف التفاوض مع الإسرائيليين وعادى خيار المقاومة، ولم يلق من الإسرائيليين سوى العنت و"سواد الوش"، والوعد الباهت بإنجاز "اتفاق رف" يوضع مع غيره من اتفاقات ورق لا قيمة لها حتى فى دورات المياه، وربما يملك عباس فرصة إبطاء مبادرات التصالح مع حماس، وطلب شروط تعجيز تجعل الاتفاق الوطنى الفلسطينى مؤجلا إلى إشعار لا يجئ، وعلى أمل أن ينفجر الوضع مجددا فى غزة، وأن تتولى إسرائيل عنه مهمة إضعاف حماس عسكريا، وكلها آمال أقرب للسراب الضائع تماما كما هى التهدئة المنتظرة لساعة طلوع الروح .

إنها التهدئة القصيرة متقطعة الأنفاس، وربما تمهد لحرب دامية قد تفوز فيها حماس التى تتألق فى ميادين القتال بقدر ما تحاصر فى زواريب التفاوض .

٢٠٠٨/٦/٣٠

15

توكلنا عليك يا أوباما (؟)

لقد وقعنا أسرى لنفسية العبيد، نحلم بعطف السادة، وحتى لو كان السيد المخلص ـ هذه المرة ـ من نسل العبيد.

فلن نعدم من يحلم عندنا بإنصاف أوباما لو أصبح رئيسا لأمريكا، فى محطات التليفزيون، وفى الصحف السيارة، وعلى منابر السياسة، وعلى الصعيد الشعبى العام، فالكل يحلم بإنصاف أمريكى محتمل للعرب على يد باراك حسين أوباما، وتكاد القلوب تهتف "توكلنا عليك يا أوباما"!

ومؤهلات الإنصاف الموهوم معروفة، فأوباما ملون، ومن أصول زنجية، ووالده حسين من أصول كينية مسلمة، وجدته المسلمة - على سجادة الصلاة - تنتظر فوز حفيدها الأسطورة، وتصريحات أوباما الأولى فى الحملة الانتخابية بدت معقولة تجاه قضايا الشرق الأوسط، ودوائر التهجم على أوباما فى أمريكا دأبت على تعييره بصفات هى آيات الحسن عندنا، فهى تتهمه بأنه مسلم متخف، وبأن وقع اسمه فى الإنجليزية يقترب بلفظ أوباما فى الرنين من اسم "أسامة" بن لادن، وبأنه يرغب فى الحوار مع إيران ومع أحمدى نجاد، وربما يرغب فى الحوار مع حماس، وبأن الكنيسة التى ينتمى إليها تكره السياسة الأمريكية صانعة الشر فى العالم .

وربما كان هجوم دوائر التعصب العرقى والدينى فى أمريكا السبب فى تزايد شعبية أوباما عندنا، فقد بدت فى أوباما ملامح من الرئيس الأمريكى

الأسبق جون كيندى، والكل يتذكر مراسلات كيندى مع عبد الناصر عن حقيقة المأساة الفلسطينية، والكل يتذكر فاجعة اغتيال كيندى فى ظروف لا تزال ملتبسة إلى الآن، ومن ثم بدا أوباما موضع عطف متزايد عند قواعد الرأى العام العربى والمسلم، فقد كان كيندى أول رئيس أمريكى من الكاثوليك لا البروتستانت، وأوباما سيكون أول رئيس أمريكى من أصول زنجية ومسلمة، ولأننا نعانى من ظلم وجبروت السياسة الأمريكية لعقود، فقد بدا أن أوباما شريك معنا ـ بصورة أو بأخرى ـ فى المعاناة ذاتها، وأن انتصار أوباما ربما يحمل البشرى، ولو على الصعيد النفسى.

وكل هذه الأسباب تبدو مقدرة ومفهومة، ولكن بشرط ألا نقع فى الخطأ، أو أن نتصور فى أوباما مسيحا خاصا مخلصا للعرب، فقد يكون أوباما ظاهرة مثيرة جدا فى أمريكا، وهو كذلك، وتحول إلى شحنة سحر وإلهام للشباب

الأمريكى بالذات، إلا أنه قد لا يعنى شيئا بالنسبة لنا، فصعود أوباما، وفوزه بترشيح الحزب الديمقراطى، وبعد رحلة تنافس لاهث مع هيلارى كلينتون، واستطلاعات الرأى التى ترجح فوزه على ماكين مرشح الحزب الجمهورى، كل هذه التطورات، وإن لم تكن مضمونة الاطراد للنهاية، وقابلة للتغير أو الانقلاب على مغزاها فى الشهور المقبلة، وإلى موعد الانتخابات الحاسم فى نوفمبر، كل هذه التطورات تعنى أن أمريكا ـ على نحو ما ـ بلد ديناميكى حقا، فقبل أربعين سنة كان الزنوج بالكاد يحصلون على حقوقهم الإنسانية، وكان الزعيم الزنجى المتأثر بالإسلام مارتن لوثر كنج يلقى حتفه برصاصة غدر، وكان المجتمع الأمريكى يعترف ـ لتوه ـ بحقوق للزنوج متساوية مع حقوق البيض، فقد بنيت أمريكا على استعباد الزنوج، وقبل ٣٨٩ سنة من صعود أوباما، كان الأفارقة يجلبون كعبيد إلى الساحل الأمريكى، وبدا صعود أوباما كأنه ثأر التاريخ، بدا الصعود عاكسا لتغيير درامى فى مزاج الأمريكيين، بدا أن أمريكا تريد أن تتطهر من آثام تاريخها بالذات، فقد رفع أوباما شعار "التغيير الذى نستطيع أن نؤمن به"، وبدت رغبات التغيير عابرة لحواجز اللون، وبدت طبقات واسعة من الأمريكيين راغبة فى تجديد شبابها بأوباما، وبدت على استعداد لترك الأوهام المتقادمة عن النقص الخلقى المزمن فى العقل الزنجى، وبدت أفكار التعصب البيولوجى محاصرة، فقد فاز أوباما الأسود على هيلارى كلينتون البيضاء، وربما يهزم جون ماكين فى معركة البيت الأبيض، رغم أن ماكين روج لنفسه كسوبرمان، وقدمت سيرته كبطل أمريكى وأسير سابق فى حرب فيتنام، وكرجل ينطق وجهه بجراح وندوب محارب قديم .

نعم، أوباما ظاهرة تجديد غاية فى الإثارة بالنسبة لأمريكا، لكنه لا يعنى لنا بالضرورة شيئا جديدا، فكلما تقدم أوباما على السلم الرئاسى، زاد نضجه واعترافه بمعايير حاكمة للسياسة الأمريكية الخارجية بالذات، تلاشت

فوارق تفصله عن جون ماكين شبيه بوش، أو عن كلينتون، أو عن أى رئيس أمريكى سبق جمهوريا كان أو ديمقراطيا، ولم تكن مفاجأة أن أوباما راح يزايد على ماكين فى كسب رضا إسرائيل بالذات، وكان خطابه أمام الاجتماع السنوى للهيئة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة "إيباك" كاشفا للحقيقة الصلبة، فقد أكد أوباما على الأمن "المقدس " لإسرائيل، وهاجم حماس التى وصفها بالإرهاب، وأكد على الاحتفاظ بحق الخيار العسكرى لوأد المشروع النووى الإيرانى، ولم يعد لماكين من فرصة امتياز "إسرائيلى" على أوباما، وزادت بعدها شعبية أوباما بين يهود أمريكا بحسب استطلاعات الرأى، وقد لا تمثل أصوات اليهود فى ذاتها ثقلا خاصا، لكن الميل اليهودى له أثر حاسم، فقوى الضغط السياسى ووسائل الإعلام الكبرى مملوكة أو موضع تأثير بالغ من اليهود، و"إيباك" هى صانعة الملوك بامتياز فى واشنطن، وأوباما سيناتور ألينوى يعرف مصائر الذين عصوا فطارت رءوسهم، والذين تدربوا على الطاعة ليظلوا فى الواجهة، فإيباك هى بيت الرعب، وفى كتابه الشهير "من يجرؤ على الكلام ؟"، يصور لنا "بول فندلى" حجم الرعب الذى تعنيه كلمة إيباك، وحجم الفزع الذى يعصف بكل من يجرؤ على كلمة نقد واحدة لإسرائيل فى الكونجرس، وإلى حد يقول معه فندلى : إنه لو أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلى أن الكرة الأرضية مسطحة، فسوف يجتمع الكونجرس على وجه العجلة، ويصدر قرار تأييد فى اليوم التالى، ويعدد فى مزايا اكتشاف رئيس وزراء إسرائيل المجافى لكل حقائق العلم (!).

وبصورة أعمق من التأثير الظاهر للصوت واللوبى اليهودى، فإن ثمة سببا تكوينيا يجعل الساسة الأمريكيين عموما فى موقف المساندة التلقائية لإسرائيل، فإسرائيل هى أمريكا أخرى صغيرة، أمريكا والحلم الأمريكى قام على فكرة الهجرة والغزو والتطهير العرقى، أمريكا قامت على جثث عشرات الملايين من الهنود الحمر، أمريكا قامت على الاستيطان والإحلال، وهذا هو

حال إسرائيل بالضبط، فإسرائيل هى أمريكا أخرى، والفلسطينيون - فى المخيلة الأمريكية - ليسوا إلا هنودا حمراً لا مانع من القضاء عليهم، أضف إلى ذلك ارتباط إسرائيل بالسياسة الأمريكية وبالثقافة الغربية عموما، وبدواعى العداء للإسلام، وبمصالح واشنطن فى الشرق الأوسط بالذات، فرعاية أمريكا لإسرائيل فرض عين، وإسرائيل - بالنسبة لأمريكا - قاعدة عسكرية ثابتة على حواف خزان البترول، وما تنفقه أمريكا على إسرائيل جزء من النفقات الفلكية على قواعد البر والبحر والجو . وهذا الارتباط العقيدى التكوينى والاستراتيجى بإسرائيل غير قابل لانفكاك طوعى فى أمريكا، برئاسة أوباما أو بغيره، وحتى لو انتقل الرئيس الفلسطينى محمود عباس لرئاسة البيت الأبيض، فأمريكا لا تفهم إلا أن تهزم، ولا تعرف الحق إلا ممزوجا بالقوة، لا تقرأ كتب الحبر بل تقرأ كتب الدم، ولن تتخلى عن إسرائيل إلا حين تهزم الأخيرة، ولا تدرك خطأ سياستها بغير أن تدمى أصابعها، وهو ما ينطبق على أوباما وغيره، ويعنى أن تغيير سياسة أمريكا يبدأ من هنا لا من واشنطن، من التوكل على الله والناس لا على أوباما، فالمقاومة المسلحة وحدها هى التى تجلب لنا الاحترام والإنصاف، والمقاومة المسلحة فى العراق هى التى أشعلت صداما حقيقيا فى كواليس السياسة الأمريكية، وتكلفة الدم والمال هى التى تجبر أمريكا على التراجع، وهو ما يعنى أن سياسة أوباما لن تتغير تجاه إسرائيل، وربما إلى أن تهزم، أما فى العراق فالأمر مختلف، ولذلك يبدو أوباما أكثر وضوحا، فهو يطالب بانسحاب قوات أمريكا من العراق، وربما بنفس القدر الذى انسحب به إلى حائط مساندة إسرائيل!.

٢٠٠٨/٧/٧

مفارقة حسن نصر الله

16

معنى الكاريزما أوسع من حسن الهيئة الشخصية، ومن بلاغة زائدة فى إلقاء خطب السياسة، ومن جانبية سحرية يتمتع بها قيادى، فالثقة المتحصلة من ممارسة مرئية هى الأساس الخرسانى الصلب لتكون أسطورة الزعيم السياسى .

والسيد حسن نصر الله مثال رفيع على كاريزما الزعامة السياسية، فقد تحول من زعيم حزب إلى زعيم أمة، ومن منتسب لطائفة الشيعة إلى رمز لطائفة المقاومة فى الأمة كلها، ولا يكاد المواطن العربى يصدق أحدا من المشايخ أو من قادة السلاح أو من زعماء السياسة بأكثر مما يفعل مع حسن نصر الله، ولا يحتشد الناس لسماع خطبة زعيم - منذ عصر جمال عبد الناصر - كما يحدث مع السيد حسن .

وتبدو زعامة السيد حسن ظاهرة مفارقات حقيقية، فلم يولد وفى يده طبق زعامة فضى موروث، ولم تتزاحم على موائد عصره ملاعق ذهب تعطى الزعامة للراغبين والطامعين .

فقد ظهرت وتطورت ظاهرة السيد فى سياق تراجع عربى عام، انكسرت

موجة المد القومى العربى من أواسط السبعينيات، وسقط دور مصر القيادى فى بلاعة كامب ديفيد، وانفسح المجال لعربدة إسرائيلية متصله فى الشرق العربى، ضربت إسرائيل مفاعل "أوزيراك" العراقى بينما كان بيجين مجتمعا مع السادات، وزحفت إسرائيل بالغزو الشارونى إلى بيروت، وبدا أن إسرائيل نجحت فى احتلال عاصمة عربية خارج فلسطين لأول مرة، وفى وسط الحطام تكونت ظاهرة المقاومة اللبنانية، وكانت تياراتها الأولى قومية ويسارية متأثرة بتراث المقاومة الفلسطينية، وسرعان ما تحول المشهد مع بروز حركة أمل بميولها الطائفية الظاهرة، ثم مع الانشقاق عن "أمل"، وتكون النواة الأولى لحزب الله، ودور المؤسس الأول الشهيد عباس الموسوى، ثم خلافة حسن نصر الله، ومع تطور حزب الله - تحت زعامة السيد حسن - من منظمة مقاومة استشهادية إلى رقم صعب فى معادلات المنطقة كلها .

وكان لافتا أن يحدث ذلك فى لبنان بالذات، بتركيب الموزاييك فيه، وبكونه أضعف الدول العربية فى قوة السلاح النظامى، وبكون الدولة اللبنانية أقرب إلى الشركة المساهمة منها إلى الكيان القابض، وربما تكون هذه السمات الفريدة للبنان هى التى أسهمت فى نجاح مسعى حسن نصر الله، فقد بدا لبنان كأرض أحلام، حريات حركة للناس، وانفتاح لحدود لبنان على ما عداه، بيئة حرية وتحدٍ فى النفس ذاته، وموطئ لميلاد مفارقة العصر العربى التى حملت اسم نصر الله، وفى بيئة ثقافة إيمانية عميقة، وتطلع لمصائر الشهادة باعتبارها أغلى المنى، كل ذلك لعب دوره فى بناء ظاهرة الحزب المقاوم والزعيم المتفرد بطاقة الإلهام .

ونظن أن سنوات التسعينيات كانت هى الزمن المثالى لبلورة مفارقة حسن نصر الله، فقد خرج العرب من حرب الخليج الثانية فى حالة يرثى لها، ذهبت جيوش عربية للحرب تحت القيادة الأمريكية، وكان الطرف الآخر فى الحرب هو جيش العراق، وسيق العرب إلى مدريد، وذهب الفلسطينيون إلى مفاوضات أوسلو السرية، وكان الاتحاد السوفييتى قد ذهب بددا، وذهب تأثيره الموازن نسبيا لنفوذ أمريكا فى المنطقة، وبدت لغة المقاومة غريبة تماما كغربة الإسلام فى آخر الزمان، وراجت أوهام وخيالات عن حقائق العصر الجديد، وبينها أن المقاومة مودة قديمة، وأن التسويات هى لغة العصر، وأن ملاينة أمريكا ومسايرتها هى طوق النجاة، وذهب زعيم المقاومة الفلسطينية التاريخى ياسر عرفات إلى خيمة غزة ـ أريحا، وإلى سلطة حكم ذاتى هى قبضة هواء، وبالمقابل بدا صعود حزب الله مفارقا، وعدوا عرفات ـ رحمه الله ـ بإقامة دولة فلسطينية قبل قدوم سنة ٢٠٠٠، ولم تقم الدولة الفلسطينية إلى الآن، بينما كانت المقاومة ـ المفارقة ـ عند وعدها بالضبط، ونجحت فى طرد الاحتلال الإسرائيلى من جنوب لبنان سنة ٢٠٠٠، ودون أن توقع صكا أو تتعهد بتطبيع، وكانت العظة باهرة، فقد ثبت أن تصميم القوة الذاتية قادر

على قلب المعادلات المفروضة، فقد نجحت خطة حسن نصر الله وخابت خطة عرفات، بل وزحف تاريخ نصر الله إلى جغرافيا عرفات نفسها، وبدت الانتفاضة الفلسطينية الثانية ترجيعا لصدى انتصار المقاومة فى لبنان، فقد نشبت الانتفاضة الثانية بعد النصر اللبنانى بشهور، وبدا تحول الانتفاضة الثانية من الحجارة إلى السلاح لافتا، وبدت إسرائيل منهكة أكثر مع الانتفاضة الثانية، واضطرت لفك الارتباط والجلاء الأرضى عن غزة وتفكيك المستوطنات اليهودية لأول مرة فى التاريخ الفلسطينى الحديث والمعاصر، وكانت تلك هى الثمرة الثانية المؤكدة لنجاح خط حسن نصر الله، صحيح أن نزعة الاستشهاد فى المقاومة الفلسطينية لها تاريخها الطويل، لكن الثقة المستعادة بسلاح المقاومة مع نجاحها فى تحرير الجنوب اللبنانى، الثقة بجدوى السلاح المقاوم، الثقة فى نصر الله الموعود للصابرين والاستشهاديين، هذه الثقة ردت اعتبار المقاومة، وبدت فصائل المقاومة وقادتها موضع استقطاب لمشاعر الناس بعد خيبة الأمل راكبة الجمل فى الحكام وجيوشهم النظامية .

ومن مقام البطل إلى مقام الأسطورة تحول حسن نصر الله، فقد ثبت ـ مع تطور حزب الله ـ أن الأمة قادرة على اجتراح البطولة، وأنها قادرة على النصر فى لبنان وفلسطين، وأن قوة سلاح الجماعات الشعبية قادرة على قهر الجيش الإسرائيلى الذى قيل طويلا إنه لا يقهر، لكن تلك لم تكن نهاية المطاف فى دراما المقاومة المفارقة لاستسلام العصر العربى، فقد بدأ حزب الله ـ مع العشرية الأولى من الألفية الثالثة ـ فى التحول من جماعة مقاومة إلى قوة من طراز فريد، صحيح أنه ولد وتطور ببركة دم الشهداء، ولم يتخلف حسن نصر الله يوما عن قطار الشهادة، وقدم ابنه "هادى" شهيدا محتسبا عند الله، لكن حزب الله ـ بقيادة نصر الله ـ تحول من جماعة استشهادية إلى جيش حرب عصابات فائق الخبرة والتكنولوجيا، وأسهم الاستعداد الذاتى الفائق فى

الاستفادة القصوى من عون إيران وغيرها، ودعمت تكنولوجيا الصواريخ استشهادية رجال الله، مع التدريب العسكرى الشاق، وشبكة الأنفاق السرية، وجهاز المخابرات طويل الذراع إلى قلب إسرائيل ذاتها، وتحول حزب الله إلى أكبر وأكفأ قوة عربية إلى الشرق من فلسطين، وبدت مواعظ حرب يوليو ٢٠٠٦ ظاهرة بأماراتها، فقد كانت هى الحرب العربية الإسرائيلية الأطول بأيامها، ودخلت النظم العربية ـ من وراء أمريكا ـ طرفا داعما بالسياسة لحرب إسرائيل، لكن حزب الله انتصر، ووضع مدن الداخل الإسرائيلى تحت رحمة صواريخه، وزحف بالهلع إلى قلب قادة إسرائيل المرتبكة، بينما بدا حسن نصر الله بقامته القصيرة ـ نسبيا ـ كأنه المارد العملاق، وبدا وعده الصادق كأنه كلمة الله، وبدت لثغته الرائية المحببة كأنها البلسم الشافى، وبدت تعهداته كأنها الأقدار، تعهد بهزيمة إسرائيل وقد فعلها مرتين، وتعهد بإطلاق سمير القنطار عميد الأسرى العرب فى سجون إسرائيل، وها هو الوعد الآن يتحقق .

إنها دراما حسن نصر الله الذى بدأ كقائد شيعى. وانتهى بأن جعلنا جميعا من شيعته .

٢٠٠٨/٨/٤

الحوار عارض والانفجار وارد

17

لايبدو الحوار الفلسطينى المزمع تجديده فى القاهرة مرشحا للنجاح، والوسيط المصرى مجرد قناة اتصال وليس طرفا ضاغطا ولا مصمما على هدف بعينه.

ويبدو الحوار عارضا والانفجار واردا، والأسباب باتت ظاهرة تخزق العين.

صحيح أنه تصدر أحيانا تصريحات عن حماس وفتح ترحب بالحوار، لكن النوايا لا تبدو خالصة، والطريق لا يبدو سالكا، والسلوك أقرب إلى الحوار بالمتفجرات على الأقل في المدى المنظور، الاعتقالات متبادلة فى غزة والضفة الغربية، حكومة حماس تعتقل مئات الفتحاويين فى غزة، وحكومة عباس تعتقل قيادات حماس فى الضفة، حكومة حماس تبرر الاعتقالات بمسئولية "فتح" عن انفجار بحر غزة الذى راح ضحيته خمسة من قيادات حماس إضافة لطفلة بريئة، وتغلق جمعيات وتستولى على مكاتب لفتح، وبحجة أن هذه المؤسسات تستخدم لتخزين المتفجرات، بينما تواصل حكومة عباس اعتقالاتها لأبناء حماس، وتتعاون مع الإسرائيليين فى محاولة لاجتثاث أى وجود لحماس أو لجمعياتها الخيرية فى الضفة الغربية .

وهذه الصورة الصراعية الصاخبة تدعمها تصريحات أكثر صخبا من

الطرفين، عزام الأحمد - رئيس كتلة فتح فى المجلس التشريعى - وصف قيادات حماس بأنهم كذابون، وأنهم يكذبون كما يتنفسون، وكان رد قيادات حماس أكثر سخونة، فقد وصف محمد نزال - قيادى حماس - عزام الأحمد بأنه "غبى"، وأنه أدلى بهذه التصريحات وهو "فى حالة سكر بين" !، فوق ذلك يبدو الرئيس عباس نفسه فى حالة خصام مع خالد مشعل رئيس المكتب السياسى لحركة حماس، رفض لقاء مشعل فى دمشق، وهاجمه فى تصريحات بالقاهرة، وقال إنه لا ينوى اللقاء معه بسبب اتهام مشعل لعباس بالخضوع لضغوط أمريكية وإسرائيلية، وكأن هذه التهمة لا ظل لها ولا أصل(!)

فهل تعنى هذه التصريحات شيئا؟، وهل لها علاقة وصل بنوايا الحوار؟، ربما يرى البعض أن سخونة التصرفات والتصريحات المتبادلة قد تمهد

لتفاوض، وأن كل طرف يريد أن يبدو فى غاية التشدد، وحتى يأتى الحوار - حين يبدأ - لصالحه، وربما لا يبدو لهذا التفسير من سند يدعمه، فما يجرى أقرب إلى نوع من تكسير العظام، وإلى تنافس الطرفين على احتكار تمثيل الشعب الفلسطينى، ومبادرات الحوار التى وقع عليها الطرفان تبدو فى حكم الأوراق الميتة، فاتفاق مكة تجاوزته الحوادث، واتفاقات القاهرة صارت حبرا على ورق، والمبادرة اليمنية مختلف فى تفسيرها، سلطة حماس تراها مجرد جدول أعمال للحوار، بينما تراها سلطة عباس مبادرة للتنفيذ بدءا من بندها الأول، والذى ينص على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل استيلاء حماس على غزة، وهو مطلب لا يبدو وارد التنفيذ عند صقور حماس أو عند حمائمها إن وجدوا، وهو ما يعنى أن الطريق مسدود حتى إشعار آخر .

وأولويات حماس وفتح - الآن - تبدو فى مدار آخر، وباتجاه التنافس على التفاوض مع الإسرائيليين بالذات، إيهود باراك - الساعى لخلافة أولمرت فى رئاسة الوزراء - امتدح مقدرة حماس على ضبط التهدئة بالنار على حدود غزة، وإيهود أولمرت - رئيس الوزراء الإسرائيلى الحالى - عرض ما أسماه "مزيدا من المرونة" فى صفقة تبادل أسرى فلسطينيين مع جلعاد شاليط، وطلب إلى حماس أن تبدى مرونة بالمقابل، ووفد قيادى من حماس - برئاسة موسى أبو مرزوق - ذهب إلى القاهرة لبحث مسائل التهدئة المعلقة كلها، والحوار الفلسطينى - الفلسطينى ليس على أولويات الأجندة، فالأولوية لتقديم شروح ووثائق من حماس لتبرير اعتقالات الفتحاويين فى غزة، والأهم : بحث صفقة تبادل الأسرى مع الإسرائيليين، وقد خفضت حماس من سقف مطالبها، وجعلت من مطلب إطلاق سراح ألف أسير فلسطينى مجرد كارت تهديد، وتطرح عمليا - الآن - مطلب إطلاق سراح ٤٥١ أسيرا فلسطينيا لا غير، وبالمواصفات التى طلبتها من قبل، أى أن يشمل المفرج عنهم أسرى من كل الفصائل بما فيها فتح، وأن تشمل الصفقة إطلاق سراح المتهمين بقتل

إسرائيليين وذوى الأحكام بالمؤبد، وليس فقط وزراء ونواب حماس الأسرى الذين يقترب عددهم من الأربعين، فيما توافق إسرائيل إلى الآن على إطلاق سراح ٧٠ شخصا فقط من القائمة التى عرضتها حماس، ويبدو دور الوسيط المصرى محكوما بمدى المرونة الذى تبديه إسرائيل، ففجوة المطالب متسعة لا تزال، وإسرائيل لا تبدو مستعدة لمنح حماس صفقة العمر، ومصر - أيضا - لا تبدو متحمسة، والطرفان يقولان - تلميحا وتصريحا - إنه لا أحد يتجاوب مع رغبة حماس فى استثمار أسر جلعاد شاليط لفك أزمة غزة كلها، فالسياسة المصرية لا تبدو مستعدة لفتح معبر رفح بصفة دائمة، بينما المعابر بإزاء إسرائيل محكومة فى حركتها - فتحا أو إغلاقا - بمدى الرضا الإسرائيلى عن نشاط حماس فى وقف إطلاق الصواريخ، وقصف التهدئة وارد وفى أى وقت، خاصة أن القيادة الإسرائيلية المضطربة تتخوف من استثمار حماس للتهدئة فى تطوير عمل وكفاءة وتسليح كتائب عز الدين القسام .

وعباس - من جهته - يبدو غاية فى الضيق من استمرار تهدئة إسرائيل مع حماس كل هذا الوقت، ومن إمكانية نجاح حماس فى عقد صفقة معقولة مقابل إطلاق سراح شاليط، فهو يتخوف من ازدياد جاذبية حماس لدى الشعب الفلسطينى، ويتخوف بالذات من نجاح حماس - إن حدث - فى إطلاق سراح مروان البرغوثى مع وزراء ونواب حماس، فإطلاق سراح القيادى الفتحاوى مروان البرغوثى يهدد قيادة عباس لفتح، والبرغوثى - من سجنه - حريص على توجيه اللوم السياسى لفتح وحماس معا، وليس لحماس وحدها، صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية قالت إن عباس هدد بحل السلطة الفلسطينية كنوع من الضغط على الإسرائيليين، وان الإسرائيليين لم يعدوا بشئ، ربما رغبة فى مزيد من التلاعب بخلافات عباس وحماس، وفى الوقت نفسه لا تبدو إسرائيل مستعدة لنجدة عباس فى مفاوضات الضفة والقدس، فقد أعلن أولمرت أن المفاوضات حول القدس سوف يجرى تأجيلها لعام آخر، وأن غاية

ما يمكن أن يحدث هو "اتفاق رف"، أو إعلان وثيقة - ربما فى سبتمبر المقبل - تحدد نقاط تفاهم على طريقة وثيقة كامب ديفيد الثانية، بينما يبدو عباس غاية فى الضيق من الإسرائيليين الذين يخذلونه، ويدفع رجاله لتصريحات تهدد بقطع المفاوضات بعد جولة واشنطن، وبدون استعداد للتقدم إلى أى بديل، فعباس يعلن - بوضوح - أنه ضد العودة للمقاومة المسلحة على طول الخط، وأن بديل الفشل السياسى - عنده - هو العمل السياسى، وأن البديل للتفاوض مع الإسرائيليين هو العودة للتفاوض مع الإسرائيليين(!).

وفى المحصلة، فإن أولوية حماس وعباس - فى هذه الفترة على الأقل - هى الحوار مع الإسرائيليين، وليس التقدم بصفاء النية إلى حوار فلسطينى - فلسطينى، وربما بفارق وحيد بين الطرفين، فعباس يغالى فى تقدير أولويته عند الأمريكيين والإسرائيليين، ولا يبدو التقدير دقيقا، فتوازن القوى العسكرية على الأرض يميل لصالح حماس التى تستأثر بقواعد غزة، وواشنطن مع تل أبيب تفهم فى منطق القوة قبل غيرها، وربما تكون تلك ورقة حماس التى تراهن عليها، فلا إمكانية لإجراء انتخابات داخلية فلسطينية دون اتفاق معها، ولا إمكانية لضمان اتفاق مع إسرائيل دون مشاركتها، ثم أن لديها بديلا تطرحه فى آخر النفق، فهى تهدد بإشعال انتفاضة فلسطينية ثالثة، والمزاج الفلسطينى العام يبدو فى حالة اختناق، وأقرب إلى الانفجار منه إلى الحوار، وسكة الانفجار فى علاقات حماس إزاء عباس تبدو سالكة، بينما طريق الحوار مغلق حتى إشعار آخر .

٢٠٠٨/٨/٤

اعترافات من الجحيم

18

صاحبة الكتاب عراقية ماجدة، إنها القاصة والصحفية المعروفة بثينة الناصرى، وقد صدرت أولى مجموعاتها القصصية فى بغداد أواسط السبعينيات، وتقيم فى القاهرة منذ بداية الثمانينيات، وترجمت قصصها إلى عدد من اللغات الأوروبية، وتنشط الآن على الانترنت وفى صناعة أفلام الفيديو لخدمة القضية العراقية .

أما الكتاب فجرح نازف من دمنا فى العراق، ليس على لسان العراقيين الضحايا والمقاومين، بل بأقلام ويوميات الجنود الأمريكيين هناك، عن هزائم أبدان وأرواح الأمريكان، عن المفارقات التى عصفت بالأوهام، وحيث تكون المفارقة - كما تذهب الكاتبة المترجمة - أن "العدو" ليس جماعة من الإرهابيين كما قيل لهم، بل شعب أعزل يعيش على بعد آلاف الأميال من الشواطئ الأمريكية، ودون أن تكون له عداوة مع الشعب الأمريكى، وأن الجماعات التى تقاتل لا ترتدى زيا خاصا، وليسوا جيشا نظاميا، فهم رجال يدافعون عن أرضهم، وليس واردا أن يخرج أحدهم رافعا للراية البيضاء أو طالبا لمفاوضات هدنة، بل هم جيش أشباح لا يميزهم شئ عن سواد الناس، سمر الوجوه، قد يبتسمون لك فى الصباح، وفى الليل لا تعرف من أين تأتى الضربات، إنها مفارقة رامبو الأمريكى الذى دخل إلى حرب لن ينتصر فيها أبدا.

الكتـاب الذى يحـمل عنوان «oh my God» يضـم بين دفـتـيـه مـدونات وشـهادات لجنود وضـباط أمريكيين فى بلاد الرافدين، بـأسـمـاء حقيـقية، أو بأسماء مستعارة، من رسائل شخصية، أو من مقابلات خاصة، وتبدو فيه روح اليأس الطاغى المسيطر على الجنود فى الميدان، يقول الجندى يفنسون ترتولين من قـاعة الطـعـام فى اليوسـفيـة على بعـد عشـرة أمـيـال جنوب بغداد، يقـول ترتولين: "لا أرى أى تقدم.. لا أرى غير المزيد من قتلانا، لم أعد أريد أن أكون هنا بعد الآن.. "جندى آخر فى قاعدة بمحافظة ديالى قرب بغداد كتب يقول "هذا الاحتلال.. حفرة الأموال هذه.. هذا العدوان غير المبرر ينحدر إلى قاع اليأس كل ثانية"، جندى ثالث يتخذ اسما مستعارا هو "أليكس" ويقول ببساطة "الجندى الوحيد الذى أعرفه. وكان يعتقد بأن الحالة فى العراق تتحسن. ذهب إلى الموت اليوم برصاص قناص"، روح الإحبـاط واليـأس هبطت بمعنويات

الجنود إلى مستوى خطر، وزاد معدل الانتحار إلى ١٧٣ حالة لكل مائة ألف، و٤٥٪ من الجنود يعتقدون أن الحالة المعنوية فى الحضيض، و٧٪ فقط يعتقدون أن الحالة المعنوية مرتفعه جدا .

ومن الحرب بلا أمل إلى الحرب بلا شرف تنتقل يوميات الجنود، جندى هارب من الخدمة اتخذ لنفسه اسم جوشوا كى، أرسلوه للعراق، وهرب بعد أول عملية، وبعد فترة اختفاء فى أمريكا، هرب عبر الحدود الكندية عند شلالات نياجرا، فقد تصور أنهم أرسلوه ليحارب جيشا، لكنه وجد نفسه متورطا فى دهس الأبرياء، وحراسة حفلات اغتصاب للعراقيين والعراقيات، ذهب مع فصيلته لاقتحام منزل عراقى، وبزعم البحث عن إرهابيين وأسلحة، بينما لم يكن هناك غير أسرة عادية جدا، حطموا كل شئ، قطعوا المفارش والمراتب بالسكاكين، كسروا الأثاث واعتقلوا الموجودين، وأخذوهم خارج المنزل، لم يكونوا غير طفلين ومراهقة وامرأة وشاب مراهق وآخر فى بداية العشرينيات، المرأة المهانة قالت فى غضب "أنتم الأمريكيين حقراء، من تظنون أنفسكم لتفعلوا بنا هذا"، كان الجواب : ضربة ببندقية على وجهها، سقطت على الأرض وهى تنزف، بعدها جرى ما لم يكن يتصوره جوشوا فى كوابيسه، أخذت النساء إلى داخل المنزل، ودخل ضباط أمريكان أعلى رتبة، ووقف جوشوا مع الآخرين فى نوبة حراسة، ظلت الأبواب والنوافذ مغلقة لمدة ساعة، وما من صوت غير صراخ النساء المغتصبات، وفى النهاية : أوامر بالانصراف، وكان لا شئ جرى، يقول جوشوا: طرأ على ذهنى حينها أن الإرهابيين هم نحن الجنود الأمريكان، إننا نرهب العراقيين، نرعبهم نضربهم. ندمر منازلهم. نغتصبهم. من لا نقتله نخلق له كل الأسباب فى العالم ليتحول إلى إرهابى، وبما نفعله بهم، من يلومهم على رغبتهم فى قتلنا ؟، وقتل كل الأمريكيين؟، هذا الإدراك المثير للغثيان تحول فى أحشائى إلى ما يشبه ورما سرطانيا نما وكبر، وسبب لى معاناة هائلة. الإرهابيون فى العراق هم نحن الأمريكان .

الجندى ماسى من المارينز يقول "إن سبب المقاومة فى العراق هو أننا نقتل

الأبرياء"، يروى ماسى أنه وفرقته قتلوا أكثر من ٣٠ بريئا فى يوم واحد، وأكثر ما علق فى ذاكرته واقعة جرت على بعد خمسة أميال من مطار بغداد، كان هناك عشرة متظاهرين ليس بينهم واحد يحمل سلاحا، أطلقنا عليهم النار، ماتوا جميعا إلا واحدا، احتمى خلف عمود كهرباء، أشرت إليه بسلاحى أن يهرب، كان يحاول القفز بقدمه نصف المقطوعة، كنا نضحك ونهتف وكأننا نشاهد قردا كسيحا، وفى حصار الفلوجة كان ماسى هناك، ويروى أنهم كانوا يمثلون بجثث العراقيين، نركلها خارج العربات، نطفئ فيها أعقاب السجائر، نضع السجائر فى أفواه الموتى، كنا نفتش جيوب العراقيين الموتى بدعوى البحث عن معلومات، ولكنى ـ يقول ماسى ـ كنت أشاهد المارينز وهم يسرقون السلاسل الذهبية والمحافظ المليئة بالنقود، جندى آخر هو آلان شاكلستون يقول إنه دهس طفلا عراقيا عمدا بمركبته، وهو يعيش فى أرق شديد، ويتناول حبوبا منومة، ويذهب إلى طبيبه النفسى كل ستة أسابيع (!)، جندى ثالث باسم جوهاتشر يقول : كنا نجمع أشلاء العراقيين من الرصيف ونرميها فى سلة المهملات أو على قارعة الطريق، جندى رابع باسم جودى كيسى يقول : أخطر ما نفعله أننا لا نحفل بالحياة الإنسانية، ولدينا أوامر دائمة بإطلاق النار على كل شئ تراه أمامك، نقتل المزارعين الذين يخرجون لأعمالهم فى الصباح، ويضيف: أنهم يطلقون على كل عراقى "حجى"، وهى تسمية يطلقها الأمريكان على سبيل إهانة العراقيين، تعلق التسمية فى رأسك، حجى! حجى!، وكأن العراقى جرد من إنسانيته، وأصبح مجرد لعبة فيديو، وهدف لإطلاق النار، ويروى الجندى أنهم يتعاملون بقانون خاص غير مكتوب، وأن الجنود الذين خدموا فى منطقته قبل وصول وحدته تركوا الوصايا، ونصحوهم بأن يحملوا مساح (جمع مسحاة) معهم فى مركباتهم، والمساح هى الفئوس، وحين يقتلون العراقيين الأبرياء، ما عليهم سوى الاستعانة بمسحاة، وتركها إلى جوار جثث القتلى، وتصويرهم وكأنهم كانوا يحفرون لزرع عبوة، فالمبدأ السائد : هو أن من حقك أن تقتل من تريد، وفى أى وقت،

وأن تكرر القصة التى باتت معتادة، جندى أمريكى فى عربته فى الثالثة صباحا، وعلى الجانب الآخر للطريق جثة عراقى على الأرض، وإلى جانبه مسحاة، ومن واجبك أن تصور الجثة، لكن لست ملزما بالدفن ولا التحقيق فى الهوية، فالذى قتل مجرد "حجى" وليس إنسانا(!).

إنه القتل المجانى الوحشى للأبرياء، والذى راح ضحيته مليون عراقى على الأقل، وبدعوى البحث عن أسلحة دمار شامل لا وجود لها من أصله، الضابط الأمريكى "جيف بيروزى" يقول ساخرا: اتصلوا بى حين تجدونها، لقد بدأنا الحرب اعتمادا على كذبة، وسوف ننهيها اعتمادا على كذبة، أقول هذا لأنى حاليا أخدم فى مقر لوجستى فى محافظة الأنبار بين مدينتى الفلوجة والرمادى، ولا تخدعنى أكاذيب الحرية والديمقراطية التى تطلقها قيادتنا فى الوطن وخارجه، إنه الخداع الذى يطوره اعتقاد قواتنا المسلحة بأننا نستطيع ببساطة دخول أرض ما بين النهرين التاريخية، ونشرح لأبنائها فوائد الجمعية التشريعية، بينما كان أسلافنا الأوروبيون يتدلون من الأشجار، كان هؤلاء الناس يكتبون الجبر ويحلون المعادلات التربيعية(!)، فدعونا ننهى مهمتنا ونخرج من هذا الوحل، ضابط أمريكى آخر هو آل لورينتز عرض خمسة أسباب لاستحالة انتصار الأمريكان فى حرب العراق، أولها: إننا نواجه حرب عصابات، ومادام هناك دعم شعبى فلن يخسر مقاتلو حرب العصابات، وكلما سقط واحد حل محله اثنان، ثانيها : أن العراقيين يكرهوننا بسبب احتلالنا وبسبب أفعالنا، ثالثها: أننا نقتل الأبرياء بلا تمييز ونولد رغبات انتقام تعطى المتمردين زخما هائلا، رابعها: أن خطوط إمداد المقاومة قصيرة، ولديهم ميزة تعاون الأصدقاء والأقرباء والشبكات الدينية الفعالة، خامسها : أن استعداداتنا لم تكن لهذه الحرب بعكس المقاومة التى تطور تكتيكاتها بكفاءة ومهارة ملحوظة.

إنها اعترافات العائدين من الجحيم والذاهبين إليه .

٢٠٠٨/٨/١٨

أوباما الأسود وقلبه "الأبيض"!

19

لا أحد ينكر على أمريكا ديناميكيتها الداخلية الفوارة، ولا يصح لأحد أن يتنكر لمغزى فوز الملون باراك أوباما - ذى الأصول الإفريقية - بترشيح الحزب الديمقراطى لمنصب الرئاسة، وهو ما يعنى أن تصبح زوجته السيدة ميتشيل، وهى السوداء بلون الكحل، فى مقام السيدة الأولى بالبيت الأبيض، وأن تصبح واجهة أمريكا البيضاء سوداء تماما، فهل يصلح القلب الأبيض للسود ما أفسدته عنصرية البيض السوداء؟.

الجواب - باختصار - "نعم" و "لا" فى نفس واحد، فليس كل أسود بقلب أبيض، وربما لا يوجد قلب أكثر سوادا من قلب السوداء كوندوليزا رايس رفيقة بوش، وإن كانت قصة باراك أوباما تبدو مختلفة إلى حد منظور .

صحيح أن تطورا هائلا جرى فى المجتمع الأمريكى، وأن النظرة للسود اختلفت إلى حد كبير، وبدا التسامح اللونى ظاهرا، وقبل أربعين سنة كان مارتن لوثر كينج يلقى مصرعه، ويموت شهيدا لخطابه الشهير "عندى حلم"، كان حلمه أن تختفى عنصرية اللون تماما، وأن تترسخ الحقوق المدنية للسود، وأن يصبح من حق السود أن تكون لهم أحلام البيض، ولم يذهب دم مارتن لوثر عبثا، وصدرت تشريعات تحرم مخاطبة الأسود بلفظه "زنجى"، وحلت محلها كلمة "أفرو أميركان"، أى أمريكى من أصل إفريقى، لكن أوضاع السود لم تتغير كليا، فهم حوالى خمس المجتمع الأمريكى، لكنهم ظلوا الغالبية - إلى الآن - فى السجون بالذات، ولم تتوقف النزعات العنصرية عند رمى السود بالميل الخلقى للإجرام، أو بالميل العام للقذارة، بل نشأت مدارس بيولوجية تستر العنصرية الكامنة برداء العلم، وتتحدث عن مخ الزنجى الذى هو أصغر من مخ

الأبيض، وعن مخ الرجل الذى هو أكبر من مخ المرأة، وقبل عشرين سنة كانت ميتشيل ـ زوجة أوباما ـ تدرس فى جامعة أمريكية كبرى، وكان فزعها الأكبر من نظرة أساتذتها وزملائها إليها، فقد كانوا ينظرون إليها ـ بحد تعبيرها ـ على أنها سوداء أولا ثم طالبة ثانيا، لكن وقف الاضطهاد العلنى ـ على الأقل ـ سمح بتغير كبير فى النظرة للسود، وفى تلوين سماء النجوم الأمريكية بشارات سوداء، وفى مجالات الموسيقى والغناء بالذات، وفى دنيا أصحاب الأعمال أحيانا، فيما ظلت السياسة ـ فى مراتبها العليا بالذات ـ عالما مغلقا على البيض فى الغالب الأعم، وظلت الحواجز العالية تمنع السود من الانضمام لما يسمى "طبقة واشنطن"، وحيث تتداخل مصالح وروابط المجمع الصناعى ـ العسكرى مع خريجى الجامعات الكبرى، وحيث تبدو جدران المؤسسة الحاكمة حاجزا منيعا يصد اختراقات السود المحدودة جدا .

ومع حواجز اللون ظهرت حواجز الأيديولوجيا، وصعدت موجة المحافظين الجدد فى الثلاثة عقود الأخيرة، صعدت ومعها التبرير الدينى لسيطرة "الواسب"، أى البيض الأنجلو ساكسون البروتستانت، أى النواة المؤلفة للكيان الأمريكى تاريخيا بغزوات البيض البروتستانت، وفى تلك الفترة راح الشعور الدينى المحافظ ينمو، وكغطاء أيديولوجى لنزعة عنصرية جديدة ضد أبناء الأعراق الأخرى المتكاثرة فى أمريكا، وسيطرت النزعة الجديدة على الحزب الجمهورى المحافظ من ريجان إلى بوش الابن، وسيطر هؤلاء على البيت الأبيض لمدة عشرين سنة، فيما بدت صحوة الديمقراطيين - مع ظاهرة كلينتون - حالة اعتراضية موقوتة، وبدت مدعومة بنفوذ اللوبى اليهودى الكاسح، فلم تكن الإدارة الأمريكية مليئة بأعداد أكبر من اليهود المسيطرين فى المواقع الحاكمة بأكثر مما جرى فى سنوات كلينتون الثمانية بالبيت الأبيض .

بدا السجال الرسمى - فى الثلاثين سنة الأخيرة - كأنه تداول وتحالف بين "المسيحيين المتصهينين "فى الحزب الجمهورى، و"اليهود المتصهينين" فى الحزب الديمقراطى، فيما بدا السود خارج الدائرة، وكانت ظاهرة القس جيسى جاكسون يتيمة فى نوعها، فقد تقدم جاكسون كرجل سلام، وكمتفهم لمطالب الفلسطينيين، وأخفق بجدارة فى السباق على ترشيح الحزب الديمقراطى، بينما سرت فى أوساط السود نزعات إنسانية عامة، وبدا اعتصامهم بالحزب الديمقراطى أكبر، فقد ظل الحزب فى المعارضة غالب هذه السنوات، وكانت تنمو فى المجتمع الأمريكى المتنوع عرقيا - بالتوازى - معارضة ثقافية لظاهرة أيديولوجيا المحافظين الجدد، فقد راحت دعوة الإسلام تنتشر فى أوساط السود بأكثر من غيرهم من الأمريكيين الأقدم سكنا، وبدا اتجاه السود المسيحيين إلى "الكنائس الاعتراضية" لافتا، وبدا باراك أوباما نفسه عنوانا على نوع من المعارضة الثقافية للشعور الأمريكى المحافظ المسيطر، فهو من أصول مسلمة، وهو مسيحى مرتبط برجل دين معارض بشدة لسياسة بوش ورؤاها

الدينية المهلكة، وكانت تلك الأصول بالذات هى أكبر عقبة صادفت أوباما فى حربه لنيل فرصة الترشح للرئاسة، وأشعلت الحرب الإعلامية ضده إلى حد الجنون، وإلى حد تشبيه إيقاع كلمة أوباما - فى النطق الإنجليزى - بكلمة"أسامة".. بن لادن، وكأن أوباما هو مرشح تنظيم القاعدة لاحتلال البيت الأبيض (!).

وفى المأزق، كان على أوباما أن يتصرف، جلده الأسود لم يعد عائقا، ولا جلد زوجته الأكثر سوادا، لكن المشكلة كلها فى "قلبه الأبيض " إن صح التعبير، فالعنصرية ضد جلده الأسود كامنة، بينما العنصرية ضد قلبه الأبيض فى أوجها، فقد تقبل المؤسسة الأمريكية - الحاكمة للاقتصاد والإعلام والسياسة - اختلافه اللونى، لكنها لا تقبل اختلافه الثقافى، ولم يضيع أوباما وقتا فى طمس اختلافه الثقافى، طمس دور والده حسين أوباما بأصوله المسلمة، ولم يذكره بكلمة خير، وكأنه لم يكن موجودا، وأعلى دور أمه الأمريكية المسيحية، وأعلن اختلافه الجهير مع آراء "أبيه الكنسى" المعادية لبوش ولإسرائيل، وأكمل الطريق بإعلانه الولاء لإسرائيل فى مؤتمر "الإيباك" السنوى، ثم زار إسرائيل نفسها ليحصل على البركة، وكان عليه أن يتنكر لآرائه المبكرة الداعية لحوار مع إيران، وأن يؤكد عدم استبعاد الخيار العسكرى فى التعامل مع مشروعها النووى، وقد فعل ذلك كله بحماس براجماتى هائل، وطرد مندوبا مسلما من قيادة حملته الدعائية، كل ذلك فعله ليؤكد أن "قلبه أسود" تماما كبيض أمريكا تجاه العرب والمسلمين بالذات، ويضمن وقف إطلاق النار عليه من "اليهود المتصهينين" بالذات، وبالمقابل كانت لديه فرصة التقدم بميزاته الأخرى، فقد بدا كرجل ملون بقلب أبيض فى مسائل الداخل الأمريكى بالذات، فهو يريد الخروج من العراق ومن ورطة بوش، ويريد توفير عشرة مليارات دولار تصرف شهريا فى العراق، ويريد إنعاش الاقتصاد المأزوم، وتوفير فرص العمل، وتحسين حياة الطبقات الوسطى والفقيرة، ويريد أن تفخر أمريكا بأبنائها المتعلمين السعداء الأصحاء

الأصحاء لا بعدد مليونيراتها ومليارديراتها، ويستوحى الخطاب القديم لمارتن لوثر كنج "عندى حلم"، ويطوره فى خطاب جديد بعنوان "عندى أمل"، يشهر قلبه الأبيض إلى الداخل، ويحتفظ بسواد قلب أمريكا فيما يخص النظرة للعالم.. وإلينا بالذات .

وهكذا، بوجه ملون، وبقلب ملون "أبيض وأسود"، يواصل أوباما معركة فريدة فى سباق الرئاسة الأمريكية، وتأكيدا للمعادلة ذاتها، اختار أوباما السيناتور المخضرم جوزيف بايدن نائبا له على تذكرة الرئاسة، وبايدن ـ كما هو معلوم ـ من غلاة المؤيدين لإسرائيل، وصاحب مشروع تقسيم العراق، وهكذا بدت فرص فوز أوباما واردة، وبأقل أضرار ممكنة للمؤسسة المسيطرة، فهو يبدو ـ بعد التعديل ـ عند خط التوافق الأمريكى العام، وبدا النزاع بينه وبين ماكين أقرب للمفاضلة على أشخاص، وفى هذه المنافسة ـ الشخصية ـ تبدو مزايا أوباما أوفر، فهو الأكثر شبابا، وحملته تبدو حاسمة ضد ميراث بوش الابن، وهو ما يضع ماكين ـ مرشح الحزب الجمهورى ـ فى حرج أكبر، ويجعله حريصا على الابتعاد لمسافة عن شخص بوش الذى يعامل كسياسى أجرب، ويحاول ماكين ـ بصعوبة ـ لفت نظر الشباب والنساء المبهورين بديناميكية ووسامة أوباما، ولذلك لجأ إلى اختيار "سارة بالين " كدمية بيضاء شابة فى موقع النائب على تذكرته الرئاسية، وكأننا بصدد منافسة رباعية، خبرة بايدن تنافس خبرة ماكين، وشباب سارة الباهت ضد شباب أوباما المتألق، وهذه معادلة أخرى انتهت إليها سيرة معركة أوباما، فقد صارت سباقا بين نجوم سينما لا منافسة فى السياسة، وتوحد القلب الأسود ـ ضدنا ـ على اختلاف ألوان الوجوه (!).

٢٠٠٨/٩/٨

حوار آخر.. فشل آخر

20

لا تحتاج إلى كثير من المخاطرة إن توقعت ـ للأسف ـ فشل الحوار الفلسطينى المقرر تتويجه فى القاهرة.

دعك من التصريحات التى تبدو داعية لتفاؤل، والتى تصدر عن قيادات فى فتح أو فى حماس، ومن عينة تصريحات إسماعيل هنية ـ رئيس وزراء غزة ـ فى صلاة العيد، أو تصريحات المقربين من محمود عباس رئيس سلطة الضفة الغربية، وكلها تعبر عن نوايا حسنة فى الاتجاه للحوار، وعن رغبة فى التوصل لاتفاق ومصالحة، وإن بدت تصريحات قادة حماس ـ على أى حال ـ أكثر تحفظا، ومنددة بارتباطات سلطة عباس مع الأمريكيين والإسرائيليين، وربما بخطط شريرة للإطاحة العسكرية بحماس مع موعد نهاية رئاسة عباس .

صحيح أن قيادات فى فتح، ومن نوع أحمد عبد الرحمن أحد مستشارى الرئيس عباس، مالت إلى استبعاد مخاطر صدام قوة جديد، ووصفت الكلام عن خطط الإطاحة بحماس بأنه من اختراع المخابرات الإسرائيلية، وكان عبد الرحمن - فى حوار مع "القدس العربى " - يشير ضمنا إلى تقرير خطير نشرته صحيفة إسرائيلية، وفحواه - دون الدخول فى التفاصيل - أن خططا يجرى إعدادها للإطاحة بحماس بمشاركة إسرائيلية عربية، وأن جهاز الأمن الوقائى فى الضفة يجرى تطويره وتسليحه كجيش محترف، وأن الصلة وثيقة جدا مع القيادة العسكرية الإسرائيلية، وأن الأجهزة الأمنية الإسرائيلية وفرت معلومات قيمة لتسهيل اقتلاع نفوذ حماس فى الضفة، وساعدت فى تزويد سلطة عباس بمعلومات عن أسماء الجمعيات التابعة لحماس، وعن أرقام الحسابات البنكية السرية، وأن سلطة عباس نفذت المطلوب بما يكفى وزيادة،

وأنها نزعت أسنان حماس فى الضفة كتوطئة لنزع حكومتها فى غزة بمعركة كبرى حاسمة .

وبصرف النظر عن مدى دقة التقرير الإسرائيلى، أو عن الهدف الضمنى من وراء نشره، فإن فرص نجاح الحوار تبدو محدودة، وحتى لو جرى الإعلان عن التوصل لاتفاق، فسوف يتعثر الاتفاق فى التنفيذ، وكما جرى مع اتفاق مكة ووثيقة الأسرى ووثائق أخرى سابقة منسوبة كلها للقاهرة، وربما يكون السبب فى توقع الفشل ظاهرا ، فالثقة تكاد تكون معدومة بين عباس وحماس، فوق أن المأزق الفلسطينى الراهن أكبر وأعمق من أن تجدى معه وصفات تعدها رئاسة المخابرات المصرية، بدت الوصفة ظاهرة فى المشاورات التى جرت تباعا مع "فتح" والعديد من الفصائل الوسطى والصغرى، ويجرى

استكمالها مع "حماس"، وتتلخص الوصفة ـ على ما يبدو ـ فى إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية متزامنة بحلول ٩ يناير المقبل، وهو ما يبدو خلاصا شكلانيا من المأزق، فالمعروف أنه بحلول هذا التاريخ تنتهى مدة رئاسة عباس، لكن مدة المجلس التشريعى ليست منتهية، والوصفة تقترح تشكيل حكومة انتقالية إلى التاريخ المرصود، وبطريقة لا تبدو متفقا عليها بالكامل إلى الآن، فالخيارات مفتوحة، وتتراوح بين تشكيل حكومة من فتح وحماس أساسا، أو تشكيل حكومة تكنوقراط بلا هوى سياسى تعد للانتخابات، لكن المشكلة الكبرى تظل فى حكاية الانتخابات نفسها، فحماس لا تبدو مستعدة لانتخابات برلمانية مبكرة، وتخشى أن تفقد أغلبيتها الساحقة فى المجلس التشريعى، وهو ما قد يريده عباس، فهو يأمل أن تأتى الانتخابات بأغلبية معقولة لفتح، وبفوزه بالرئاسة مجددا، أى أن تكتمل "الشرعية" الشكلانية الإجرائية لعباس، فيما تفقد حماس "شرعيتها" المدعومة بزمن إضافى مستحق إجرائيا .

وهذه العقبة وحدها كفيلة بإفشال الوصفة المقترحة، لكنها ـ على أى حال ـ ليست العقبة الوحيدة، فحماس ـ رغم تحفظ التصريحات العلنية ـ لا تشعر أن الوسيط المصرى على مسافة متساوية بين الطرفين المتنازعين، ولديها إحساس ريبة من خطط روجت لها الإدارة المصرية من نوع نشر قوات عربية ـ مصرية أساسا ـ فى غزة، ولديها خشية من استخدام الحوار السياسى كغطاء لتدبير عسكرى قد يكون الإسرائيليون طرفا فيه، ولا يبدو تخوف حماس من فقدان السلطة هو الهاجس الوحيد، فحماس تتخوف أكثر مما يجرى تدبيره عسكريا، ولديها ـ بطبائع الأحوال ـ معلومات ضافية مفصلة، وهى تعرف ـ يقينا ـ أن الفيتو الأمريكى قائم على مبدأ المصالحة بين فتح وحماس، وأن الهدف الذى يجمع سلطة عباس والإسرائيليين والأمريكيين قائم، وهو تصفية

خطر حماس فى غزة بالذات، وفى حوار نشرته "معاريف" مؤخرا مع الجنرال الإسرائيلى يوآنت جلانت ـ قائد الجبهة الجنوبية ـ ما يلفت النظر بشدة، الجنرال مرشح لمنصب نائب رئيس أركان الجيش الإسرائيلى، وطموحه ظاهر لخلافة جابى آشكنازى فى رئاسة الأركان، وفى الحوار مع الجنرال المواجه لحماس على خط النار المحتملة، قالها الجنرال بوضوح: إن حماس تستفيد من التهدئة الحالية، وإن حركة حماس تحولت من تنظيم " إرهابى" إلى جيش حرب عصابات محترف، وإنها تحصل على كميات هائلة من السلاح المتطور، وإنها طورت راجماتها وقدراتها التقنية، وأنها صارت جيشا حقيقيا بتسلسل مركب وتخصصات مهنية، ورغم أن "جلانت" بدا متحفظا فى الحوار، إلا أنه اعتبر خيار اقتحام غزة مما لا يمكن تجنبه، وإن وضع الأمر ـ بالطبع ـ فى عهدة المستوى السياسى، وتقديره أن تكلفة اقتحام غزة أكبر مما كانت عليه قبل عام، لكنها أرخص من تكلفة واردة بعد عام آخر، وتقديره أن جيش حماس قد يصل تعداده المحترف الآن إلى ٢٠ ألف مقاتل، وأن الحرب ستكون مريرة ومكلفة، وهكذا تبدو الصورة بلا رتوش، فموقف حماس يزيد قوة على الأرض، وإسرائيل اضطرت للتفاوض معها عبر الوسيط المصرى، وعندما سئل الجنرال الإسرائيلى عن رأيه فى إمكانية نجاح خطط سلطة عباس لإطاحة حماس عسكريا، بدا الجنرال ميالا إلى التهكم، وقال: إن أفضل جيش يملكه عباس هو الجيش الإسرائيلى فى الضفة الغربية(!)، ومغزى كلام الجنرال الإسرائيلى أن مخاوف حماس لها أساس جدى، وليست فقط مجرد هواجس وأمارات قلق زائد .

ويصعب على حماس ـ فى كل الأحوال ـ أن تتنازل عن مركز قوتها الظاهر فى غزة، فسلطة السياسة فى غزة هى غطاء ضرورى لتنمية القوة العسكرية، بينما تبدو سلطة عباس ـ رغم الدعم الأمريكى والإسرائيلى ـ غاية فى التفكك

والضعف، فقد كاد ينتهى العام الموعود دون اتفاق لإقامة الدولة الفلسطينية وعد به بوش، بل إن بوش - فى لقائه الأخير بعباس - اعتذر عن عدم إمكانية تحقيق وعده، وهو ما يضيف لقوة حماس سياسيا مع قوتها العسكرية، فهى التى نجحت - وليس عباس - فى تفاوض مع الإسرائيليين، وحصلت على اتفاق تهدئة يخفف قليلا من حصار غزة، وهدفها من مواصلة الحوار يبدو ظاهرا، فهى لا تريد قطيعة لا تفيد مع الإدارة المصرية، وتريد من صلاتها بالقاهرة مزيدا من الضغط بالإحراج لفتح معبر رفح، وبصورة دائمة، ولذلك تجد تصريحات إسماعيل هنية والزهار - وغيرهما من قادة حماس - تعطى الأولوية القصوى لفك حصار غزة، وتعد ذلك شرطا ضروريا قبل كل تفاهم آخر، ولدى حماس - بالطبع - أوراق تفاوض أخرى أهمها استمرار احتجازها للجندى الإسرائيلى جلعاد شاليط، أى أن لديها عناصر ضغط تفيدها فى كسب وقت قد لا يطول قبل أن يحدث الانفجار فى يناير المقبل أو بالقرب منه، والانفجار المحتمل وارد الحدوث بين حماس وإسرائيل، وليس بين حماس وعباس ضعيف الحيلة، وإذا حدث الانفجار وجرت وقائع حرب، فربما يضيف ذلك إلى رصيد حماس، ويستعيد صورتها كحركة مقاومة مسلحة، خاصة أن الوضع السياسى الإسرائيلى يبدو غاية فى الاضطراب، وقد ينتهى الاضطراب إلى انتخابات مبكرة تزيد الوضع الإسرائيلى حرجا، وتوقف عملية اقتحام غزة - حين تجرى - فى منتصف الطريق دون إنجاز إسرائيلى ظاهر .

وبالجملة: يبدو الحوار الفلسطينى - مع كل هذه الظروف - مجرد طقس سياسى متكرر، وربما تدرك القاهرة - بالغريزة - هذه الحقيقة، وهو ما يفسر البطء الظاهر فى خطوات الإعداد للحوار، ليس على سبيل التأنى فى طلب النجاح، بل بدواعى الحذر من فشل يرخى سدوله .

٦/١٠/٢٠٠٨

خريف أمريكا

21

الرئيس بوش الابن - بشخصه - علامة نهاية للقرن الأمريكى الزاحف إلى خريفه .

وربما لا تكون مصادفة أن عهد بوش الابن بدأ بعواصف سبتمبر ٢٠٠١، وينتهى بزلازل مالية واقتصادية لم يسبق لأمريكا أن شهدتها منذ أيام الكساد العظيم، وفيما بدت حوادث سبتمبر كتحطيم رمزى لهاية أمريكا، فقد بدت تفاعلات أزمة الائتمان كأنها علامة نهاية لمكانة أمريكا الفعلية لا الرمزية .

فقبل حوالى قرن من الزمان، كانت أمريكا تخرج من غرب الكرة الأرضية، وتتطلع لدور فى العالم القديم الواسع، والذى كان وقتها مسرحا لهيمنة أوروبية بريطانية وفرنسية بالذات، وكان الرئيس تيودور ويلسون بوصاياه عن حق تقرير المصير - بعد الحرب الأوروبية الأولى - أول عنوان دولى لأمريكا، ثم جاءت وقائع الحرب العالمية الثانية، ونجدة أمريكا لأوروبا المنهارة أمام زحف النازى، وحسم أمريكا للمعركة مع اليابان بالقنابل الذرية، جاءت هذه التطورات لتضع أمريكا فى قلب العالم، وبقوة اكتساح زلزالية، فقد كان لأمريكا - وقتها - نصف ثروة العالم، وكانت وحدها تملك سلاح الرعب الذرى، وإن لم تكن الساحة خالية من منافسة ضارية مع القطب السوفييتى الطالع وقتها بنتائج الحرب مع ألمانيا النازية، وقبل عقد واحد من نهاية القرن العشرين، كانت أمريكا تبدو كما لو أنها أنهت الحرب الباردة مع موسكو

بالضربة القاضية، وصارت سيدة العالم بلا منازع، وسرت توقعات عن ديمومة القرن الأمريكى لقرن آخر، وزحف عهد السيطرة الأمريكية المطلقة إلى فضاء القرن الحادى والعشرين، وفى الطريق إلى القمة كان الدولار الأمريكى يفرض سطوته باتفاقات "بريتون وودز"، ويحل الدولار الأخضر محل الذهب الأصفر.

وربما كان وهم القوة المطلقة هو ما دفع بوش الابن إلى ما فعل، فقد وقع الرجل أسيرا لأوهامه الدينية، ثم أنه وقع أسيرا لمحدودية ذكائه الشخصى، فلم يلحظ أن الصعود الأمريكى انطوى فى الوقت نفسه على عناصر فنائه، فقد ورث بوش الابن دولة عظيمة لكنها منهكة، وكانت علامات الإنهاك بادية منذ عهد ريجان الأول بداية الثمانينيات، فقد سرت وزادت عناصر الضعف فى بنية الاقتصاد الأمريكى، زاد دور اقتصاد الخدمات على حساب اقتصاد الإنتاج، ثم زحف اقتصاد المضاربة إلى مقدمة المسرح، وتوسع العجز فى

الميزان التجارى، وتراكمت الديون الداخلية، وتحسن الوضع قليلا فى سنوات كلينتون الثمانى، لكن ضعف الاقتصاد عاد بشدة فى عهد بوش الابن، كان خلل الموازين التجارية ظاهرا مع اليابان فى الثمانينيات أيام ريجان، لكن خلل الميزان التجارى فى أيام بوش شمل - إلى جوار اليابان - قوة الصين الكاسحة المقتحمة للأسواق فى العقود الأخيرة، واقترب العجز بديونه من حاجز التسعمائة مليار دولار، وهو ما يعكس ضعف الاقتصاد العينى أو الاقتصاد الإنتاجى، وبالمقابل كان الرواج الأمريكى الظاهر أشبه بفقاعة هائلة، فقد ظل الدولار الأمريكى يطبع بإفراط دون غطاء إنتاجى، واعتمادا على التعامل معه كسلعة لا كمقابل لسلعة، وأصبحت سياسة الإقراض فى حالة فوضى، وجرى خفض سعر الفائدة إلى أدنى حد، وجرت مبالغات مفزعة فى تقويم أصول، وانتفخت دخول المدراء التنفيذيين فى البنوك وشركات التأمين والسمسرة الكبرى، ووصلت الديون المعدومة إلى حد تريليونى دولار، ولن يكون ضخ ٧٠٠ مليار دولار - بحسب خطة بوش الأخيرة - حلا ينقذ أو يجدى، فقلاع المال الأمريكى الكبرى تهوى كأوراق الخريف، وركود الاقتصاد يبدو بلا آخر .

والخلاصة : أن أمريكا لم تعد مثالا يحتذى فى الاقتصاد، ثم أن قوتها الاقتصادية الكلية تتراجع فى موازين الدنيا، فلم تعد تملك سوى ربع ثروة العالم بعد أن كان لها النصف قبل عقود، وصعدت قوى اقتصاد ونماذج أخرى على خرائط العالم، ففى الوقت الذى روجت فيه أمريكا لسياسة خصخصة كل شئ، وجعلتها كعقائد الأديان، وهاهى تضطر الآن إلى انتهاج سياسة تدخل الدولة، بل وتلجأ إلى التأميم، وهو ما يضيف قوة رمزية هائلة لنموذج الاقتصاد الصينى بالمقابل، وهو الاقتصاد الأعظم نموا فى العقود الأخيرة بالذات، ويجمع أكبر قطاع عام فى العالم إلى أكبر قطاع

الاستثمارات الأجنبية في الوقت نفسه، وفى المباراة التى جرت سجالا، أثبت النموذج الصينى أنه الأقدر بامتياز، وخصما من حساب واعتبار النموذج الأمريكى، فقد انتهت الحوادث إلى ما يشبه إشهار لإفلاس النموذج الأمريكى، بينما بدت اقتصادات أوروبا ـ المختلفة بالذات عن النموذج الأمريكى ـ أعظم مقدرة على التكيف مع توابع الأزمة المالية، وخفض آثارها إلى أدنى حد، وكما جرى فى ألمانيا بالذات، وحتى فى روسيا برأسماليتها الممزوجة بتدخل الدولة القوى، وربما كان ذلك هو ما دفع الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى إلى القول مؤخرا "إن العالم صار بلا معلم"، وهو ما يعنى أن أمريكا فقدت كرسى الأستاذية حتى لدى حلفائها التقليديين.

وقبل أكثر من ثلاثة عقود، كان المؤرخ الأمريكى الشهير بول كينيدى يحذر من المصير الأسود، كان يلحظ ضعف اقتصاد أمريكا مقابل توحش قوتها العسكرية، وكان يشرح طريقة أمريكا فى كسب رزقها، وهى الاعتماد على فوائض عضلاتها العسكرية لتعويض ضعف مواردها الإنتاجية، وقد زادت شهوة أمريكا ـ مع بوش الابن بالذات ـ إلى خوض حروب سيطرة بقوة السلاح، لكن المصير البائس كان فى انتظارها أيضا، فقد دفعت أمريكا فى حربى العراق وأفغانستان بأكثر مما أخذت، دفعت أمريكا فى الحربين ـ إلى الآن ـ ما يقرب التريليون دولار، ولا تزال تدفع، ولا يبدو أنها قادرة على الخروج من المستنقع، ولا على وقف نزيف الدم والمال، وهو ما يعنى أن دافع الضرائب الأمريكى هو الخاسر فى النهاية، وحتى لو تضخمت موارد شركات البترول والسلاح وأسواق المال، فقد أصبح كل مواطن أمريكى مدينا ـ فى المتوسط ـ بسبعة عشر ألف دولار، وهو ما يجعل من فكرة الحلم الأمريكى موضوعا للسخرية لا للجاذبية السحرية، فأن تصبح أمريكيا الآن يعنى أن تصبح مدينا، وربما لا يدفع لك أحد غير أمراء النفط المشمولين برعاية

السلاح الأمريكى فى الخليج، فقد تعود هؤلاء على تصدير فوائض المال لبنوك أمريكا والغرب، وبتريليونات الدولارات، وكانوا الأكثر تأثرا بالانهيار الأمريكى الأخير، وبدت بورصة السعودية بالذات كأنها ترقص على مؤشر "داو جونز " فى بورصة وول ستريت(!).

إذن، فنحن بصدد ضعف مزدوج، ضعف للاقتصاد، وضعف لأثر السلاح الأمريكى، فيما تبدو مسارح العالم مفتوحة للاعبين آخرين، فقد ينجح اقتصاد الصين أن يلحق باقتصاد أمريكا مع نهاية العقد الثانى من القرن الجارى، وليس فى نهاية العقد الخامس كما كان متوقعا قبل سنين، ويمقدور النفوذ الروسى - بفوائض الردع النووى - أن يتوسع جنوبا وشرقا وغربا، وعلى حساب الانحسار الأمريكى حتى فى أمريكا اللاتينية التى كانت حديقة خلفية كلاسيكية للبيت الأبيض، فقد أصبحت أمريكا فى محنة اقتصاد، وفى محنة سلاح، فلا هى قادرة على الانتصار فى حرب، ولا هى قادرة على . استعادة بريق بدا أنه صار حكرا لها عقب انهيارات موسكو الشيوعيه أوائل تسعينيات القرن العشرين، فقد بدت أمريكا وقتها كأنها القوة المرهوبة والمرغوبة فى الآن نفسه، بدا أنها الفتوة وملكة الجمال فى آن، بدا أنها "نهاية التاريخ " بحسب خرافات فوكوياما وقتها، بدت كأنها الغاية النهائية المطلقة لسيرة تطور الأمم، فيما تبدو أمريكا الآن وكأنها أصيبت بداء الجرب، الذى يقترب منها يخسر فى البورصة .. وفى التاريخ أيضا (!).

٢٠٠٨/١٠/١٣

عن أمريكا وعربها فى العراق

22

ربما هى مصادفة ذات مغزى أن ما يسمى "الاتفاقية الأمنية " سارت فى خط متواز مع عودة سفراء دول عربية والجامعة العربية ذاتها فى بغداد .

وربما ليس فى الأمر مصادفة من أصله، فالفاعل واحد فى الحالين، وكما أن أمريكا لا تفاوض أحدا فى العراق، إلا على سبيل الإيحاء بوجود طرف آخر ليس أكثر من "حكومة دمى"، وهو السيناريو ذاته الذى جرى فى إعادة السفراء العرب، فقد أمرت أمريكا، وأمرت كونداليزا رايس بالتحديد، وفى اجتماع جرى منذ فترة مع وزراء خارجية دول ما يعرف بمحور الاعتدال، وجرى تنفيذ الأمر بالدقة والهمة اللازمتين، وبترتيبات أمنية متفق عليها، وانتهى السفراء العرب إلى الجوار الأمريكى فى المنطقة الخضراء .

والإجراءان الأمريكيان (الاتفاقية وعودة السفراء) لهما هدف واحد ظاهر، وهو "شرعنة " احتلال أمريكى طويل المدى فى العراق، فالمعروف أن تفويض مجلس الأمن لبقاء القوات الأمريكية ينتهى بنهاية ديسمبر ٢٠٠٨، وقد جرى التفويض ذاته تحت ضغط أمريكى جارف، وهو ما يتكرر الآن مع حكومة الدمى فى بغداد، ومع الحكام الدمى فى عواصم عربية خاضعة للسلطان الأمريكى، والهدف : تسليم الضحية ذاتها بالجريمة، وتسهيل الحصول على "شرعية عربية" ـ ولو بطريق الاغتصاب ـ تدعم الاحتلال الأمريكى، وتجعله فى حكم العادة والفرض والسنة، وبغطاء كاذب للتمويه هو محاربة الدور الإيرانى فى العراق .

وفى داخل العراق، لا تبدو الاتفاقية الأمنية ـ المقرر توقيعها ـ عنصر تغيير فى الصورة، فالاحتجاجات ضدها تشمل عرب العراق شيعة وسنة، المرجع الدينى

كاظم الحائرى أعلن رفض الاتفاقية، وكذا فعل المرجع الدينى حسين فضل الله، والتيار الصدرى ـ أوسع جماعات الشيعة شعبية ـ يرفض اتفاقية تأبيد الاحتلال، وبالطبع رفضتها فصائل المقاومة العراقية المسلحة، وكان موقف جبهة علماء المسلمين بالعراق قاطعا وسباقا، وأصدرت أول فتوى تحريم ضد الاتفاقية، فالجبهة ـ السنية بتكوينها الغالب ـ لها موقف مضئ عظيم الوعى، فبرغم قلقها وإدراكها لخطورة توحش الدور الإيرانى داخل العراق، إلا أنها تقدم أولوية مقاومة وإزالة الاحتلال الأمريكى على ماعداه، ولرمزها البارز الشيخ حارث الضارى تشبيه عراقى يلخص الموقف برمته، فقد قال مرة : إن الاحتلال الأمريكى يشبه نخلة حطت عليها أطيار سود، وأن النفوذ الإيرانى مجرد طير حط على رأس النخلة، وأن قطع نخلة الاحتلال وخلعها من جذورها سوف يعنى استعادة إرادة العراقيين الحرة، وذهاب طائر النفوذ الإيرانى إلى ما وراء الحدود .

وفى المحيط العربى، تبدو الصورة أوضح، فعودة السفراء العرب لا علاقة لها بمقاومة نفوذ إيرانى، ولا باستعادة وتحصين العروبة فى العراق، فالعواصم التى أرسلت سفراءها إلى بغداد تنقصها العروبة بالذات، فلا أولوية عندها لالتزام عربى الطابع، وسفراؤها إلى بغداد فى الموضع ذاته الذى بدأت وانتهت إليه حكومة الدمى، فالكل يسكن فى المنطقة الخضراء، وحيث الحماية الأمريكية الجاهزة، وما من فرصة لانتقال أو حوار مع تيارات وفصائل الرفض والمقاومة العراقية، والكل في وضع "كردى " تماما، أى فى وضع الاحتماء بالاحتلال تماما كوضع فصائل الكرد المتحكمة، وكوضع رئاسة العراق - العربى - التى انتهت إلى كردى، ووضع وزارة خارجية العراق - العربى - التى انتهت إلى كردى، وكأن المقصود هو "تكريد " العراق تحت الحماية الأمريكية، ثم تكريس اعتراف عربى رسمى بكردية العراق، وقد كان الكرد - فيما مضى - يطلبون حق تقرير المصير، وانتهت القصة - مع الاحتلال الأمريكى - إلى عراق يتقرر مصيره على أيدى الكرد، وإلى جعل عرب العراق، وهم الغالب الساحق لأهله، مجرد أقلية سياسية، ويحق لهم - بنص دستور الاحتلال - ادعاء الانتساب للأمة العربية (!).

وعودة السفراء العرب - بالضغط الأمريكى - تضيف المساخر إلى المساخر، وربما يكون الحرص على افتتاح مكتب للجامعة العربية ذاتها فى بغداد مما يضيف لصورة المساخر، فمكاتب الجامعة تفتتح فى العادة فى عواصم أجنبية، وفتح مكتب للجامعة فى بغداد قد ينفى عنها صفة العاصمة العربية، والتسليم بوضع " أجنبى" - غير عربى - لبغداد وللعراق، وهو ما يتوافق مع نصوص دستور الاحتلال الأمريكى، والذى لا يتحدث بحرف عن عروبة العراق، وكما جرى اتفاق العرف عليه فى دساتير الدول العربية، بل يقول - فقط - إن العراق عضو فى منظمة دولية اسمها الجامعة العربية، وتماما كما هو عضو فى منظمات دولية أخرى كالمؤتمر الإسلامى والأمم المتحدة، وينكر على البلد أية

هوية أو انتماء يخصه عدا جغرافيا اسمها العراق، وهكذا صودرت عروبة العراق رسميا، بينما صار للكرد دولتان، دولة فى الشمال برئاسة مسعود البارزانى، ودولة فى بغداد برئاسة جلال الطالبانى، وعودة السفراء العرب دون اشتراط تعديل الوضع، ودون اشتراط حكم عربى فى بغداد على الأقل، والذهاب دون اشتراط يعنى التسليم باشتراطات الاحتلال وشروط الكرد من خدم الاحتلال (!).

ثم أن هذه العواصم التى أرسلت سفراءها إلى بغداد، وربما باستثناء دمشق، هى ذات العواصم التى لعبت دورا مقدرا فى دعم المجهود الحربى الأمريكى لاحتلال العراق، فلم يكن لبغداد أن تسقط بالسلاح لولا أن سقطت القاهرة بالسياسة قبلها بربع قرن، ولم يكن ممكنا أن تحتل أمريكا العراق بهجمات من السماء، بل ذهبت أمريكا للعراق على خط سير عربى ممتد من قناة السويس إلى الكويت، خط سير تنتشر وتتكاثر عليه القواعد الأمريكية كالفطر السام، وكانت الأدوار موزعة بعناية، جرى السماح لهذه العواصم بأحاديث باهتة عن الرغبة فى تجنب الغزو، ومقابل أن تؤدى أدوارها فى الحرب طبقا للخطط الموضوعة، وأن تفتح مياهها وأراضيها وأجواءها لعبور طائرات وسفن وقوات الحرب، ويكفى أن أكبر دولة عربية - وهى مصر - قد فتحت أجواءها لعبور مقاتلات أمريكية ذاهبة بالدمار لأفغانستان والعراق، ليس مرة واحدة ولا مرتين ولا عشر مرات، بل لأكثر من ٣٦ ألف مرة بين عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٥ بحسب وثيقة لمكتب المحاسبات الأمريكى، أضف إلى ذلك أن عواصم السفراء العائدين لبغداد - بما فيها دمشق - شاركت تحت القيادة الأمريكية فى حرب الخليج الثانية ضد العراق .

فهل يتوقع أحد خيرا من عواصم شاركت - بالعمد - فى جريمة احتلال بلد عربى ؟، لا يصح ذلك - بالطبع - فى منطق العقل، فهى لا ترسل سفراءها الآن إلى بغداد فى عمل دبلوماسى، بل تشارك فى دعم عمل حربى عدوانى،

إلى بغداد فى عمل دبلوماسى، بل تشارك فى دعم عمل حربى عدوانى، وتضفى رداء من "شرعية" على تأبيد احتلال العراق بالاتفاق الأمنى أو بغيره، وليس لهدف إلا لكسب الرضا الأمريكى، وكسب مودة إسرائيل النشيطة فى العراق، وفى المنطقة الكردية بالذات، فقد أصبح الأقرب مودة لإسرائيل هو صاحب القربى فى هذه العواصم ذاتها، وسواء كان من عينة العملاء الكرد، أو من عينة سمير جعجع ـ رجل شارون اللبنانى ـ الذى جرى له استقبال الفاتحين فى القاهرة أخيرا .

وبالجملة، تبدو الصورة واضحة بغير الرتوش، فجيش احتلال العراق يضم ـ إلى القوات الأمريكية ـ حكومة الدمى وسفراء العرب وعملاء الكرد، وهؤلاء هم مجرد تلاوين فى صورة احتلال العراق ونفى عروبته، بينما عروبة العراق تسكن فى عنوان آخر، تسكن فى مقار قيادة فصائل المعارضة والمقاومة السياسية والعسكرية، فالمقاومة المسلحة هى الممثل الشرعى الوحيد للعراق ولعروبته .

٢٧/١٠/٢٠٠٨

عن القضاء والقدر و"أم الفرائض"

23

بالطبع، لا يتوقع أحد أن ينفذ نظام مبارك حكم القضاء المصرى الجليل بوقف تصدير الغاز الطبيعى لإسرائيل، كما لا يتوقع أحد أن ينفذ النظام نفسه حكما للقضاء - صدر قبلها بأيام - يؤكد حق المصريين الدستورى فى السفر والتنقل وكسر حصار غزة، وكانت قوى الوطنية المصرية - من كفاية وأخواتها ولجنة فك الحصار - قد أقامت دعويين بالخصوص أمام القضاء الإدارى، وأحكام الأخير واجبة النفاذ دون توقف عند أية طعون أو استشكالات قانونية .

وسـبب امـتناع النظام عن تنفـيـذ الأحكام ظاهر بلا مـواربة، فليس لدى النظام غير الشرعى القائم أدنى احترام لأحكام القضاء، وهو النظام الذى سعى لعقود إلى تخريب السلطة القضائية، وفرض تغول السلطة التنفيذية عليها، وإن ظلت عناصر المقاومة تدافع عن استقلال القضاء وحصانته، وتصدر أحكاما نزيهة تتحدى الظلم والعنت، وقد تعود النظام على رمى أحكام القضاء التى لا تعجبه فى أقرب سلة مهملات، وخصوصا فيما يتعلق بتزويره المنهجى المنتظم للانتخابات، وتزيد شراسة النظام وإهداره لأحكام القضاء إذا تعلق الأمر بإسرائيل أو بالإسرائيليين، وعلى طريقة إهدار حكم القضاء بوقف مولد أبوحصيرة، والذى يقيمه الإسرائيليون كل عام فى قرية "دمتيوه" بمحافظة البحيرة بالدلتا المصرية، فكيان الاغتصاب الإسرائيلى هو القضاء

والقدر بالنسبة للنظام، وطاعة إسرائيل عنده أوجب من طاعة أحكام القضاء، والسبب مفهوم، فنحن بصدد نظام بلا قواعد سياسية ولا اجتماعية شعبية، بصدد نظام معلق لا يربطه بالواقع المصرى سوى جهاز أمنى متضخم، وبصدد حكم يعتمد على الرعاية الأمريكية ـ الإسرائيلية، وأفضل أمانيه أن يكسب رضا أمريكا بكسب محبة إسرائيل(!).

وقد بدت القاعدة سارية فى كل الأحوال، ألا وهى أولوية إسرائيل حتى لو تعارضت مع أحكام القضاء، فكسر حصار غزة ليس من مصلحة إسرائيل بالطبع، بل هو عمل يندرج فى إطار مقاومة إسرائيل، ولا يعقل أن يرتكب نظام موبوء ـ مثل نظام مبارك ـ خطيئة المقاومة، وهو ـ أى النظام ـ لا يتوقف فقط عند حد الامتناع عن المقاومة، بل يجند قواته الأمنية لحصار واعتقال

الوطنيين المصريين الراغبين فى المقاومة حتى السلمية منها، وقد منع مسيرتين لفك حصار غزة، أوقف الأولى بالحصار الأمنى عند بوابة مدينة الإسماعيلية، وقبل أن تصل القوافل إلى خط قناة السويس وبوابات سيناء، ولجأ مع المسيرة الثانية إلى المنع من المنبع، وحاصر المشاركين من قضاة وأساتذة جامعات ونشطاء فى قلب القاهرة، وحتى قبل أن تبدأ سيارات القافلة الإغاثية فى التحرك، وجرى اعتقال وخطف العشرات، ورميهم فى معسكرات قوات الأمن المركزى، وهكذا بدا النظام وفيا لإسرائيل بأكثر من إسرائيل نفسها، فقد استحت إسرائيل أن تمنع بواخر النشطاء الأوروبيين من الرسو فى ميناء غزة، ولم يستح النظام المصرى وهو يمنع النشطاء المصريين من التحرك بحرية فى بلادهم، والوصول إلى خط الحدود عند معبر رفح، وإعلان مساندتهم للشعب الفلسطينى .

وفى قضية تصدير الغاز يبدو النظام أكثر شراسة، وقد حاول النظام أن يعرقل صدور حكم المحكمة، وادعى أن تصدير الغاز لإسرائيل مسألة سيادية، ولا دخل للقضاء ولا ولاية له عليها، وهو الدفع البائس الذى رفضته محكمة القضاء الإدارى، وأمرت بوقف تصدير الغاز، بل وأشارت إلى تصرفات وصفتها بـ "المريبة" فى قصة تصدير الغاز، والذى لم تعرض اتفاقيته على البرلمان، وبدعوى أن بها "بنودا سرية" لا يستطيع النظام إعلانها، وهو ما سخر منه نواب المعارضة بمجلس الشعب فى حينه، واعتبروه خرقا لأبسط مبادئ الدستور، وكلاما لا يصح أن يقال فى برلمان، ولا حتى فى قهوة بلدى أو "غرزة حشيش "، وصمت النظام المجلل بالعار وقتها، فهو يعرف أن قضية تصدير الغاز لإسرائيل ليست مما يمكن الدفاع عنه بأية وسيلة، فهى تخلو من طابع اقتصادى أو زيادة موارد، وقد جرى تصدير الغاز لإسرائيل بأقل من عشر قيمته فى السوق العالمى، ثم أنها عمل غير مشروع من وجهة النظر

المصرية الوطنية العامة، بل خطيئة وخيانة يرتكبها تشكيل عصابى فى صورة نظام سياسى، ويعهد بها - من الباطن - إلى حسين سالم الملياردير المقرب من عائلة مبارك، والمقيم غالبا فى شرم الشيخ حيث يقيم مبارك أغلب الوقت، والذى يستضيف مبارك فى قصوره وفنادقه، واقتطعت له شرم الشيخ كمقاولة من الباطن، ولا يستطيع أحد التصرف فى متر أرض من شرم الشيخ بدون موافقة حسين سالم، وأنشأوا له شركة "شرق المتوسط" كغطاء "مريب" - بوصف المحكمة - لجريمة تصدير الغاز لإسرائيل.

واحتقار النظام لأحكام القضاء لو تعلقت بإسرائيل بالذات، لا يعنى أن الأحكام صارت بلا معنى، أو أن حبرها جف على الورق، بالعكس، فإن هذه الأحكام الجليلة تضيف إلى قوة المعارضة السياسية الجذرية، وتجعلها فى موقع أفضل لدى مخاطبة الرأى العام، وتسند جهود تحشيد القوى، فالقضاء العادل - على ندرته - يعنى استظهار الحق الذى لا مراء فيه، والقاضى العادل هو كلمة الرب، وأحكام القضاة العادلين تضيف الكثير لحركة الوطنية المصرية، فهى تؤكد صواب مبادئها ومواقفها، وتعطيها حصانة وختم القضاء، وهى - أى الأحكام الجليلة - تعرى النظام، وتزيل أقنعته المراوغة، وتكشف حقيقته السافرة كعميل مباشر للاستعمار الأمريكى - الإسرائيلى، وتوفر إمكانية - مضافة - لشرح الطبيعة المركبة للمأساة المصرية، فمأساة مصر ليست فقط فى الاستبداد السياسى، ولا فى الانحطاط التاريخى والتأخر الاقتصادى والاجتماعى، بل مأساة مصر - أيضا - فى أنها بلد فقد استقلاله الوطنى، ويخضع للهيمنة الأمريكية - الإسرائيلية المباشرة، ومنذ عقد ما يسمى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الشهيرة بكامب ديفيد، وإلحاقها بضغوط وقيود المعونة الأمريكية الضامنة، ومظاهر فقدان السيادة والاستقلال الوطنى تبدو ظاهرة، فأغلب سيناء منزوع السلاح، وأغلب قرارات السياسة

والاقتصاد منزوع السيادة، والسفارة الأمريكية بالقاهرة تحولت إلى ما يشبه دار المندوب السامى البريطانى زمن الاحتلال القديم، والنظام الجمهورى تحول إلى حكم عائلى يشبه حكم الملك فاروق، وتلازم التبعية والفساد صار عنوانا لقصر العائلة المباركية، والنظام تحول إلى وضع "دفع الجزية" لإسرائيل طلبا للرضا السامى، وهو ما يفسر كيف أن اتفاقات النظام الاقتصادية مع إسرائيل تخلو كلها من أى طابع أو مبرر اقتصادى، فتصدير البترول المصرى لإسرائيل يجرى بأقل الأسعار، واتفاق "الكويز" دمر صناعة النسيج المصرية، وتصدير الغاز لإسرائيل يتم بالمجان تقريبا، وبهدف ضمان الرضا الإسرائيلى على حكم مبارك وعائلته ومليارديراتها .

وهذه الصورة تضع حكم القضاء الجليل بوقف تصدير الغاز فى محله تماما، صحيح أنه يسند حركة الوطنية المصرية ويدعمها لكنه - بالطبع - ليس غاية المراد، ولا هو الحل المشفوع بالنفاذ المعجل، ولا يمكن أن يكون كذلك، فالحل - فى البدء والمنتهى - سياسى لاقضائى، والمطلوب : دمج قضية مصر الوطنية فى صلب مطالب التغيير السياسى، فلا إمكانية لكسب شئ بالقطعة فى مصر الآن، لا إمكانية لكسب الحرية مع بقاء نظام مبارك وعائلته، ولا إمكانية لكسب الاستقلال الوطنى بدون إزاحة النظام القاتل العميل، فقد انضم نظام مبارك - بوعى المصلحة - إلى صف الاستعمار الأمريكى الإسرائيلى، وجعل مصلحته من مصلحة إسرائيل تماما، بل ويدافع بعنف عن أمن إسرائيل واحتلالها وحصارها للفلسطينيين بأكثر من إسرائيل نفسها، وإذا كانت مقاومة إسرائيل فريضة دينية ووطنية، فإن مقاومة نظام مبارك وتغييره هى "أم الفرائض".

دعوة لانقلاب فلسطينى

24

لم يكن فشل حوار القاهرة الفلسطينى مفاجأة لأحد، وقد توقعنا الفشل للحوار قبل أن يبدأ فى مقال بعنوان "حوار آخر .. فشل آخر" نشر منذ فترة، وكانت أسباب الفشل ظاهرة، فالوسيط المصرى لا يبدو محايدا بين فتح وحماس، وحدود حركته محكومة بالضغوط الأمريكية والإسرائيلية، والصيغ التى طرحها لحل نزاع فتح وحماس تبدو محابية للرئيس عباس .

وبالطبع، قد لا يصح إغفال أدوار إقليمية مناهضة أو منافسة لدور القاهرة، فإيران تدعم حركتى الجهاد وحماس، ولا تستريح لسلطة الرئيس عباس، وقطر تريد تكرار دور العلاقات العامة الذى لعبته سابقا فى أزمة لبنان، بينما تعتبر القاهرة أن الملف الفلسطينى من خصوصياتها الأمنية، وأن علاقاتها المفتوحة مع تل أبيب تكفل لها دورا خاصا، وربما تكون ميزات القاهرة المفترضة هى نفسها صلب المأزق، فالقاهرة ـ لاعتبارات أزمتها الداخلية ـ تريد الخلاص من حكم حماس فى غزة عند الحدود، لكنها لا تستطيع الدخول ـ باعتبارات المأزق الداخلى أيضا ـ فى حرب مفتوحة مع حماس، والقاهرة تنحاز لشرعية عباس وتتنكر لشرعية حماس، رغم أن شرعية عباس دخلت أو تكاد إلى نفق الأفول، فشرعية عباس المفترضة تنتهى بنهاية مدته أوائل العام المقبل، بينما تمتد شرعية حماس المفترضة لمدى زمنى

أطول، وفكرة إجراء انتخابات رئاسية وتشريعية متزامنة تنطوى على ضرر ظاهر لسلطة حماس وفائدة محققة لفريق عباس .

إنها ـ إذن ـ أزمة دور وأزمة صيغ، وربما تكون أزمة انسداد للصيغة الفلسطينية الراهنة كلها، والتى انتهت ـ واقعيا ـ إلى حكومتين، واحدة فى غزة والثانية فى رام الله، تتبادلان الاعتقالات وخطابات القطيعة، وتدخلان فى نزاع متصل قد يقبل التهدئة أحيانا، لكنه ليس مرشحا لحل نهائى من داخل صيغة أوسلو، ففى الوضع الراهن يستحيل إجراء أى انتخابات يطمئن إليها، فلدى حماس سلطة الفيتو على إجراء انتخابات فى غزة، وإجراء انتخابات فى الضفة ـ دون غزة ـ لا يقود سوى إلى تكرار صيغة الحكومتين .وربما الرئيسين(!).

ورغم إعلان القاهرة ـ المكتوم ـ عن تحميل متشددى حماس مسئولية فشل الحوار المؤجل إلى المدى غير المسمى، فإن موقف حماس ـ على أى حال ـ يبدو

مفهوم الدواعى، فحماس تريد الإفراج عن المعتقلين قبل بدء الحوار، وتلك خطوة تهيئة ضرورية، وحماس لا توافق على صيغة "المقاومة فى إطار التوافق الوطنى " الواردة فى الورقة المصرية للحوار، فالتسليم بهذه الصيغة قد يعنى شل مبادرة حماس العسكرية، بينما المخاطر تهدد كيانها فى كل اتجاه، فرجال جناحها العسكرى يجرى اعتقالهم بالمئات فى الضفة الغربية من قبل بوليس عباس، وفى إطار توافق يومى مع سلطة الاحتلال الإسرائيلى، ثم أن خنق إسرائيل لقطاع غزة لا يتوقف، فالمعابر تغلق أغلب الوقت، والضغط بخفض شحنات الوقود سياسة سارية، وهجمات الإسرائيليين على مقاومى حماس تتوالى، وبدعوى منع حماس من حفر أنفاق جديدة، والتخطيط لخطف جنود إسرائيليين جدد يضافون لحالة جلعاد شاليط الأسير لدى حماس، ومساعى إسرائيل للبحث عن شاليط، وإطلاق سراحه بالقوة لا تتوقف، وثمة مشكلة حقيقية لدى إسرائيل بالخصوص، وهى نقص المعلومات أو ربما انعدامها عن مكان احتجاز شاليط، رغم أن غزة رقعة جغرافيا صغيرة، ومكشوفة التضاريس، وهو ما دفع جهاز "الشاباك " الإسرائيلى إلى إطلاق حملة رسائل موبايل موجهة للفلسطينيين، وتعد بعشرة آلاف دولار لأى فلسطينى يزودها بمعلومات عن شاليط، هذا فوق مساومة المرضى الفلسطينيين - عند معبر إيريز - على العمل لدى المخابرات الإسرائيلية، أو تركهم نهبا للموت والمرض دون علاج، وقد تحدثت المصادر الإسرائيلية نفسها عن مواطن فلسطينى - مصاب بالسرطان - رفض التخابر مع إسرائيل، وأعيد إلى غزة على أمل كسب فرصة علاج فى مستشفى فلسطين بالقاهرة، لكنه لم يتمكن من الذهاب للقاهرة بسبب إغلاق معبر رفح أغلب الوقت، وانتهى إلى الموت بحصار الأعداء الإسرائيليين والإخوة المصريين معا(!)، وفوق هذا كله تعيش غزة فى أجواء ترقب "حرب حتمية" مع حماس يهدد بها رئيس الوزراء الإسرائيلى ووزير دفاعه.

وهكذا، يبدو مشهد غزة المحاصر، وتبدو أولوياته، فلجوء إسرائيل إلى

رسائل الموبايل لتجنيد عملاء يعكس طبيعة مأزقها، فصرامة سلطة حماس حرمت إسرائيل من عملاء كانوا متاحين لها أكثر فى غزة، وورقة الجندى شاليط من أهم عناصر الضغط التى تملكها حماس، وقد تتفجر أوضاع غزة فى أى وقت رغم الميل المتبادل لمد شهور التهدئة الهشة، وهكذا تبدو حماس فى احتياج إلى حوار بأولويات تصوغها، ولا تريد تقييد يدها بالتزامات من نوع " المقاومة فى إطار التوافق الوطنى "، وهى عبارة تشبه مثيلاتها فى المداولات اللبنانية، والتى تريد تقييد سلاح حزب الله، تماما كما قد تعتبر حماس أنه يراد تقييد سلاحها، وهو وسيلتها الأبرز للدفاع عن كيانها ذاته .

مصدر الفشل ـ إذن ـ أن حماس لا تثق بعباس، ولا تثق فى حياد القاهرة، وتتخوف من مخططات عباسية ـ عربية ـ إسرائيلية مشتركة للإطاحة بها عسكريا، إن فشلت سياسة الحوار، وهو ما يجعل من قضية الحوار ـ فى وجدان الحماسيين ـ مرادفة لمعنى التنازل، فقد انتهت حماس إلى وضع يخلط ـ ربما يطابق ـ "الكيانية الحماسية" بالكيانية الفلسطينية، وهذه نتيجة طبيعية مؤسفة لانزلاق حماس إلى مشاركة فعلية فى خطيئة أوسلو، فقد تصورت أن فوزها الانتخابى كفيل بهدم صيغة أوسلو ومحوها، والانقلاب عليها، ولم تكن النتيجة غير الوقوع فى البين بين، فلا هى انقلبت على أوسلو، ولا هى انفكت من أسرها، لا هى راغبة فى ترك سلاح المقاومة، ولا هى قادرة على ترك إغواء التهدئة مع إسرائيل(!).

نحن ـ إذن ـ بصدد شلل فى صيغة لا مجرد شلل فى حوار، بل ربما لا تكون من فرصة لحوار حقيقى بغير هجر صيغة أوسلو وتضاعيفها، وقد لا يملك عباس فرصة المبادرة، فقد ارتبط اسمه بصيغة أوسلو، وهو رئيس سلطة فى ارتباط عضوى مع سلطة الاحتلال الإسرائيلى بالضفة والقدس، ولا يملك حل سلطته لأنه يكتب بذلك نهاية تاريخه، بينما تملك حماس ـ ولو نظريا ـ فرصة المبادرة بحل سلطتها فى غزة حيث جلت إسرائيل عن الأرض، وتملك

حماس -رصة المبادرة إلى تشكيل حكومة ائتلاف فلسطينى جامع فى غزة، تضم كل فصائل السياسة والمقاومة المستعدة، وتعلن إنهاء الارتباط بالتزامات أوسلو كلها، وتلزم أطرافها بالدفاع المسلح عن التراب المحرر فى غزة، واستكمال السيادة عليها، والشروع فى "انتفاضة ثالثة" بالضفة والقدس، والدعوة إلى مؤتمر شامل للفلسطينيين فى الوطن والشتات، واختيار مجلس وطنى يعيد بناء منظمة التحرير الفلسطينية، واعتبار حكومة الائتلاف الوطنى ـ بمقرها المؤقت فى غزة ـ فرعا من منظمة التحرير الجديدة الجامعة، وعزل زمرة عباس المستبدة بأقدار "حركة فتح" التى لا يصح استبعادها من أى صيغة لتجديد العمل الفلسطينى .

هذا هو الحوار الذى يستحق الصفة، وبالوسع أن تبادر إليه حماس إن أرادت، وقد نظن أنها تستطيع، فقد نعذر حركة حماس فى التخوف على كيانها الخاص، وهو تخوف مشروع، لكنه قد يقود ـ باستطراد المخاوف ـ إلى شلل حقيقى فى المشروع الفلسطينى الجامع، والحل: فى التقدم إلى حوار فلسطينى جامع للأطراف الوطنية، وقد لا تتوافر للحوار ـ فى نقطة البدء ـ مظلة عربية رسمية، فالنظم العربية على ما تعرف، وحركتها محكومة بسقف الإرادات الأمريكية والإسرائيلية، ولا بأس أن يبدأ الحوار محصورا فى الفلسطينيين، وبرعاية شعبية عربية قد يصح أن تنهض إليها قوى مؤثرة فى الشارع، وهو ما قد يحدث انقلابا فى المزاج الفلسطينى العام، وهو مزاج ضائع فى تيه اللحظة، ويفتقد دواعى الإلهام، ويركن إلى اليأس من الأطراف كلها، وقد يضيف "الانقلاب الفلسطينى" أملا ببدء دورة مقاومة جديدة، وبالتأثير الوهاج لمعارك سلاح وسياسة مع كيان الاغتصاب الإسرائيلى، وبما يعيد الوهج لقضية فلسطين الغارقة فى سحابات الضجر والسأم .

وبالجملة، يحتاج الوضع الفلسطينى إلى قارعة، ومن غزة التى انطلقت منها جماعات المقاومة الفلسطينية الأولى قبل خمسين سنة، فهل تبادر حماس إلى حوار نهوض بديل لدواعى النكوص فى الحوار المنقوص؟.

إذا فاز أوباما

25

منذ فترة، كتبت مقالا بعنوان "أوباما الأسود وقلبه الأبيض"، ورجحت أن تفوز كاريزما باراك أوباما على جمال "سارة بالين" الباهت الأبله تقريبا، ورجحت أن تفوز خبرة جوزيف بايدن - نائب أوباما - على خبرة جون ماكين، وهكذا بدا شباب سارة - نائبة ماكين العجوز - عبئا على المرشح الجمهورى للرئاسة، والذى بدا مضطرا للدفاع عن مكياجها وفساتينها المكلفة المرهقة لخزانة حملته الانتخابية، بينما بدا تقدم سن بايدن ونضجه رقما مضافا لكاريزما المرشح الديمقراطى الشاب، وهو ما أثبتته استطلاعات الرأى المتوالية، وكلها تشير إلى فرص أفضل لفوز أوباما فى الانتخابات الأمريكية.

ورغم أنه لا أحد يثق باستطلاعات الرأى مائة بالمائة، فإن فرص فوز أوباما تبدو أكثر رجحانا، بينما فوز ماكين يحتاج إلى معجزة، وإلى مفاجآت لا تخطر على بال ولا ترد على عقل .

وفوز أوباما - إن جرى - تعبير أكيد عن ديناميكية التكوين الأمريكى، وعن تغيير هائل فى الشعور العام، فالرجل - بسمته الملون - يبدو عابرا للأعراق والإثنيات الأمريكية، وفوزه - إن جرى - هزيمة حقيقية كاملة للعنصرية الكامنة فى أمريكا، والتى بدت فى صورة يائسة خلال الأسابيع والشهور الأخيرة، وتكررت ثلاث مرات محاولات "النازيين البيض" لاغتيال أوباما، ولقطع طريق دخول رجل يوصف بأنه "أسود" إلى البيت الأبيض، أضف إلى ذلك نزعات العنصرية ضد العرب والمسلمين وأفكار التحرر الإنسانى، والتى دأبت على وصف أوباما بأنه "عربى" و"مسلم" و"اشتراكى"، وقد كانت واحدة من التهم

الثـلاث تكفى - إلى عـهـد قـريب - لحـجب فـرص فـوز سـيناتور بمقـعـد فى الكونجـرس، فـمـا بالك - هذه المرة - برجل يتطلع إلى مـقـام الرئيس الأمـريكى نعم، يبـدو أوباما عـلامة على تغير أمـريكى درامى، نقـصد التـغـير فى المزاج والشعور العام، وليس التغير - بالضرورة - فى السياسة، فالسياسة الأمريكية - الخارجية بالذات - تصنعها المؤسسة، يصنعها تحالف المصالح الكبرى وأجهزة المخابرات ومراكز التفكير والصحف الكبرى، وقد بدت المؤسسة فى فزع من كوارث بوش الابن المتلاحقة، فقد ذهب بأمريكا إلى رحلة انتحار فى العراق، وأضاع فرص استعادة العافية للاقتصاد الأمريكى، وتراجعت معدلات النمو وزادت أرقـام البطالة، وانتـهى الوضع الأمـريكى إلى أزمـة مـعـقـدة أخطر من كسـاد الثلاثينات العظيم، وقد جنت خـيبة بوش الابن على فرص الجمـهورى ماكين الأسير السابق فى حرب فيتنام، وزادت - بالمقابل - من تألق أوباما الذى

دعمه تعاطف الصحف الكبرى والجمهوريين الكبار على طريقة الجنرال كولين باول، وهو ما يضيف تأييد نخب المؤسسة لأوباما إلى التأييد الشعبى الظاهر، فقد عارض الجنرال باول ـ الذى كان وزيرا لخارجية بوش ـ حرب العراق بعد خسائر أمريكا المريعة هناك، وهو ما يعبر عن فزع المؤسسة التى دفعت المال والدم فى العراق، ودون أمل فى نصر، ودون أن تجنى شيئا سوى الخراب فى الميزانية وتحطيم هيبة أمريكا.

وإذا فاز أوباما، فسوف يكون ذلك تكرارا لسيناريو فوز كلينتون على بوش الأب، ولكن مع فارق عظيم، فقد كان بوش الأب يتطلع لفترة رئاسة ثانية أوائل التسعينيات، وكان قد حقق ما بدا أنه أعظم انتصارات أمريكا، فقد سقطت موسكو الشيوعية فى أيامه، وفازت أمريكا فى الحرب الباردة بالضربة القاضية، ونجحت فى حشد الدول العربية الرئيسية ودولا أخرى وراء القوات الأمريكية فى حرب الكويت ضد عراق صدام حسين، وعقدت "مؤتمر مدريد" بين العرب والإسرائيليين، لكن هذه الإنجازات كلها لم تشفع لبوش الأب عند الرأى العام الأمريكى وقتها، ونجح كلينتون بشعاره الشهير "إنه الاقتصاد يا غبى"، فقد كان بوش الأب قد ورث اقتصادا متعثرا عن سلفه ريجان، ونجح فى السياسة الخارجية مع إخفاق متصل فى الداخل، وهذه هى الصورة الأقل وطأة مقارنة بما جرى مع نهايات عهد بوش الابن، فقد أخفق بوش الابن فى السياسة الخارجية وفى الداخل معا، وانتهى إلى وضع المثال المجسد للبؤس الأمريكى، وهو ما زاد من حرج المرشح الجمهورى ماكين، والذى بدا كأنه استمرار لفشل بوش الابن، فقد اعتمد بوش الابن على تخويف الأمريكيين من الإرهاب، بينما اعتمد أوباما ـ فى دعايته ـ على تخويف الأمريكيين من شبح بوش الابن، واستعاد مقولة كلينتون "إنه الاقتصاد يا غبى"، وفى أجواء الكارثة المالية التى لا تقارن إليها ظواهر أقل وطأة لضعف الاقتصاد الأمريكى مع نهايات بوش الأب.

وبدا أوباما - فى المخيلة الأمريكية الجماعية - كانه عنوان على فرصة ممكنة للخروج من الهزيمة المزدوجة، الهزيمة فى الحرب والهزيمة فى الاقتصاد، فقد أعطى أوباما للأمريكيين أملا وإن يكن غامضا وغير مؤكد، ورفع من البداية شعاره "التغيير الذى نستطيعه "، غير أن مهمة أوباما تبدو أثقل من مهمة كلينتون، فاستمرار الأزمة المالية يسرى بالضعف إلى الاقتصاد الحقيقى، ويهدد بتباطؤ وركود طويل، ويحتاج الاقتصاد الأمريكى إلى سنوات ليسترد بعضا من العافية، وقد يمضى أوباما فترة رئاسته الأولى فى محاولات للإصلاح لا تؤتى ثمارها بسرعة، فأمريكا تحتاج إلى إعادة بناء وإلى صورة مختلفة، تحتاج إلى أن تعلم نفسها لا أن تعلم العالم، فقد فقدت كرسى الأستاذية، وإن لم تعدم فرص التأثير الفاعل، فقد تستطيع أمريكا - وهذا مؤكد - أن تبقى على الساحة العالمية كقوة عظمى، وفى تكوينها الداخلى ديناميكية هائلة تكفل تماسكها وتصحيح خطوط السير، لكن أمريكا لا تستطيع - بالتاكيد أيضا - أن تحلم بالبقاء فى وضع "القوة العظمى " بألف ولام التعريف والحصر، فالعالم يتغير بسرعة ربما بأكثر مما تتغير أمريكا ذاتها، وتعدد أقطاب الاقتصاد والسلاح قدر نهائى للعالم الجديد، وتحتاج أمريكا إلى تواضع كذلك الذى تبدو عليه شخصية أوباما البعيدة عن العجرفة، وقد تكون نقطة البدء : انسحاب سريع من العراق وعد به أوباما فى حملته الانتخابية الطويلة الصاخبة .

وبالطبع، لن تتغير سياسة أمريكا إزاء إسرائيل لو فاز أوباما، فالاندماج الاستراتيجى بين أمريكا وإسرائيل من ثوابت المؤسسة فى واشنطن، وأى تغير فى السياسة الأمريكية - بأوباما أو بغيره - مرهون بحدود المقاومة المسلحة بالذات، فالمؤسسة الأمريكية لا تقر بحق أحد إلا بقدر قوته فى الميدان، وميل المؤسسه لانسحاب من العراق - بحسب وعد أوباما - سببه الرئيسى خسائر الدم والمال، وليس إدمان التفاوض الذليل العبثى على الطريقة التى

تعود عليها عباس وإخوانه فى قصور الحكم العربية، والتى وصفها عمرو موسى - الأمين العام للجامعة العربية - بأنها كجرى الأرانب وراء الجزرة الموهومة، وإن كان أوباما قد يبدو أكثر ضيقا بالديكتاتوريات الحاكمة فى الدول العربية، وقد يبدو صادقا - أكثر من بوش الابن - فى نصرة قضية الحرية، وباعتبارات الأولوية للمصالح الأمريكية طبعا .

٢٠٠٨/١١/٣

دفاعا عن حماس

26

ليس كل تصرف يصدر عن حركة حماس يقبل الدفاع عنه، لكن مغزى حركة حماس فى حركة التحرير الفلسطينى مما يصح الدفاع عنه وبشدة .

وقد تعرضت حماس للهجوم بشدة فى مصر، وفى غيرها، وجرى خلط الأوراق، وتصوير حماس على أنها حركة إسلامية زائفة، وتمنع الحجاج الفلسطينيين من العبور إلى مصر فالسعودية، مع أن حركة حماس طالبت بالمساواة بين الحجاج، ومنحهم جميعا تأشيرات الحج، ولم تصادر على حق يجب أن يكون مكفولا للكافة، ولا ينطبق عليها قول شيخ الأزهر سيد طنطاوى، ووصفه لمانعى الحج بأنهم يرتكبون أكبر المنكرات، بل ينطبق على آخرين جعلوا من أداء الفريضة الدينية ورقة ضغط سياسى، هذا إن صح أن نستمع لشيخ الأزهر فى أى حكم يتعلق بالإسلام أو بالسياسة، وهو ما نظن أنه لا يصح، إذ إن شيخ الأزهر أهان الأزهر والإسلام والمسلمين بمصافحته الغبية الأخيرة لشيمون بيريز، وفى حضرة العائلة السعودية(!).

وبعيدا عن حكاية الحج والحجاج، يبدو التنطع فى الحكم على حماس

ظاهرا، ليس فقط فى دوائر السلطة المصرية ذات الأولوية الإسرائيلية، ولا عند شخوص زمرة عباس فقط، بل لدى فصائل فلسطينية وقفت أو ضاعت فى البين بين، وتحمل حماس مسئولية فشل ما يسمى الحوار الوطنى برعاية مصرية، مع أن الكل يعرف الحقيقة، وهى أن الحوار إياه كان يجرى بغير حياد، وأن النظام المصرى ليس راعيا يوثق فى حياده، وأنه منحاز إلى عباس على حساب حماس، ليس فقط لأن مخاوفه ظاهرة من نفوذ حماس فى غزة المجاورة لمصر المأزومة، بل أيضا لأن أولوية عباس ظاهرة عند الأمريكيين والإسرائيليين، والسياسة المصرية الرسمية رهينة لرغبات الأمريكيين والإسرائيليين، وتشوه دور الوسيط المصرى يجعل الحوار بغير أمل فى نهاية ترضى، فوق أن أفق الحوار مسدود، وسقفه غاية فى الانخفاض، فالحوار كله يجرى تحت خيمة أوسلو، ويجرى النقاش على مصير سلطة يعلم الجميع أنها

مجرد قبضة هواء، وأن نشأتها فى ذاتها أعاقت حركة التحرير الفلسطينى سنينا عددا، وأن وجود عناصر حمساوية أو فتحاوية فيها لا يغير من الأمر شيئا، فنحن لا نحتاج الآن إلى حكومة من فتح أو حكومة من حماس، ولا حتى إلى حكومة مشتركة، ولا إلى انتخابات رئاسية وتشريعية مبكرة أو مؤجلة، ولا إلى دورة ثالثة لحكم ذاتى تخفض تكلفة الاحتلال وتزيد معاناة الفلسطينيين، بل نحتاج إلى انتفاضة ثالثة للشعب الفلسطينى تعفيه من الدوران والتيه فى الحلقات المفرغة .

وقد لا يصح أن يقلل أحد من أثر الانقسام الفلسطينى، وهو حقيقة مرئية بالعين المجردة، لكنها ليست بين حكومة عباس فى رام الله وحكومة هنية فى غزة، بل بين طريقتين فى العمل حجب ضباب السياسة طبيعة الفواصل بينهما، بين طريقة تستند أساسا إلى المقاومة المسلحة، وطريقة تستند أساسا إلى المساومة السياسية، وطريقة عباس ظاهرة بلا رتوش، فهو ضد المقاومة المسلحة ومرادفاتها من نوع الانتفاضة وغيرها، وهو يعمل بالتنسيق الوثيق مع إسرائيل والنظم العربية الخاضعة أكثر للرعاية الأمريكية، والأولى بفصائل البين بين أن تصوغ موقفها بوضوح وقطع من طريقة عباس، الأولى بالجبهة الشعبية ـ مثلا ـ أن تهاجم عباسا وليس حماسا، وأن تعلن القطيعة معه ومع طريقته، وأن تعمل ـ مع الجهاد الإسلامى ـ على دفع حماس للتركيز على خيار المقاومة المسلحة، وهجر صيغة أوسلو بكاملها، ووضع الحصان أمام العربة، وليس الوضع المعكوس الذى ولدت به سلطة أوسلو ومضاعفاتها، ورد الاعتبار لقضية التحرير أولا، وليس تقاسم كراسى السلطة الموهومة .. بالانتخابات أو بغيرها .

وقد اقتربت ساعة الحسم فى الاختيار، ليس لأن مدة عباس الرئاسية توشك على النفاد فى بدايات عام ٢٠٠٩، لكن لأن اتفاق التهدئة على جبهة غزة تنفد أيامه، بل وربما يكون الاتفاق قد سقط فعليا، وقامت حالة من الاستعداد

لحرب، وزاد اختناق غزة بالحصار الكافر، فالمطلوب إسرائيليا ـ فى الجوهر ـ خنق غزة وتفكيك حماس، وغزة هى قطعة الأرض الفلسطينية الوحيدة التى جرى الجلاء الإسرائيلى عنها إلى الآن، غزة هى قطعة الأرض الفلسطينية الوحيدة شبه المحررة بالكامل، والمطلوب بالمقابل : إقامة سلطة ائتلاف وطنى بالتراضى فى غزة، سلطة تمزج التعبئة السياسية بالتعبئة العسكرية، وهذا هو موضوع الحوار المطلوب الآن، وليس حوار الطرشان فى القاهرة أو فى غيرها، فقد كانت غزة دائما هى قلعة المقاومة الفلسطينية ومنبت أصولها، وهى الآن ـ فيما نظن ـ نقطة البداية فى إقامة دولة فلسطينية حقيقية، دولة تقوم على مبدأ السيادة الكاملة بعيدا عن متاهات أوسلو، دولة تقوم على أرض محررة، وتسعى لاستكمال السيادة عليها جوا وبحرا، وتؤدى دور الحكومة الميدانية لعموم الشعب الفلسطينى فى الداخل، وتنهض كرأس حربة فى الحرب الوشيكة مع كيان الاغتصاب الإسرائيلى، ولو أن فصائل البين بين اشترطت على حماس مبدأ الائتلاف فى غزة، وضم عناصر فتح الراديكالية إلى الائتلاف المطلوب، ووضع كل الفصائل المسلحة تحت قيادة عسكرية واحدة، لو أنها فعلت لأفادت نفسها وأنقذت حركة التحرير الفلسطينى من أخطائها، واستعادت لها طريقها الغائب، وأعادت الألق للقضية الفلسطينية، ووضعت أنظمة التواطؤ فى الحرج، واستثارت تعاطفا شعبيا عربيا هو حلقة الوصل المفقودة فى القصة كلها الآن .

ونزعم أن حماس تستطيع قلب الطاولة، فهى الحركة الفلسطينية الأكثر تأهيلا لدور قيادة الآن، وبشرط أن تضيف لقيادتها بعدا وطنيا ائتلافيا جامعا، وأن تؤكد عزمها على بناء منظمة تحرير فلسطينية جديدة، تضم الجميع دون زمرة عباس، وتشكل مجلسا وطنيا جديدا لعموم الشعب الفلسطينى فى الوطن والشتات، ولو فعلتها حماس، فإنها ستنتقل من خانة الدفاع إلى خط الهجوم، وتضع خصومها فى المأزق الذى لا فكاك منه، فليس بوسع فريق عباس أن

يعيش فى غير صيغة أوسلو، وهدم الصيغة ينتهى به إلى مقابر الصدقة، خاصة أن عباس رجل يفتقر إلى الجاذبية الشخصية، وإلى ميزة تعدد الخيارات التى كان يحرص عليها ياسر عرفات، بينما تبدو قيادات حماس فى وضع أفضل، فهم ليسوا مغرمين بمنافع السلطة، وتحللهم من التزامات أوسلو يفيدهم بالذات، ويضيف ألقهم السياسى إلى جوار نزاهتهم الأخلاقية، ثم أن لديهم حركة أكثر تنظيما وأفضل تسليحا، وتستطيع بالفعل أن تخوض معركة باسلة لو أقدمت إسرائيل على إعادة اقتحام غزة، وأن تعيد تنظيم حركة الشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية بأثر من تداعيات معركة غزة، وأن تفجر ما تيسر من انتفاضة ثالثة بتحريك الناس فى الضفة والقدس، وأن تستعيد وحدة الجغرافيا بوحدة المقاومة .

ونحن لا ندعو إلى قيادة محصورة بغزة، بل إلى قيادة تنطلق من غزة، وإلى جعل غزة رأسا لحركة تحرير وطنى فلسطينى جامعة لتفاعلات الوطن والشتات، وإلى جعل غزة قاعدة محصنة لدورة جديدة فى حياة المقاومة باتساع الوجود الفلسطينى .

ولا ندافع عن حماس بأثر من تحيز سياسى أو أيديولوجى، بل نضع سلال الأمل عند عتباتها، فهى الحركة الأقدر الآن ـ لو أحسنت التصرف ـ على إعادة توحيد النداء الوطنى الفلسطينى، ودون استبعاد ـ بالطبع ـ لحركة فتح، ودون قطع الأمل فى تجديد داخلى لفتح يزيح غنها غمة عباس وزمرته، ويعيد إليها وهج الرصاصة الأولى .

٨/١٢/ ٢٠٠٨

27

عملية قتل غزة

غـزة هـى فلسطين مـصـغـرة ومكثـفـة ، فـهى قطعة جغـرافيا بحـجم الكف، شـريط على ساحل المتوسط لا يزيد عن ٦٥ كيلو متر، وأعلى كثافة سكان فى الدنيا كلهـا ، مليـون ونصف مليـون فلسطينى فى مـعـسـكر احـتـجـاز ، نصـفـهم فى الأصل لاجـئـون من مـدن وقـرى فلسـطين الأخـرى ، واحـتـمـال أهـلهـا لألم ـ يفـوق طاقـة البشـر ـ يشـهـد على عذاب فلسطين ومجـدها فى الوقت نفسه.

عذاب غزة يشهد على خزى العالم، فالدنيا تحتفل بالذكرى الستين لإعلان حقوق الإنسان، والإسرائيليون - فى استطلاع رأى بالمناسبة - يقولون إن كيانهم هو الأكثر احتراما لحقوق الإنسان، ويقول نصفهم إن احترام إسرائيل لحقوق الإنسان يفوق نظيره فى أكثر الدول الأوروبية، بينما عملية حصار وخنق وقتل غزة تشهد أنهم كاذبون، ريتشارد فولك المنسق الخاص بشئون الفلسطينيين فى المجلس الدولى لحقوق الإنسان قالها بوضوح، فولك يهودى أمريكى، لكنه رجل ضمير، ووصف خنق غزة بأنه جريمة ضد الإنسانية، قالها اليهودى الأمريكى، بينما لم يقلها حاكم أو مسئول عربى، ولم يقلها الرئيس الفلسطينى محمود عباس نفسه، وطالب فولك بإحالة مسئولى كيان الاغتصاب الإسرائيلى إلى محكمة الجنايات الدولية، ولكن من يسمع ومن يحاكم؟!.

عذاب غزة يشهد على خزى أمة العرب والمسلمين، والتى أرسلت ثلاثة

ملايين حاج إلى جبل عرفات، يؤدون المناسك، ويطمعون فى العفو والمغفرة، وإلى غسل الذنوب والأدران، بينما لا يلتفتون إلى عذاب غزة، ولا حتى إلى آلاف حجيجها الذين حجبت عنهم تأشيرة ذهاب إلى الأراضى المقدسة، والذين تمنع عنهم ـ وأهلهم ـ نبضة الكهرباء وحفنة الطحين، يتوهم ملايين الحجاج أنهم ذهبوا إلى خلاص، بينما ذنب غزة معلق فى رقابهم، وفى رقاب أهليهم إلى يوم الدين، فلا عفو ولا مغفرة، ولا دعاء يستجاب، فهذه أمة لا يستجيب الله لتقاتها، ولا يغتفر لعصاتها، هذه أمة المذلة التى تعبد حكامها وأصنامها وتخضع لهم من دون الله(!).

عذاب غزة يشهد على تقصيرنا جميعا، فلا شئ يصل إلى غزة إلا عبر أنفاق التهريب، أو عبر "سفن الأمل" التى يسارع إليها نشطاء أوروبيون وأمريكيون، أو عبر شاحنات قليلة تسمح بها إسرائيل أحيانا ذرا للرماد فى

العيون، وفيما خلا لحظات تنفس عابر، تحكم على أهل غزة الأطواق فى سواد الليل وسواد النهار، وكأنهم فى سجن جماعى، واقفون على حافة الإبادة الجماعية، بينما أصوات الغضب فى شوارع العرب والمسلمين تبدو خافتة إلا من قليل، وكأن صلاة غزة ليست من الفروض ولا من السنن، بل من النوافل التى قد يصح التغافل عنها، أو أداؤها على طريقة الرمز الذى لا يروى عطشا ولا يشبع من جوع(!).

عذاب غزة يشهد على صمتنا المخيم، يشهد على شعوبنا التى تحولت إلى حفنة رماد، يشهد على ضعفنا وقلة حيلتنا وهواننا على الناس، يشهد على موت ضمائرنا وإن نطقت حناجر، فقد تحولنا إلى أمة الروبوت، رجال جوف ونساء من حطب، فرغنا لأعياد وأضاحى، فرغنا لطقوس ونصوص، فقدت أعيادنا المعنى والمغزى، نتحدث عن الفداء ونحن مقعدون، قلوبنا صماء وعقولنا بكماء، نتحدث عن إخلاص الوجه لله تعالى، بينما تستقبل رءوسنا أحذية حكامنا، نسعى وراء الخروف وذبيحة العجل، بينما نحن نذبح أهل غزة، ونخاصم فلسطين المقدسة كلها، ولا نتذكر منها غير تمتمات عن أولى القبلتين وثالث الحرمين، بينما تحولت حياتنا إلى حرام بلا حرمات(!).

عذاب غزة لا تصنعه إسرائيل وحدها، فأمر طبيعى أن تفعل إسرائيل ما تفعل، أن تحاصر غزة، وأن تخنق أهلها، وأن تهدد بغزوها وإعادة احتلالها، وأن تحول حياة الفلسطينيين فيها إلى جحيم لا يطاق، أن تكفر الفلسطينيين بمعنى الاستقلال وبقيمة الحرية، أن تغلق المعابر، وأن تثبت لأهل غزة أن الاحتلال هو الأفضل، كل هذا طبيعى حين يصدر عن إسرائيل، فهى العدو الظاهر، لكن المشكلة ليست فقط فى الأعداء الظاهرين بل فى الأعداء المتلبسين، الأعداء الذين يلبسون جلودنا، ويتسمون بأسمائنا، ويسرقون أصواتنا وأعلامنا، بل ويذهب بعضهم إلى حج لا بركة فيه، ويحدثونك عن الإسلام والنبى محمد، وكأنهم من أتباعه وأوليائه وخلصائه، بل ويصفون قادة

حماس فى غزة بأنهم من كفار قريش، وكأن هؤلاء يعرفون معنى إيمان المهاجرين، وكأنهم حين يديرون الظهر لغزة يهاجرون إلى يثرب، بينما يعرف القاصى والدانى أنهم شركاء فى الجريمة، والرئيس عباس ـ الذى تظاهر بالحج ـ يعرف أن مصلحته فى حصار غزة، بل ويبدو كثيرا كأنه الناطق الرسمى باسم مجلس الوزراء الإسرائيلى، ويقول إن المشكلة هى فى الصواريخ الفلسطينية العبثية، ياالله، إلى هذا الحد بلغ عمى القلب بمن يطلق على نفسه صفة الرئيس الفلسطينى، بينما علاقته بإسرائيل أوثق من علاقته بالهم الفلسطينى، وبينما مفاوضاته مع إسرائيل تجرى خمس مرات فى اليوم، وكأنها الصلاة التى أمر بها الله ورسوله، وبينما تنسيقه الأمنى مع إسرائيل متصل بالفعل والذكر آناء الليل وأطراف النهار، ومطارداته لعناصر الفداء المسلح فى الضفة الغربية لا تتوقف، وبينما حركته محكومة برغبات إسرائيل وحدها، فهو يتنفس بإذن إسرائيل، ويتحدث بلسان إسرائيل، ويسوغ لرفاقه من حكام العرب جريمتهم، ويبرر لهم ذنب المشاركة فى جريمة خنق غزة، ويعتبر ـ وهو فى ملابس الإحرام(!) ـ أن المشكلة فى حماس وليست فى إسرائيل، تماما كما تآمر على ياسر عرفات حتى قتلته إسرائيل بالسم، تماما كما اغتال عرفات معنويا فى حياته إلى أن اغتالت إسرائيل فيه الجسد، وتماما كما أن فرصته فى ركوب كرسى الرئاسة الفلسطينية كانت فى حصار عرفات ومضاعفة عذابه .

عذاب غزة يشهد على خيانه الحكام العرب، لا نستثنى منهم أحدا، ولا نفلت رقبة أحد، فوجودهم فى ذاته خيانة، وهم الذين يحكمون بلا معنى من شرعية، هم الذين يحكمون بالغصب والسلب والنهب، فلم ينتخبهم أحد غير أمريكا وإسرائيل، فهم خراف أمريكا وإسرائيل التى تسكن قصور الحكم فى بلادنا، ورغباتهم فى كسب رضا الراعى الأمريكى الإسرائيلى، وقضية فلسطين عندهم لم تعد إلا موضوعا للمقايضة فى سوق النخاسة، مبادرتهم

للسلام ودعت هواها القديم عن الاستسلام مقابل الأرض، وتحولت إلى طلب الاستسلام بغير عودة الأرض، تحولت إلى طلب الاستسلام مقابل "سلامتهم"، الاستسلام لإسرائيل مقابل البقاء فوق كراسى الغصب، وطبيعى ألا يقلق هؤلاء من حصار غزة، وأن يعينوا إسرائيل عليه، وأن يحولوا غزة إلى كبش فداء لكراسيهم، فليست إسرائيل وحدها هى التى تخنق غزة، وليست وحدها التى تقتل الفلسطينيين، بل الحكام العرب يفعلونها من قبل ومن بعد، وكبيرهم الذى علمهم الخزى هو الذى يفعل، حاكم مصر- الكبرى - بالغصب هو الذى يغلق معبر رفح، ويحكم حصار غزة، فهو يعرف - كما نعرف - أن الفتح الدائم لمعبر رفح يسقط حصار غزة للأبد، فمعبر رفح هو شريان حياة غزة، معبر رفح لغزة كالنيل بالنسبة لمصر، وإغلاق المعبر كردم النيل.

عذاب غزة يشهد علينا، يشهد على خزينا، يشهد على إخوة يوسف الذين تركوه فى البئر كما تركنا غزة تشرب من آبار الأحزان.

٢٠٠٨/١٢/١٥

ارفع حذاءك يا أخى

28

حذاء منتظر الزيدى ليس الأول من نوعه فى تاريخ السياسة، ومن أول قباقيب قتل شجرة الدر، وإلى ضرب الإيطاليين لجثتى موسولينى وزوجته - المعلقتين بالمقلوب - بالأحذية فى شوارع روما، وإلى حذاء الزعيم السوفييتى الشهير نيكيتا خروشوف، والذى وضعه على الطاولة فى مناقشات مجلس الأمن عن أزمة الصواريخ الكوبية أوائل ستينيات القرن العشرين، وكانت موسكو قد نقلت منصات صواريخ نووية إلى كوبا، وهددت الخطوة المثيرة بإشعال حرب نووية بين موسكو وواشنطن، ورغم أن حذاء خروشوف استفز الأمريكيين، إلا أن خروشوف نفسه تراجع وقتها، وسحب منصات الصواريخ من كوبا .

لكن حذاء منتظر الزيدى من نوع آخر، وفجر شعورا مختلفا تماما، وأيقظ الروح النائمة الهامدة فى المنطقة العربية كلها، ليس فقط لاختلافات الثقافة، فاستخدام الحذاء عند العرب هو قمة الإهانة، والتلويح بالحذاء إهانة، فما بالك بقذف فردتى حذاء- مقاس ٤٤ ـ فى وجه بوش، فقد بدا الحذاء كأنه حصى الرجم، وبدا بوش كأنه تجسيد للشيطان شخصيا، وبدت رحلة حذاء منتظر الزيدى فى الهواء كأنها رحلة الحجيج المقدسة إلى عرفات الله.

منتظر الزيدى ـ كما هو معروف ـ مراسل لقناة "البغدادية" الفضائية، وربما لم يكن ليذكره أحد لولا فردتا حذائه، فهذه أبلغ رسائله التليفزيونية، وهذه أعظم صورة صنعها، وهذه أفضل مقالة كتبها صحفى عربى على الإطلاق، فقد كسب بها جائزة الخلود، وتحول إلى أفضل ذكر عربى فى لحظة قذف الحذاء، وبدت المخاوف على حياته ظاهرة جارفة، فقد تحول منتظر إلى أفضل زوج

تنتظره امرأة أو فتاة عربية، وتحول حذاؤه إلى أجمل هدية عرس، وبدت تهتهات الخصيان فى أوساط الصحفيين بلا معنى، كأن يحدثك أحدهم عن مخالفة سلوك منتظر لآداب المهنة وحشوات الحضارة، أو أن سلاح الصحفى هو القلم لا الحذاء، وأن الصحفى يسأل ولا يعاقب، وكأن المؤتمر الصحفى لبوش والمالكى كان مناسبة إعلامية، وليس حفلة نصب مسرحى، أو كأن بوش رجل قد يصح التوجه إليه بسؤال، وهو الذى أهان وأذل أمة، وقتل مليون عراقى وشرد الملايين، واعترف بأنه قاد الحرب على العراق بناء على معلومات خاطئة كاذبة، هكذا ببساطة، وكأنه أخطأ العنوان إلى بيت الست أمه، ولم يدمر شعبا ويهدم دولة، وكأنه ـ من بعد ذلك ـ يظل من موضع لسؤال، أو من شخص يسأل فيجيب، أو من آدمى قد يصح التحاور معه، فذلك كله مما لم يعد موجودا فى شخص بوش، والذى تحول إلى "كلب" حقير مع كامل الاعتذار لأمة

الكلاب، وإلى شيطان قبيح يستحق رجمه بنعل الحذاء، فهو يستحق الإعدام كمجرم حرب، ولأنه لم يكن ثمة مسدس يقوم بالمهمة، كان الإعدام المعنوى بفردتى الحذاء الطائر .

وقد بدا "حادث الحذاء " فى ذروة الدراما، وكان وقعه مشابها تماما لحوادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ففى عواصف سبتمبر جرى تدمير هيبة أمريكا، وكان دمار البرجين عنوانا موحيا بنهاية عصر، فأمريكا التى كانت تذهب بالدمار إلى أربع جهات المعمورة، وتنعم وحدها بالأمان من ورائه البروج المشيدة، فوجئت بالدمار فى أعز رموزها، وعلى مدى سبع سنوات تلت، كانت الحوادث تكشف عوار الاقتصاد الأمريكى، وخواء قوة أمريكا التى تحولت إلى مجرد قوة بلطجة، وبغير إلهام أو مثال يحتذى، وبغير دواعى أخلاق ولا رسالة حضارة، وشاءت الأقدار أن تكون حرب العراق هى البرزخ الموصل إلى نهاية دور أمريكا الكونى الوحيد، فقد ذهبت واشنطن بعجرفة زائدة إلى نزال ظنته سهلا ميسورا، وكان سهلا عليها أن تقصف وتدمر من السماء، أو من بوارج وحاملات الطائرات فى البحر، لكنها حين نزلت إلى أرض العراق، وجدت الهزيمة فى انتظارها، فلم يستقبلها أحد بالورود والرياحين، بل استقبلها العراقيون بشراسة ربما لم يتوقعها أحد، ودار النزال متصلا، وإلى أن ثبت لأمريكا عجزها عن النصر، واستبدلت الذى هو أوباما بالذى كان بوش، وتكشف عجزها القدرى بنوازل السلاح وهزائم الاقتصاد، وذهب عنوان الخيبة إلى منطقة الخيبة الخضراء المحصنة فى قلب بغداد، وحاول التغطية الساذجة على هزائمه بعقد مؤتمر صحفى مع دمية عميلة اسمها المالكى، لكن حذاء منتظر الزيدى كان فى انتظاره، فقد اخترقت المقاومة العراقية المنطقة الخضراء من قبل بالصواريخ وقذائف الهاون، وفى هذه المرة، وربما دون سابق اتفاق أو تخطيط، كانت تخترق المنطقة الخضراء بعراقى له كرامة منتظر، وكان الحذاء هو سلاح التدمير الشامل لهيبة أمريكا الذاهبة مع الريح.

وحادث الحذاء هو حدث العام بامتياز، بل ربما كان هو حدث العصر العربى كله، فتضحيات العراقيين من أجل الحرية لن تذهب سدى، ولن تقف دونها اتفاقية العار الأمنى، والتى وقعها بوش والمالكى، وحولها حادث الحذاء إلى مزقة ورق تداس بالنعال، وكانت شيعية منتظر هى المصادفة البليغة، والتى داست أحاديث الفتنة وشعارات "فرق تسد"، وشارك الشيعة والسنة العراقيون فى مظاهرات الفرح بمنتظر، وكانت هيئة علماء المسلمين العراقيين ـ السنية بتكوينها الغالب ـ هى أول جهة تحتفل به وبضربة حذائه، وتحول منتظر إلى رمز عراقى كامل الأوصاف، وتحول إلهام حذائه إلى عظة للمقاومة التى أعجزت أمريكا عن تحقيق نصر، لكنها تحتاج إلى ترك خرافات وخلافات الشيعة والسنة، ودمج فصائل المقاومة بالسياسة إلى فصائل المقاومة بالسلاح، وإلى تقديس الحذاء الذى وحد العراقيين على قلب المقاومة، ورد إهانة بوش للعراقيين بأعظم منها وأبلغ .

وقد تجاوز منتظر ـ ببركة حذائه ـ حالة كونه مجرد مراسل لفضائية عراقية، أو مجرد صحفى عراقى، أو مجرد صحفى عربى، وتحول إلى بطل قومى عربى بامتياز، ربما السبب فى حالة الجوع لاستعادة الكرامة فى أوطاننا، فقد سقطنا تحت أحذية الاستعمار الأمريكى الإسرائيلى، وسقطنا تحت أحذية الحكام الخونة، وبغير ذرة شك فى سلوك الحكام، والذين تحولوا إلى أحذية لسيد البيت الأبيض، سقطنا تحت ركام من الأحذية، ووقعنا كجثث تحت هرم من الأحذية، تحولنا إلى مومياوات دفنت تحت تلال من الأحذية، خضعنا لقهر الأحذية فى النفوس والنصوص وعند نواصى الشوارع، وكان لابد من الرد على قهر الأحذية بكرامة حذاء منتظر الزيدى.

وربما يكون الزمان قد دار دورته، فقبل ستة عقود ـ تقريبا ـ كانت الأمة ذاهبة فى الغياب، وكان القهر سيد الرءوس، وكانت الهزائم تجللنا بعارها، وكان الحكام خونة ولصوصاً وخصياناً كحكام اليوم، وكان العرب خارج

التاريخ، وكان اليأس إماما لنا فى صلاتنا وقعودنا، وظهر جمال عبد الناصر بانتفاضة الروح من مصر، ورفع وقتها شعار "ارفع رأسك يا أخى"، تماما كما قد يصح أن تقولها اليوم، ومن بوادى التيه، ومن فوات السنين، ومن تحت ركام القهر والعجز، وحكم الأحذية، فالمأساة هى ذاتها وإن تبدلت المقادير، وقد يصح أن تقولها اليوم لنفسك ولجارك، وأن تستدعى نداء الكرامة، وأن ترفع علم منتظر الزيدى، وأن ترفع حذاءك يا أخى .

٢٠٠٨/١٢/٢٢

حسابات حماس

29

رغم محاولات استئناف التهدئة، والنشاط المفاجئ لدور الوساطة المصرية، وصيحات إسرائيلية تحذر من عواقب عملية عسكرية فى غزة، فإن الانفجار بات وشيكا وبعنف غير مسبوق .

وقد بدت تصريحات السياسة على السطح كأنها تمهد لتفاوض يقبل الانزلاق لحرب، فإسرائيل تشكو إلى مجلس الأمن من صواريخ حماس، وسلطة عباس بدت فى المأزق، توالى حرصها على تأكيد الرغبة فى الحوار مع حماس، وتكثر من مناشداتها للقاهرة باستئناف جولات الحوار الفلسطينى ـ الفلسطينى، فيما بدت القاهرة حريصة على وصل ما انقطع مع حماس، واستئناف الاتصالات، وتنشيط دور اللواء عمر سليمان مدير المخابرات المصرية، وفى وسط أجواء توحى بحرص واشنطن على مد أجل التهدئة فى غزة .

وقراءة السطح الظاهر قد توحى بالرغبة فى المزيد من التفاوض، المشكلة : أن الطريق بات مسدودا ، فحماس لا تريد التهدئة بأى ثمن، وهى تدرك أن التهدئة المجانية تسحب من رصيدها ، فما معنى أن تتوقف عمليات المقاومة المسلحة، وأن يتوقف إطلاق الصواريخ المزعجة، وأن تترك ٨٠٠ ألف إسرائيلى عند مرمى صواريخها فى أمان، بينما لا يحصد أهل غزة سوى البؤس واستمرار الحصار، وبينما لا تفتح المعابر إلا لأيام، وبينما ينزلق وضع غزة إلى حافة المجاعة الجماعية، وكأن التهدئة صارت قرينة للحصار، وهى الصورة العكسية بالضبط لما أرادته حماس، فقد أرادت حماس من التهدئة شيئين واضحين، أولهما : فتح المعابر مع العدو، والفتح الدائم لمعبر رفح بالذات، وثانيهما: أن تقتطع وقتا تضيف فيه إلى قوتها العسكرية وتنظيم جيشها ، وقد

تحقق الهدف الأخير دون الأول، وصارت حماس قوة عسكرية معتبرة، ولكن دون أفق سياسى يغرى بمنافع من وراء وقف إطلاق النار .

وقد بدت حماس بإعلانها أولا عن نهاية التهدئة، وكأنها تستعيد زمام المبادرة، وصارت فى وضع المطلوب لا الطالب المستجدى، فسلطة عباس توالى مناشداتها باستئناف الحوار مع حماس، والقاهرة التى خاصمت حماس تستعيد همزة الوصل بها، بينما تبدو إسرائيل فى عين الحيرة، وتبدو أجواؤها مضطربة على مقربة من انتخابات عامة، وتبدو الأطراف الإسرائيلية كلها حريصة على كسب سياسى وانتخابى من حوادث غزة، ووسط اختلاط حسابات المكسب والخسارة، تذهب السيدة ليفنى - زعيمة حزب كاديما - إلى مصر، وتبحث فى تجديد وساطة القاهرة بشأن التهدئة وملف جلعاد شاليط، بينما لا تبدو ليفنى نفسها واثقة بأن شيئا ذا بال سوف يتحقق توا، وتنتقل من

لغة الحمائم إلى لغة الصقور فى غمضة عين، وتتحدث كثيرا عن ضرورة اقتلاع حكم حماس فى غزة، وتطلق التهديدات بالحرب، وعلى رجاء الإضافة لرصيدها الخائر فى مواجهة تقدم انتخابى ظاهر لحزب الليكود بزعامة نتنياهو، بينما يبدو أولمرت - رئيس الوزراء - فى وضع البطة العرجاء، فقد صار بلا مستقبل سياسى بعد قضايا فساده المتكاثر، وليس من صالحه النفسى أن تبنى ليفنى مجدها على جثته .

وبالجملة، تبدو حسابات السلاح فى صالح حماس، فقد تستطيع إسرائيل بالفعل أن تنفذ عملية عسكرية خاطفة فى غزة، وبقوة نيران وتدمير واسع النطاق، وقد حشدت قواتها على حدود غزة فى انتظار تلقى الأوامر، لكن الاندفاع العسكرى الإسرائيلى غير مأمون العواقب، فعملية خاطفة قد لا تكفى، والانزلاق إلى خيار السلاح قد يتصل إلى زمن يطول، وكلما طال وقت العمل العسكرى خسرت إسرائيل أكثر، وربما لذلك بدا حرص قادة الجيش الإسرائيلى على إطلاق صيحات التحذير، جابى أشكنازى - رئيس الأركان الإسرائيلى - أعلن تخوفه على حياة ومصير الجندى جلعاد شاليط الأسير لدى حماس، وليست القصة - بالطبع - فى حياة جلعاد، القصة الحقيقية فى التخوف من تورط الجيش الإسرائيلى فى حرب مفتوحة، فجماعات حماس - والفصائل الأخرى - مدربة جيدا على حرب العصابات، وتدرك أن مقتل الجيش الإسرائيلى فى خوض حرب استنزاف طويلة المد، وأن نقل مسرح العمليات إلى الداخل الإسرائيلى سوف يقلب الطاولة، وربما لذلك يهدد قادة حماس باستئناف العمليات، وتلك إشارة ظاهرة للتهديد باستئناف العمليات الاستشهادية فى مدن العمق الإسرائيلى، ويبدو التهديد بالعمليات الاستشهادية ردا مباشرا على خطط إسرائيلية معلنة قد تلجأ إلى الخيار الأسهل، وهو تنفيذ عمليات اغتيال لقادة حماس الكبار فى غزة .

إذن، تبدو أجواء الحرب، أو حتى التهديد بها، مما يفيد حماس بأكثر مما

تفيدها التهدئة غير المجدية، فقد صارت حماس "رقما صعبا" فى معادلة الصراع مع إسرائيل، وبافتراض أن إسرائيل اغتالت بالفعل عددا من قادتها الكبار، فإن دم الشهداء الكبار يزيد من قوة حماس جيدة التنظيم، فحماس ليست مجرد حكومة فى غزة، إنها تنظيم سياسى وعسكرى معقد التركيب، وقصف النيران الإسرائيلية - مهما بلغت كثافتها - لا ينهى سيرة حماس، وربما يعزز الميل لتنفيذ عمليات استشهادية، فقد تحولت غزة إلى " حماس لاند"، وإلى قاعدة عمليات ربما لم تتح لتنظيم فلسطينى من قبل، والمعنى أن ضربة إسرائيلية خاطفة قد لا تكون مؤثرة بما يكفى، وقد تدفع إسرائيل - بتلاحق الحوادث - إلى إعادة احتلال غزة، وهنا بالذات مأزق إسرائيل، فهى تستطيع أن تجتاح غزة، بينما لا تستطيع أن تبقى فيها بدون تكلفة دم لا تطيقها، ولا يطيقها القادة الإسرائيليون الذاهبون إلى انتخابات قريبة، فكل فشل محتمل للجيش الإسرائيلى يضيف إلى حساب الفشل المتضخم للسيدة ليفنى، وربما يضيف لحساب النجاح المتوقع لحزب الليكود وقوى اليمين الإسرائيلى، وهذه الأطراف الأخيرة - حال فوزها الانتخابى - ربما تجد نفسها مدفوعة للتهديد بحرب أكبر، وهو ما يضاعف من خطورة مأزق إسرائيل التى ضاع "شارون" آخر ملوكها فى غيبوبة السنين .

ويبدو أن حماس تدرك القصة كلها، وأن حساباتها أقرب إلى الدقة هذه المرة، وقد بادرت بإعلان إنهاء التهدئة، لكنها لم تقطع الطريق تماما على فرص تجديد التفاوض، وربما بميل إلى التشدد أكثر هذه المرة، فهى لا تبدى استعدادا متعجلا لاستئناف الحوار مع سلطة عباس، وتعرف أن موقف عباس سيكون أضعف مع نهاية مدة ولايته الرئاسية، بينما تتجاوب مع مساعى استئناف الاتصالات، وتجديد الوساطة المصرية، وقد استجابت لطلب القاهرة بهدنة وقتية قصيرة، وربما لتأكيد أنها قادرة على ضمان التهدئة، وفى الوقت نفسه الذى لا تخشى فيه التفجير، أى أنها تضع الأطراف كلها تحت الاختبار،

فهى تريد تفريج أزمة معبر رفح من خلال اتصالاتها مع مصر، وتريد ثمنا كبيرا بإطلاق سراح مئات الأسرى مقابل جلعاد شاليط، وتريد ربط العناصر كلها فى توليفة تفاوض متصلة، وتريد كسر الحصار تحت ضغط التهديد بانفجار، فليس لدى حماس ما تخسره لو جرى الانزلاق لخيار السلاح، بينما ستجد القاهرة نفسها فى حرج أمام شعبها، وتجد إسرائيل نفسها فى هلاوس الخوف من تكرار تراجيديا الصدام مع حزب الله، وعلى جبهة حماس هذه المرة .

٢٠٠٨/١٢/٢٤

بدلا من البكاء

30

إذا أردنا أن نبكى، فليس لسيل دموعنا من آخر، ونحن نشاهد صور ومآسى شهدائنا وجرحانا فى محرقة غزة، آلاف الضحايا، ومئات النساء، وابتسامات لأطفال تحترق فى المهد، وصمت بليد لمجتمع الدول، وهمجية مفزعة لآلة الحرب الإسرائيلية النازية التى تسعى لتدمير كل حجر وقتل كل البشر .

نستطيع أن نطلق العنان للدموع، لكننا - إن فعلنا - نقع فى الخطأ الذى يراد لنا بالضبط، وهو الندب واللطم وفوات العقل، وكأن الفلسطينيين مجرد جماعة بشرية سيئة الحظ، أوقعتها المصادفة فى مصيدة النار، وحرمتها من كل مقومات الحياة، وحاصرتهم كما حوصر المسلمون الأوائل من قبل كفار قريش، وقد حدث لغزة كل ذلك وأكثر، لكنه لا يبرر حصر القصة فى جانب إنسانى مأساوى على صحته، وحصر الواجب فى إبداء التعاطف مع الضحية، والمسارعة إلى نجدة مستحقة بالغذاء والدواء ومولدات الكهرباء .

نعم، حصر مسألة غزة فى مشهد المأساة خطأ وخطر، ويجردها من طابعها الوطنى التحررى، ويوردنا إلى المهالك التى تراد لنا بالقصد، كأن تكون صيحتنا هى وقف إطلاق النار بأى ثمن، وإعادتنا إلى ترتيبات الخنق الدائم

بدلا عن الخنق الموقوت الملتهب، وتجريف فكرة المقاومة " التى جلبت كل هذا الخراب " كما تقول إسرائيل، وكما يقول معها إعلام ملوث تابع فى غالبه لحكومات التواطؤ العربى .

وبدلا من أن تتلاحق دموعنا إلى حقول البكاء، بدلا من أن نقول "هيا بنا نبكى"، نستطيع أن نقول - بثقة - هيا بنا نقاوم، وأن نرى فى القصة جانبها الأسطورى، وليس فقط ظواهرها المأساوية، فقد كانت لبركة الدم الشهيد آثار المعجزات، فلم تكن قضية فلسطين فى عين العالم كما هى الآن، ومنذ زمان طويل فى الماضى، لم تتألق قضية فلسطين كمعركة تحرير وطنى كما هى الآن، ليس لأن العالم تغير، فقد أصبحت قواه الحاكمة - فى الغرب بالذات - أكثر ظلما وعدوانية وعنتا وتنكرا للقيم الإنسانية، وليس لأن العدو الإسرائيلى

تغير، فقد أصبح أكثر شراسة وهمجية، وأفصح عن طبيعته النازية بلا رتوش، ولا يتورع عن استخدام قنابل الفوسفور الأبيض وسواها من الأسلحة المحرمة دوليا، ويهدد باستخدام القنابل الذرية، ويشن غارات الصدمة والترويع لحصد المدنيين بالذات، وتفتح له مخازن السلاح الأمريكى المتطور بغير حساب، وبالجملة : صارت الظروف المحيطة أسوأ من أى وقت مضى، وزادت عناصر السوء بتدهور النظام العربى، وسكن الحكام العرب فى جلودهم خيفة من قوة إسرائيل، أو طلبا لرضاها، لكن الذى تغير فى وسط كل هذا الظلام هو دفقة الضوء الباهر، الضوء الذى ينبعث من رماد محترق، ضوء المقاومة من نوع مختلف، المقاومة الجديدة التى بدأت سيرتها فى العقود الأخيرة، المقاومة التى تبتعث فى الأمة أنبل ما فيها، المقاومة التى تستظهر ثقافة الاستشهاد، وتخوض حروبها بثقة كأنها تقرأ من اللوح المحفوظ، وتطور تكنولوجيا ملائمة، المقاومة التى تمثلها جماعات شعبية تعتصم بتراث الأمة، وتشكل جيوشا لا تقهر، فقد زادت قوة إسرائيل أضعافا، لكن قوة إسرائيل الزائدة واجهتها طاقة مقاومة زائدة، ونشأ نوع جديد من الحروب غير مسبوق فى تاريخ الصراع كله، حروب عابرة للأسابيع وللشهور، وبطاقة نيران إسرائيلية مهولة، وبتركيز على قتل المدنيين، ولكن بغير مقدرة على تحقيق النصر، فقد حرمت المقاومة الجديدة إسرائيل من أية فرصة لنصر بالمعنى العسكرى النهائى، وأثبتت أن بوسعها تحرير الأرض، وكما جرى فى الجنوب اللبنانى، وكما جرى فى إرغام إسرائيل على ترك غزة وتفكيك مستوطناتها قبل سنوات، وكما يجرى فى حرب التحرير الثانى لغزة .

نعم، لم يذهب آلاف شهدائنا وجرحانا كمجرد ضحايا لمصادفة النار، بل كشف الدم الشهيد غشاواتنا عن أبصارنا، واستعاد لقضية فلسطين حرارتها فى الوجدان، وصارت صرخة فلسطين هى الأعلى صوتا فى دنيا العرب، وبعد

أن كان الوعى بالقضية يتلاشى، فقد بدت مظاهرات نصرة فلسطين هادرة فى أقطار العرب من الماء إلى الماء، وخرج الملايين إلى الشوارع، وفى صدام مفتوح مع الحكام العرب الذين ضبط أغلبهم متلبسا بجرم الخيانة، وهذه أعظم بركات المقاومة والدم الشهيد، فقد أثبتت غزة أن الدم يهزم السيف، وأن المقاومة قادرة على الصمود فى وجه أعتى آلة حرب، وقدمت مثالا ملهما موقظا للنائمين فى الشارع العربى، فإذا كانت غزة الصغيرة قادرة على مواجهة إسرائيل، إذا كانت غزة الصغيرة المحاصرة قادرة على العصيان، فإن الرسالة باتت واضحة، وهى أنه بالوسع تحدى أية قوة مهما بلغ جبروتها وقوة نيرانها، وبوسع الشارع العربى الواسع - من باب أولى - تحدى قوات حكامه، واستعادة العروة الوثقى بين جماهير الأمة وقدرها الفلسطينى، وهى الصلة التى كانت قد تفككت منذ انهيار المشروع القومى العربى قبل عقود، وفى المحيط الإسلامى بدت قضية فلسطين كأنها تبعث من رماد التجاهل، ومن إيران إلى باكستان إلى أندونيسيا إلى ماليزيا، وفى تركيا حدث ما يشبه المعجزة التاريخية، فقد فصلت تركيا طويلا عن عالمها الإسلامى، وانفصلت عن قضاياه، وجرى إلحاقها بحلف الأطلنطى وعلمانية الدبابات، وجرت "أوربة" نخبها وإقصاؤها عن هموم الجغرافيا والتاريخ، ثم جرت تحولات فى المشهد الثقافى والسياسى، وصعدت ظاهرة أردوغان وحزبه، لكن العلاقة مع إسرائيل ظلت لها الأولوية على حساب العذاب الفلسطينى، ثم كان التحول الدرامى فى حرب غزة، وبدا علم فلسطين فى مظاهرات اسطنبول المليونية كأنه صار صنوا للعلم التركى .

ولم يكن لهذه التحولات أن تحدث، ولا لهذه اليقظة فى العالمين العربى والإسلامى أن تتم، ولا ليقظة ضمائر بالملايين فى الغرب نفسه أن تجرى، لم يكن كل هذا الزخم المضاف واردا بدون الصمود الأسطورى للمقاومة، فلا أحد

ينتصر لقضية مالم ينتصر لها أهلها، وقد أثبتت غزة أنها عنوان فلسطين المضئ بوهج الدم، وأن الدم الشهيد قادر على كسر سيف إسرائيل، وفضح همجيتها الدموية، وكشف تكوينها الغاصب العنصرى النازى، وكسب معركة الإعلام والضمائر .

وقد يتطوع أحد بوصف الحماس لمقاومة غزة بالنظرة غير الإنسانية، والتى لا تكترث بدم الضحايا، ولا بعذاب الناس، وهذه لغة خشبية وكلام أجوف، فالتكلفة الإنسانية جزء من حساب المقاومة، ولم يحدث أبدا أن تحرر شعب بدون تكلفة دم باهظة، الجزائر ـ كمثال ـ قدمت مليونى شهيد ثمنا للتحرر من الاستعمار الفرنسى، ولم يحدث فى التاريخ أن تساوت أو تقاربت قوة نيران المقاومة مع قوة نيران المستعمر الغاصب، كانت قوة المستعمر على إلحاق الأذى دائما أكبر بما لا يقاس، وصحيح أن إسرائيل تلحق الأذى بالفلسطينيين، وبأكثر من مائة مرة قياسا لما يلحقها من قتلى وجرحى، لكن مقدرة الفلسطينيين على احتمال الأذى أعظم بمليون مرة قياسا للإسرائيليين، وقد كانت إسرائيل ـ فيما مضى ـ تلحق بنا الأذى وتفوز بالنصر الخاطف، لكنها ـ هذه المرة ـ تعجز عن النصر مهما ألحقت من أذى ودمار، فقواعد المقاومة الجديدة تقام فى القلوب قبل الميادين، وإحساس إسرائيل الغريزى بالهزيمة يدفعها إلى شراسة الذئب الجريح .

٢٠٠٩/٠١/١٩

نصف حرب ونصف نصر

31

بدت حرب غزة كنصف حرب، وبدت نتائجها كنصف نصر.

حساب الخسائر المالية على الجانبين يبدو هو ذاته، فقد دفعت إسرائيل فى الحرب حوالى المليار ونصف المليار دولار، وهى قيمة التحركات، واستدعاء الاحتياطى، وتكلفة تشغيل نصف سلاح الجو الإسرائيلى، وتكاليف قنابل الدمار والفوسفور الأبيض وقنابل " دايم " الجديدة، وعلى الجانب الفلسطينى، قدر مكتب الإحصاء تكاليف الدمار المادى، وأهمها تكاليف سبعة عشر ألف منزل ومنشأة جرى تدميرها كليا أو جزئيا، قدر مكتب الإحصاء جملة التكاليف - إلى جوار خسائر الاقتصاد - بحوالى المليار ونصف المليار دولار، وإن قدرتها إحصاءات فلسطينية أخرى بما قد يصل إلى مليارى دولار.

بالطبع، لا نتحدث عن الأرواح فى حساب التكاليف المالية، وإن كانت كارثة الفلسطينيين أفدح هنا بالطبع، فقد يصل عدد الشهداء الفلسطينيين إلى ألف وخمسمائة مع العثور على مزيد من الجثث، وقد يصل عدد الجرحى والمصابين - وكثير منهم فى حال الخطر - إلى ما يزيد عن ستة آلاف، فيما تبدو أرقام الخسائر الإسرائيلية من الأرواح أقل بما لا يقاس، وقد تتضاءل نسبتها إلى اثنين بالمائة بالقياس للعدد الكلى للضحايا الفلسطينيين، بينما تبدو الخسائر العسكرية البحته متوازنة على الجانبين، فعدد الشهداء والجرحى من حماس وفصائل المقاومة الفلسطينية يكاد يساوى نظيره على الجانب الإسرائيلى .

وبحساب الأرقام، تبدو خسائر الفلسطينيين الكلية أثقل بكثير، لكن نتائج الحروب لا تقاس فقط بالأرواح، وفى كثير من معارك التاريخ الكبرى، كانت

خسائر الطرف المنتصر أكبر بما لا يقاس إلى الطرف المهزوم، روسيا الستالينية - مثلا - كسبت الحرب ضد جيوش النازى، رغم أن روسيا خسرت ٢٠ مليون قتيل، وقد حسب النصر لروسيا لأنها أرغمت جيوش هتلر النازية على الانسحاب، وكذلك جرى فى غزة، فقد أرغم الجيش الإسرائيلى على الانسحاب من أراضى احتلها فى غزة، وبدت نهاية الحرب الدموية لافتة وموحية، فقد قررت إسرائيل وقف إطلاق النار أولا، وبعدها بساعات طويلة لم يتوقف خلالها إطلاق الصواريخ الفلسطينية، قررت حماس - والفصائل - وقف إطلاق نار مشروط، وأمهلت إسرائيل مدة أسبوع واحد لإتمام الانسحاب، وبدا كأن الجيش الإسرائيلى يتعجل بالانسحاب، ربما السبب فى خوف أولمرت من تكرار كوابيس جنوب لبنان فى حرب صيف ٢٠٠٦، وخشيته أن يتقدم إلى

النصف الآخر من الحرب، وعدوله - مع باراك - عن مخاطرة اقتحام مدن غزة وتجمعاتها السكنية الكثيفة، فتكون النتيجة أن تتضاعف الخسائر البشرية للجيش الإسرائيلى بالذات، وقد ثبت أن صدامات السلاح المحدودة التى جرت على الأرض كانت وبالا على جنود إسرائيل المذعورين، والمختبئين خيفة الموت من وراء أغطية الدبابات وأردية "البامبرز"، فقد ثبت أن مقاتلى حماس - وغيرها - طوروا قدراتهم بما يقارب القدرات المتفوقة لرجال حزب الله .

من الذى انتصر إذن ؟، الجواب - فى غير تعجل - أن حماس حققت نصف نصر، ربما لأن ما جرى - على هوله - كان نصف حرب، فيما لحقت بإسرائيل نصف هزيمة، وهربت من النصف الآخر، ولا يصح تصوير الدمار المروع الذى لحق بالفلسطينيين كعلامة نصر لإسرائيل، فأى جيش تافه يستطيع أن يفعل ما فعله الجيش الإسرائيلى، وهو أن يحارب قوما عزلا من طائرات ودبابات تحميهم، وهذا ليس إنجازا عسكريا بمقاييس الحروب، بل جنونا ووحشية عنصرية نازية، وحرقاً للسكان بعشرة آلاف طن من المتفجرات، وتعريضهم لدمار يشبه دمار القنبلة الذرية، وجرى القصف بطريقة الصدمة والترويع، وعلى ظن عبثى تماما، وهو أن إيقاع أفدح أذى بالمدنيين ربما يزعزع سلطة حماس على أهل غزة، وهو ما ثبت فساده بالكامل، فلم يحدث تمرد من عموم الناس ضد حماس كما كانت تظن إسرائيل، ولا حتى انتهى الحصار الذى استمر لمدة عامين قبل الحرب إلى النتيجة ذاتها، ربما السبب فى أن ظاهرة حماس تبدو أكثر جدية وأخلاقية، والنتيجة أن غضب الفلسطينيين ارتد إلى إسرائيل، وبدت صيحات الثأر موجهة إلى إسرائيل ونظم التواطؤ العربى، وزادت القوة المعنوية لحماس، وبدا المناخ الشعبى مهيئا أكثر لتقبل فكرة المقاومة والثأر لدم الشهداء، وربما لذلك بدا إسماعيل هنية - قائد حماس الداخلى - على صواب، وهو يعلن انتصار المقاومة، وبدت مقدرته على الإقناع

أكبر، وعلى عكس أولمرت المذعور من اعتراف دولى بدور حماس، ورغم تطمينات واشنطن لإسرائيل بتوقيع مذكرة تفاهم لمنع ما يسمى "تهريب الأسلحة" لحماس، وهى ورقة بلا قيمة عملية، وبوسع إسرائيل أن "تبلها" وتشرب ماءها ثلاث مرات فى اليوم، وبغير أمل فى شفاء تل أبيب من هواجس حماس(!) .

كان هدف الحرب الإسرائيلية هو تحطيم حماس، وهو ما لم يتحقق، بل ربما تحقق عكسه بالضبط، فقد زادت القوة المعنوية لحماس التى احتفظت بترسانتها الصاروخية، واحتفظت بقوتها العسكرية البشرية إلا من ضرر يسير، والمعروف أن إسرائيل تقدر جيش حماس بحوالى عشرين ألف مقاتل عالى التدريب، وعلى صعيد قادة حماس الميدانيين، فلم يستشهد فى الحرب سوى نزار ريان وسعيد صيام، وبدت القدرات الاستخبارية المتشعبة لإسرائيل عاجزة عن رصد أماكن تواجد قادة حماس العسكريين والميدانيين، وبدا أن عيون إسرائيل فى غزة جرى فقؤها، وبادرت حماس بإعدام عملاء وجواسيس، وبعد ما بدا أنهم كانوا وراء الإرشاد عن مكان تخفى القيادى سعيد صيام، وتبدو صرامة حماس فى محلها، فأى تهاون يعرض أمن قادتها للخطر، وإن كان ذلك لا يعنى أن الخطر زال، وأن الحرب انتهت، وحتى لو جرى التركيز على ترتيبات إعمار وفتح جزئى للمعابر وتهدئة لشهور، فسوف تظل الأزمة هى ذاتها، فإسرائيل التى فشلت فى تحقيق أهدافها رغم كثافة النيران وفترة الحرب الطويلة، والتى وقف شعبها وراء جيشها فى إجماع كامل، ها هى الآن تتساءل عما تحقق بالضبط، فقد ثبت أن قوة حماس عصية على الكسر، وأن الحرب أضافت لرصيد حماس، والتى بدا أنها فازت فى الحرب كما فازت فى الانتخابات قبل سنين .

نعم، تبدو الأوضاع قلقة، فإسرائيل لم تكسر حماس، ربما الجديد ـ هذه

المرة - أنها أدركت استحالة إيقاع هزيمة حاسمة بحماس، وربما تلجأ - لكسب انطباع أفضل - إلى تنفيذ عمليات اغتيال لعدد من قادة حماس، لكن التجارب الطويلة أثبتت أن ذلك لا يجدى فى حالة حماس بالذات، فالقيادة فى حماس مركبة وجماعية ولا تستند لإرادة فرد واحد، ثم أن حماس - رغم مآسى الحرب - أدركت أن المقاومة بالسلاح هى التى تستعيد لها بريقها، وتحتفظ بحق العودة إلى العمليات الاستشهادية، وإقامة توازن ردع جديد يشل يد إسرائيل.

٢٠٠٩/٠١/٢٦

تهدئة مثقوبة ومصالحة معلقة

32

طبيعى أن تعكس نتائج الحرب نفسها فى استثمارات السياسة .

وقد خرجت حماس من حرب غزة منتصرة، حتى وإن كانت الحرب لم تكتمل، وتوقفت عند خط المنتصف، انتصرت حماس، ليس فقط لأنها خرجت من جحيم النيران، وهى تحتفظ بغالب قوتها العسكرية سليمة، بل لأنها أرغمت قوات الجيش الإسرائيلى على الانسحاب إلى خارج حدود غزة، فوق أن الدمار الأخلاقى لصورة إسرائيل - غير الأخلاقية أصلا - يضيف لأخلاقية حماس وقوتها المعنوية، ويعيد لصورتها تألقها كحركة تحرير وطنى ذات شعبية ظاهرة، فقد أصبحت هى الفصيل الفلسطينى الرئيسى المعمد بعذابات النار .

وربما يصح فهم غالب التحركات الدولية والإقليمية المحمومة بعد الحرب، وبخاصة النشاط الأمريكى والأوروبى ودول عرب الاعتدال أو "الاعتلال"، ربما يصح فهم هذه التحركات على أنها محاولة لتعويض إسرائيل سياسيا بعد أن فشلت عسكريا، واعتماد صيغ حصار جماعى لحماس مقابل فك حصار غزة جزئيا، وجعل هدف تدمير حماس مقابلا لإعمار غزة، ومقايضة الإنسانى بالسياسى فى القصة الفلسطينية كلها، وتصوير الفلسطينيين كأنهم جماعة بشرية سيئة الحظ، وأن رفع "إرهاب" حماس عنها ربما يفك النحس، ويجعل الفلسطينيين جماعة وديعة تحترف مد الأيدى لا رفع السلاح، وبصورة تضمن حراسة أمن إسرائيل، وحمل سلطة عباس على أوناش الإعمار، وبعد أن فشلت خطة إعادتها لغزة فوق الدبابات الإسرائيلية .

وتبدو حركة حماس السياسية واعية لما يجرى كله، فهى لا تبدو متعجلة فى التوصل إلى تهدئة مستديمة مع إسرائيل، ولا فى المصالحة مع عباس، ومع ترك ملف إعمار غزة معلقا إلى حين التوصل إلى صيغة لا تنتقص من نفوذ حماس السياسى، ولا تجور على حق المقاومة بالسلاح مع توافر ضروراته .

فى ملف التهدئة، تدرك حماس عواقب التهدئات التى كانت طرفا فيها، فالتهدئة تتيح أجواء أفضل لحماس فى دعم قوتها العسكرية، لكنها لم تضف لحماس جاذبية سياسية مغرية، لم تضمن فك الحصار، ولا الفتح الدائم للمعابر، ولا التحسن المطرد فى مستوى ونوعية حياة الفلسطينيين فى غزة، وفى سنوات الحصار بدت مفارقة الضفة وغزة ظاهرة، فنوعية الحياة صارت أفضل وأكثر استقرارا فى الضفة رغم بقائها تحت الاحتلال الإسرائيلى

المباشر، وكان ذلك مقصودا لحمل الفلسطينيين أكثر على ترك خيار المقاومة، ويضخ المعونات للضفة مقابل حرمان غزة، ورغم أن غزة تبدو أحوج للعون بكثافتها السكانية المرعبة، وبضيق مواردها، فوق أعباء الحصار الثقيل، وربما كانت الحرب التى كانت سببا فى معاناة إضافية لغزة جاوزت حد المأساة، ربما كانت الحرب هى المفتاح لفك حصارها وضوائقها المعيشية، وبشرط أن تحسن حماس استثمار نتائج الحرب، وأن تحاذر فى عقد اتفاقات تهدئة قد لا تكفل الفك الدائم للحصار، وتبدو حماس - فى تحركها السياسى - كأنها تحاول الاحتفاظ بقدر من التوازن الحرج، الاحتفاظ بخيار المقاومة مفتوحا، والتقليل إلى أدنى حد من آثار الحصار والدمار فى الوقت نفسه، وهو ما يعنى أنه لا فرصة لتهدئة كاملة ولا لفك حصار شامل في وقت قريب، فالتهدئة الكاملة قد تضعف صورة حماس، وإن لم تضعف تكوينها الذاتى، وقد تضيف لظنون خصومها بأنها تحاول الاستئثار بغزة، وبناء دولتها الخاصة هناك، واختصار قضية الشعب الفلسطينى فى غزة وحدها، وتكريس الانفصال السياسى عن الضفة، ثم أن التهدئة الكاملة لا تبدو مريحة لإسرائيل أيضا، خاصة مع صعود اليمين الأكثر تشددا فى الانتخابات الإسرائيلية الوشيكة، ورغبة إسرائيل فى الانتقام مجددا من حماس، والمحصلة أن نتائج المفاوضات والوساطات الجارية قد تصل إلى منطقة وسطى، قد تصل إلى نوع من " التهدئة المثقوبة "، والتى تحفظ لكل طرف حق الرد المسلح على أى خروقات لوقف إطلاق نار يبدو هشا، وقد شهدت الأيام الماضية غارات واشتباكات متقطعة، وهو ما يرجح استمراره حتى لو جرى إعلان التوصل لتهدئة، وسواء جرى الاتفاق على تهدئة لعام كما ترغب حماس، أو لعام ونصف كما تريد إسرائيل، أى أننا قد نكون بصدد مزيج من الهدوء والتوتر قابل للسيطرة عليه إلى حين، ودون حصانة كاملة مانعة من الانزلاق لحافة الخطر مجددا، والعودة إلى ملاعب النار المفتوحة .

وفى ملف المصالحة، لا تبدو حماس راغبة فى العودة إلى مواضعات ما قبل الحرب، فقد أضافت الحرب رصيدا عربيا وفلسطينيا هائلا لحماس، أضافت لها رصيدا شعبيا يصعب أن تفرط فيه، وأن تعود إلى صيغ جرى تجريبها من قبل، وفشلت جميعا، فالطرف المصرى الوسيط لا يبدو محايدا بين حماس وعباس، فوق أن شرعية " حماس" الانتخابية تبدو ممتدة فى الزمن، بينما انقضت مدة شرعية عباس، وهو ما يجعل العودة لصيغ اتفاقات سابقة غير مرغوب فيه، فوق أن هذه الاتفاقات لم تصمد فى التطبيق، فلم تعد صيغة اتفاق مكة ولا اتفاقات القاهرة صالحة، ويصعب تصور أن تترك حماس ـ كما فعلت من قبل ـ ملف المفاوضات لجماعة عباس، فهى ـ أى حماس ـ تبدو أقرب لقاعدة أن الذى قاوم هو الأحق بالتفاوض، كما يصعب تصور أن تقبل بتشكيل حكومة ـ أيا كان اسمها ـ لا يكون نفوذها فيها هو الأرجح، فقد فازت حماس فى الانتخابات من قبل، وفازت فى الحرب من بعد، ولديها أوراقها المؤثرة من نوع احتجاز شاليط، بينما تبدو يد عباس فارغة، فوق أن حماس كسبت لنفسها عطفا إقليميا أكبر بإدخال تركيا فى مفاوضات الظل، وبعلاقتها الوثيقة مع إيران التى بدأت إدارة أوباما الأمريكية حوارا معها، وهو ما يجعلها أقل ميلا لتعجل المصالحة مع عباس، وتميل أكثر إلى وضع شروط تعجيز لعباس، ومن نوع التأكيد على أولوية خيار المقاومة، ووقف التنسيق الأمنى مع إسرائيل، وهو ما يعنى ـ فى المحصلة ـ أن المصالحة تبدو معلقة أو مؤجلة، فعوائد ابتعاد حماس عن عباس تبدو أكبر من فوائد المصالحة معه، ويبدو الوضع كله مرشحا لانفجار بأصوات تعلو على ضجيج الحوار .

وبالجملة، لا تبدو الفرص ناضجة لاتفاق يدوم، فالإدارة الأمريكية الجديدة تجرب حظها، وبعثت جورج ميتشيل ـ مبعوثها الخاص ـ لجولة استطلاع، واقتراح حلول، ولا تبدو التوقعات كبيرة، فواشنطن تحرص على إدارة الأزمة،

وليس طرح حلول لها قد تصطدم برغبات إسرائيل، وواشنطن تحرص على تبريد موقوت لدواعى الاشتعال فى المنطقة، وبعد أن ثبت لها عجز معسكرها العربى، وعجز الجيش الإسرائيلى أيضا، وانتهاء التحالف النظامى العربى مع إسرائيل إلى هزيمتين ثقيلتين، الأولى فى حرب لبنان صيف ٢٠٠٦، والثانية فى حرب ما قبل تنصيب أوباما فى غزة، وكلها ظروف قد تضيف لقوة حماس السياسية، وتجعلها أميل لطلب السلامة فى التمهل، والابتعاد عن ندامة التعجل .

٢/٢/ ٢٠٠٩

منظمة التحرير البديلة

33

نعم ، ثمة أصوات فلسطينية وعربية مخلصة اختلفت مع ما فهمته من تصريحات خالد مشعل - زعيم حماس - عن ضرورة بلورة بديل لمنظمة التحرير، وبدت القصة عاطفية إلى حد بعيد ، وكأن تصريحات مشعل قد امتدت بالأذى إلى قدس الأقداس الفلسطيني (!).

ولم يسأل هؤلاء ـ ولا غيرهم ـ عن حقيقة أبسط، لم يسألوا: أين هى منظمة التحرير التى يدافعون عنها ؟، فلا شىء عينيا مجسداً اسمه الآن منظمة التحرير، اللهم إلا لافتة باهتة معلقة على جدار، وموظفون يتقاضون رواتب ضخمة، وتكوين فوقى مهترئ اسمه اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، أو ـ بالدقة ـ بقايا لجنة يترأسها محمود عباس الذى هو نفسه رئيس ما يسمى بالسلطة الوطنية الفلسطينية، وانتهت مدته ـ الانتخابية ـ منذ فترة، بينما توقفت اجتماعات المجلس الوطنى الفلسطينى ـ برلمان منظمة التحرير ـ منذ عشرين سنة مضت، وانتهى وضع فاروق قدومى رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير إلى وضع الموظف بلا عمل، وبعد أن أصبحت سلطة رام الله هى سلطة المال والتفاوض، بينما بدت منظمة التحرير كشبح خلفى يستدعى ـ أحيانا ـ لتبرير موبقات جماعة عباس .

وفى كل جولات الحوار الفلسطينى إلى الآن، كانت قضية إعادة بناء منظمة التحرير واردة، وهو ما يعنى تسليم الكافة بغياب المنظمة، والتى جرى شطب ميثاقها مع عقد اتفاقات أوسلو، وهكذا لم تعد المنظمة قائمة لا بالميثاق ولا بالكيان ولا بالتأثير، ويصعب أن نتحدث عن منظمة التحرير بصفتها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى الآن، فقد صارت المنظمة لا شىء تقريبا، والكلام عن تمثيليتها الوحيدة يعنى أن الشعب الفلسطينى يمثله اللاشئ، وأن الشعب الفلسطينى بحاجة إلى بناء منظمة جامعة تمثل قواه وشرائحه، وحتى لو حملت ـ هذه المرة أيضا ـ اسم منظمة التحرير، فالمطلوب بناء منظمة، وليس الدفاع عن منظمة كفت عن الوجود الفعلى من زمن طويل .

ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية شيئا واحدا طوال تاريخها، فمنذ ٤٥

سنة مضت، صدر قرار عربى بإنشائها، كان الراحل أحمد الشقيرى أول رئيس لها، وكان القصد إعادة بعث الهوية الفلسطينية التى فقدت أرضها، وتحتاج إلى نوع من الوطن المعنوى، وإلى بلورة قضية تحرير وطنى تحل محل صورة اللاجئين الفلسطينيين، ثم جرى تجاوز منظمة الشقيرى إلى منظمة ياسر عرفات، واستمرت تحمل الاسم ذاته، وكان ذلك اعترافا بحقائق استجدت فى مسيرة الكفاح الفلسطينى، فقد جرى إعلان حركة فتح - أواسط الستينيات - من خارج إطار منظمة التحرير الفلسطينية، وانتهت هزيمة ١٩٦٧ إلى توليد منظمات وكيانات فلسطينية من قلب تنظيمات قومية عربية كانت قائمة، وكان أن تقدمت منظمات الحقائق الجديدة وقتها - مع فتح - لتملأ الإطار الفضفاض لمنظمة التحرير، وأصبح عرفات هو رئيس المنظمة، وبحكم أنه كان يترأس حركة فتح أوسع المنظمات تأثيرا وأكثرها شعبية، ثم جرى أول انكسار سياسى فى مسيرة المنظمة، وصادف اعتراف دول الجامعة العربية بها كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى، تمثل الانكسار فى التنازل عن هدف تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، والتسليم بدعوى انحسار قضية الشعب الفلسطينى إلى مجرد إقامة كيان على الأرض الفلسطينية المحتلة فى عدوان ١٩٦٧، والتى كانت تابعة إداريا وسياسيا قبل احتلالها لمصر والأردن، ولم تكن هناك مشكلة وقتها - أواسط السبعينيات - مع مصر، فيما استمر التنازع مع الأردن لعشر سنوات لاحقة، وإلى أن جرى توقيع الاتفاق الأردنى الفلسطينى فى أواسط الثمانينيات، لكن المنظمة - مع ذلك - ظلت إطارا تمثيليا تقريبيا للشعب الفلسطينى فى الضفة وغزة ومواضع الشتات اللاجئ، وإلى أن فرضت حقائق جديدة مع عقد اتفاق أوسلو من خارج إطار المنظمة، وتكون سلطة حكم ذاتى محسنة حملت اسم " السلطة الوطنية الفلسطينية "، وكانت تلك نقطة النهاية الفعلية لمرجعية منظمة التحرير، رغم بقاء اسم المنظمة على

الورق، ورغم بقاء ياسر عرفات رئيسا اسميا لها، وهو الوضع الذى ورثه محمود عباس، وأطاح بفاروق قدومى من رئاسة فتح التى ظلت لوقت قصير جدا، وأصبحت المنظمة - الاسمية - حكرا لأسماء من نوع ياسر عبد ربه وصائب عريقات، وأصبح اسم المنظمة ظلا باهتا لسلطة رام الله التى تستقبل المعونات وتوزع المصاريف .

منظمة التحرير - إذن - صارت أشبه بكيان ميت فى ثلاجة حفظ الجثث، صحيح أنها لم تدفن بقرار إلى الآن، لكنها قتلت بقرار وبسبق إصرار وترصد، انفصل النص عن الفص، وبدت التحولات - خارج إطار المنظمة التاريخى - أكثر حيوية فى الشارع الفلسطينى، فقد انتهت حركة فتح - عصب المنظمة - إلى أزمة جمود وتيبس أعصاب، ولم يعقد مؤتمر تنظيمى عام لحركة فتح منذ أوائل التسعينيات، وتجمدت عضوية اللجنة المركزية، وتفشى فساد "السلطة الوطنية " ليعصف بأخلاقية فتح، وظل عرفات - ومن بعده عباس - يكرر وعدا مؤجلا بعقد مؤتمر لفتح لم يتم إلى الآن، وانتهت القصة إلى اختناق وذبول تاريخى لمقدرة فتح، وهو ما بدا ظاهرا فى انتخابات ٢٠٠٦، والتى لقيت فيها "فتح " هزيمة مروعة، فيما تقدمت حركة حماس التى أعلنت وجودها لأول مرة قبل عشرين سنة، وفى توقيت مقارب لعقد آخر مجلس وطنى لمنظمة التحرير، وبدت حركة حماس كأنها ترث النفوذ القديم لحركة فتح، وبحيوية متدفقة فى تجديد الرموز والقيادات، وبالدور الأكبر فى عمليات المقاومة المسلحة بالداخل الفلسطينى، وبأخلاقية ظاهرة جعلت طهارة قيادات حماس مقابلا معاكسا لفساد قيادات فتح المتنفذة، ثم جاءت حرب غزة الأخيرة لتؤكد أولوية دور حماس فى الميدان، وتعطيها زخما سياسيا مضافا، وهو ما يعنى أننا بصدد تحول جوهرى لابد من أخذه فى الاعتبار، ونحن نتحدث عن المنظمة، فحماس - ومعها الجهاد الإسلامى - خارج الإطار الافتراضى للمنظمة إلى الآن، ودخول

حماس والجهاد إلى المنظمة - لدى إعادة بنائها - يغير المعادلة كليا، فخالد مشعل الآن فى وضع ياسر عرفات بعد عدوان ١٩٦٧، والشروع فى إعادة بناء المنظمة ربما يجعل حماس عصبها التنظيمى، وهو ما يدركه عباس والذين معه، فهو يخشى إعلان نهاية دوره الذى انتهى قبل أن يبدأ، يخشى من تجديد حركة فتح، كما يخشى من نفوذ حماس، ويتظاهر بالدفاع عن منظمة التحرير التى هدمها بنفسه .

وبالجملة، يبدو اسم منظمة التحرير عزيزا فى ذاته، لكن الكيان يحتاج إلى بث روح وإعادة بناء شاملة، وربما يصح أن تكون جبهة المقاومة والتحرير - التى دعت إليها حماس - طرفا جوهريا فى إعادة بناء منظمة التحرير، وبشرط إجراء انتخابات لعموم الشعب الفلسطينى لتشكيل مجلس وطنى .

٩/٢/ ٢٠٠٩

على باب الدم

34

بفارق مقعد واحد لا غير، أصبح حزب كاديما هو الأول - قبل الليكود - في نهاية انتخابات إسرائيلية شرسة، لكن هذا المقعد الإضافي في الكنيست لا يحجز له بالضرورة مقعد رئاسة الوزراء، لا يحجز لتسيبي ليفني - زعيمة كاديما - فرصة رئاسة الحكومة، ولا يحرم نتنياهو - زعيم الليكود - من مقعد الرئاسة نفسه، واستنادا إلى فوز غالب لليمين القومي والديني، وانحسار - ربما اندثار - حزب العمل بزعامة الجنرال إيهود باراك جزار حرب غزة .

وأيا ما كانت نتائج المشاورات، وسواء كانت ليفنى هى رئيسة الحكومة المقبلة بعد ذهاب أولمرت، أو كان نتنياهو، لا تبدو الفوارق جوهرية، فيما يخص مفاوضات التسوية بالذات، صحيح أن حجز المقعد القلق لليفنى ربما يعطى أملا للراغبين فى التفاوض العبثى على الجبهتين السورية والفلسطينية، وصحيح أن رئاسة نتنياهو ربما تقطع الطريق من أول لحظة، ونظرا لإعلانات نتنياهو المتكررة عن رفض مبدأ الانسحاب من الضفة الغربية، أو التجاوب مع أى حلول بصدد وضع القدس، وهو الذى يجعل غايته ما يسميه"السلام الاقتصادى" مع الفلسطينيين، أى أن يتعامل مع الفلسطينيين كجماعة بشرية بائسة، ويرمى إليها فتات المساعدات، وعلى أن تكون المساعدات والهبات بديلا عن حلم الدولة الفلسطينية، وحتى لو كانت منقوصة السيادة، ومنزوعة السلاح (!)، فيما تبدو ليفنى أقرب للغة اللين مع الحفاظ على ذات المضمون، والذى

يلحظ تصريحاتها الأولى عقب فوز كاديما النسبى، يرى أنها تتحدث عن كاديما بصفته مزيجا من أنصار فكرة "أرض إسرائيل" وأنصار السلام فى الوقت نفسه، وحرصها على أن يبدو كاديما كأنه حزب يمين الوسط، بينما الحزب فى تكوينه الغالب أقرب إلى بنية الليكود، وقد تكونت نواته - قبل سنوات - بقرار من شارون زعيم الليكود السابق، وعقب صدام شارون مع نتنياهو الذى وقف ضد قرار الانسحاب أحادى الجانب من قطاع غزة، وتفكيك مستوطناتها، فكاديما يظل - فى البدء والمنتهى - حزب شارون الضائع فى غيبوبة ممتدة .

والمحصلة، أن رئاسة ليفنى قد توحى بباب موارب لاستمرار مفاوضات ما، بينما رئاسة نتنياهو تعنى قطع الحبال فى صورة صادمة لمدمنى التفاوض على الجبهة الفلسطينية بالذات، والمحصلة واحدة رغم اختلاف نسبى فى لغة

السياسة المتداولة، بل ربما جاز أن يحدث تحول فى اللغات إلى الاتجاهين، ودون تغير فى جوهر السياسة، فأى حكومة مقبلة فى إسرائيل هى حكومة ارتباك تاريخى، وقد يبدو الارتباك مغلفا بكلام عن حكومة وحدة وطنية، وفى سياق السباق إلى مغامرات حربية تبدو مرجحة، وسواء كان الهدف ـ بإعلانات نتنياهو الصريحة ـ ضرب حزب الله وحركة حماس، وبهدف خوض حرب اقتلاع لمنظمتى المقاومة الرئيسيتين، أو بهدف جعل الصدام مع إيران هو محور السياسة الإسرائيلية، وهنا تبرز مشكلة أفيجدور ليبرمان الذى لا يمكن تجنبه، وبعد أن حل حزبه ـ إسرائيل بيتنا ـ ثالثا بعد كاديما والليكود، وبعدد مقاعد أكثر من حزب العمل، ولغة ليبرمان أكثر صراحة من ليفنى ونتنياهو، فهو يريد إفناء غزة ولو بقنبلة ذرية، وربما تدمير السد العالى لإغراق مصر كما صرح غير مرة، ووجوده فى أى حكومة يبدو واردا، هذا إن لم تحدث معجزة، وتتشكل حكومة من أحزاب كاديما والليكود والعمل، وهى معجزة غير واردة بسهولة، وممكنة فقط لو دخلت واشنطن على الخط بشدة، ولو اتفقت ليفنى مع نتنياهو على رئاسة تداولية لمقعد رئاسة الحكومة، وهو ما يبدو متصادما مع طموحات نتنياهو وحرصه على كسب ود ليبرمان، والذى يشاطره أفكاره نفسها، ويتحدث عن خطط لتنفيذ ترانسفير ـ طرد جماعى ـ لعرب ١٩٤٨، وبدعوى عدم الولاء ليهودية إسرائيل، والتخلف عن أداء الخدمة العسكرية، وربما تمضى القصة ـ حال عدم اتفاق الليكود وكاديما والعمل ـ فى اتجاه إجرائى آخر، هو مغازلة حركة " شاس " الدينية المتطرفة، وتقديم تسهيلات مالية لمؤسساتها الدينية المتضخمة، وإن كانت المصيبة أسوأ، فعدد مقاعد شاس ـ الخامس فى الترتيب الحزبى ـ ربما يفيد فى جلب ثقة الكنيست، لكن حاخام شاس هو الحاخام الأكبر فى إسرائيل، وكراهته للعرب والسلام أفظع من كراهة ليبرمان، وقد عارض شارون حين قرر الانسحاب من غزة، ودعا عليه بالموت الذى حدث مريريا، ويغير استجابة كاملة للدعاء .

وقد تسأل : أيهما أفضل لقضية فلسطين الآن ؟، أن تحكم ليفنى أو أن يحكم نتنياهو، ومع التسليم بعدم وجود فروق جوهرية، إلا أن رئاسة نتنياهو تبدو أفضل فى اللحظة الراهنة، فهى - على الأقل - تنهى وظائف المفاوضين الفلسطينيين، وتحيلهم إلى الاستيداع، وتحول سلطة عباس إلى سلطة بلا عمل، ولو على طريقة تزجية أوقات الفراغ، وسوف تؤدى العدوانية الإسرائيلية المتجددة إلى دعم فكرة المقاومة الفلسطينية، واستعادة الحركة الوطنية الفلسطينية لأصلها التاريخى كحركة تحرير وطنى، وباعتماد المقاومة المسلحة كأسلوب عمل رئيسى، وخلق أجواء ملائمة لإشعال انتفاضة جماهيرية ثالثة فى الضفة الغربية والقدس، أى أن الحكم المباشر لقوى اليمين الإسرائيلى سوف يغذى بالمقابل فكرة المقاومة، ويجلب لها التأييد الشعبى الفلسطينى، ويعصف بآمال تسوية هى مجرد خداع بصر وسراب صحراوى، ولأن حركة التاريخ لا تعرف الفراغ، فسوف تتقدم كيانات المقاومة لاحتلال فراغ التسوية، وربما يكون هذا التطور مفيدا لحركة فتح بالذات، فبوسع الحركة - فى الوضع الجديد - أن تتخلص من زمرة التسوية وجماعة إسرائيل، وأن تستصفى لنفسها وجهها الكفاحى المضىء، وبضغط من أسراها، وهم أغلب أسرى الفلسطينيين فى سجون إسرائيل إلى الآن، وبينهم مروان البرغوثى المؤهل - بالتجربة والتأثير - لرئاسة فتح بأجيالها الجديدة، وهو ما قد يؤدى - لو حدث - إلى خلق فرصة لمصالحة فلسطينية حقيقية، ويختصر المسافات بين فتح وحماس، ويمهد لإعادة بناء جدى لمنظمة التحرير التى أخلت مواقعها من زمن، وقضت عليها "أوسلو" التى جارت بالأذى على صورة حماس، وقبل أن تستعيد حماس بريقها بوقائع حرب غزة الأخيرة .

صحيح أن خلافات ليفنى ونتنياهو قد تقتطع وقتا إضافيا لأولمرت، وتمد فى عمر حكومته لأسابيع، وقد ينتهز أولمرت الفرصة، ويسرع إلى عقد اتفاق تهدئة مع حماس فى غزة، ويستعجل صفقة الإفراج عن جلعاد شاليط مقابل

مئات من أسرى الفلسطينيين، وحتى يودع منصبه بإنجاز سياسى ما ، ولا تطوى صفحته على وقائع فساد شخصى ذائعة الصيت، لكن هذه الصفقات الصغيرة لا تغير كثيرا فى مستقبل الصورة، فالنزعة العدوانية الإسرائيلية اكتسبت زخما شعبيا مضافا بالفوز الظاهر لقوى التشدد، وهذه النزعة سوف تشعل حروبا، وحتى لو مالت الإدارة الأمريكية الجديدة إلى ضبط نسبى لسلوك إسرائيل، فلدى إدارة أوباما ملفات شائكة لها الأولوية، وبدءا من علل الاقتصاد إلى وضع العراق إلى الحوار الصعب مع إيران، والأغلب أنها - بعد جولات مبعوثها جورج ميتشيل الاستطلاعية - سوف تعود إلى المربع الأول، أى إدارة الأزمة الفلسطينية الإسرائيلية دون التوصل إلى حلول لها، فسوف تواصل حكومات إسرائيل الجديدة تجارب الاحتكام إلى السيف، وإلى أن يثبت لها أن سيوفها صدئت، وأن المقاومة العربية الجديدة لا تهزم ولا تفنى، عندها سوف يراجع التجمع الإسرائيلى الاغتصابى أوراقه، ويلجأ مجددا إلى حيل البحث عن فرصة سلام، والتسليم الحقيقى - هذه المرة - بحقوق الفلسطينيين .

٢٠٠٩/٢/١٦

عرب إسرائيل ضد "عروبة" إيران

35

كل كلام عن المفاوضات والتسويات مع إسرائيل ينتهي دائما إلى المحصلة الصفرية .

هذه حقيقة يدركها حتى الذين يقضون آناء الليل وأطراف النهار، وهم يحدثونك عن السلام، وعن حسن الظن بالإدارة الأمريكية الجديدة، وعن أمل مراوغ فى كلام نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى، والذى يتحدث عن مسارات اقتصادية وأمنية وسياسية، وإلى آخر كل هذا الكلام المتخشب الذى لا معنى له، والذى تحول إلى فولكلور سخيف فى الصفحات الأولى للصحف وفى مقدمة نشرات الأخبار، فقد انفصلت المعانى عن المبانى، وانفكت العروة الوثقى بين التفاوض وموازين القوة، وصار الحديث عن المفاوضات ـ فى ذاته ـ كأنه حرفة، وعن الرحلات إلى واشنطن كأنها بعثة الحج (!). وقد لا نكون فى حاجة إلى قليل من ذكاء لندرك الحقيقة، وهى أنه لا أحد يقصد ما يقول، فلا إسرائيل مستعدة لانسحاب من الضفة والقدس بمجرد الكلام والإلحاح عليه، ولا الحكام العرب ـ من عينة مبارك المصرى وعبد الله الأردنى وعباس الفلسطينى ـ عندهم

حل ولا أمل، ولا أمريكا ـ حتى مع سحر أوباما ـ قادرة على اجتراح حلول، أو الإصرار عليها ، فلا أحد يسعى لتجاوز أزمة، بل هى مجرد تحركات لإدارة أزمة، ولا فرق بين كلام أوباما عن "حل الدولتين" وكلام بوش، وكله كلام لا يعدو كونه دخانا ينفث فى الهواء، وخطط توضع إثر خطط، وميزانيات إنفاق، ورحلات طائرات، ودوائر مفاوضات حلزونية لا تنتهى لغير تكريس الاحتلال، وتوحش الاستيطان، وهدم منازل القدس، ومحو ما تبقى من عروبتها .

وربما يكون البعض ميالا لانتظار، وإلى أن يذهب مبارك وعباس للقاء أوباما ، وإلى ترقب إعلان الإدارة الأمريكية عن خطة جديدة، مع أن الخطاب ظاهر من عنوانه، فلن تطلب أمريكا من إسرائيل غير إبداء الاستعداد لاستئناف مفاوضات عبثية، وسوف تكرر كلاما ـ بلا ضغط ـ عن وقف الاستيطان، ثم يكون الطلب الجدى ـ كالعادة ـ هو إيقاف المقاومة المنعوتة

بالإرهاب، وحصار حماس وأخواتها من حركات المقاومة الفلسطينية، والتعهد بتوسيع رقعة التطبيع والتعجيل بها فى تعديل مطلوب لنص ما يسمى " مبادرة السلام العربية "، والمحصلة ظاهرة، فالأطراف العربية المعنية لا تسعى سوى لغطاء أمريكى يستر تنازلاتها ومؤخراتها، ويوفر الأجواء الملائمة لما هو أهم، وهو المشاركة الجادة فى معركة أخرى جارية، والتحالف الضمنى ـ فالظاهر ـ مع إسرائيل تحت القيادة الأمريكية، وتصوير إيران كأنها العدو الأولى بالنزال، وإجراء تبديل جوهرى فى اللغة السياسية المتداولة، وبحيث يحل الصراع العربى الإيرانى محل الصراع العربى ـ الإسرائيلى، والترويج المطرد لحكاية صدام المعتدلين ضد المتطرفين، ودون تعيين قومى أو ثقافى أو تاريخى .

وقد يقولون لك إن ثمة خلافا بين أمريكا وإسرائيل، فأوباما يكرر حديثه عن " حل الدولتين "، بينما نتنياهو يرفض النطق أو التصريح بالكلمة السحرية، وكأن هؤلاء نسوا أن بوش كان يتحدث دائما عن "حل الدولتين"، وأن رؤساء وزارات إسرائيل السابقين كلهم تحدثوا عن حل الدولتين إياه، ودون أن يعنى ذلك شيئا بالمرة، ودون أن تفعل أمريكا سوى منح مزيد من الضمانات لإسرائيل، ما علينا، ربما الأهم أنهم يقولون لك إن إسرائيل تسعى إلى تقديم الخطر الإيرانى، وإعطاء الأولوية لمواجهته، وهذا صحيح، فإسرائيل تسعى إلى دعم أمريكى لرغبتها فى ضرب إيران، أو إلى توريط أمريكا ذاتها فى ضرب إيران نيابة عنها، وهو ما يبدو ـ لأول وهلة ـ مخالفا لرغبة أوباما فى حوار مع إيران، وهى الرغبة التى عبر عنها فى حملته الانتخابية، وداوم على ترديدها بعد أن أصبح رئيسا رسميا، لكن المدقق فى التصريحات يدرك التغير الذى لحق بلغة أوباما، فقد عادت لغة أوباما لتقترب من لغة بوش، ووضع ـ تحت ضغط اللوبى الإسرائيلى ـ سقفا زمنيا للحوار ينتهى بنهاية العام ٢٠٠٩، ثم إنه عاد ليتحدث عن الخيارات المفتوحة باتجاه إيران، ولم يستبعد اللجوء إلى

مزيد من العقوبات أو حتى الخيار العسكرى، ويبدو هذا التغير مريحا للسياسة الإسرائيلية، والتى ناورت بالحديث عن ضربة إسرائيلية منفردة لمنشآت إيران النووية، ثم أبدت تراجعا مقابل تغير جوهرى فى لغة أوباما باتجاه إيران، وجعلت أفيجدور ليبرمان - وزير خارجيتها الأشد تعصبا - مسئولا عن الحوار الاستراتيجى مع واشنطن، وهكذا تدافعت الخطوات لتسوية الخلافات، ولرسم أسس تحالف أمريكى إسرائيلى ضد إيران، وهى تريد الآن - بمعونة الراعى الأمريكى - جذب أطراف عربية للتحالف ذاته، وتوزيع الأدوار عليها، وبحيث تنهض مصر - من خلال الحوار الفلسطينى - بمهمة محاصرة حماس ذات العلاقة الطيبة مع إيران، فيما تنهض السعودية - على الجبهة اللبنانية - بمهمة حصار حزب الله الحليف الأقوى لإيران .

هذه خرائط الصراع الذى يراد فرضه على المنطقة، ولا يبدو فيها من أثر لمصلحة عربية ولا فلسطينية من باب أولى، فأولوية الصدام مع إيران تنطوى على مصلحة إسرائيلية مدعومة أمريكية باطراد، والنظم العربية المعنية لا دور لها غير دعم المجهود الحربى والسياسى لإسرائيل، وهى لا تطلب سوى بعض أوراق توت وتصريحات باهته عن السلام والمفاوضات والذى منه، وربما لا تدرك أنها عارية وفى عراء تاريخى، فاللعبة مكشوفة، وهذه النظم تسعى إلى صالحها الذاتى لا إلى مصالح شعوبها، فهى غير منتخبة ديمقراطيا، ولا حس شعوريا يربطها بالناس، ومجمعها الانتخابى الافتراضى فى جيب إسرائيل وواشنطن، وهى تطبق القاعدة الذهبية لبقائها، أى تكثيف محبة إسرائيل لكسب رضا أمريكا، ثم التسليم - كرها أو طوعا - لإسرائيل بما تطلب، وعلى مراحل صارت معروفة، وهى أن يبدو الطلب أمريكيا لا إسرائيليا، أى أن يكتب الطلب باللغة الإنجليزية المخففة لا باللغة العبرية القحة، ثم أن يجرى تعريب الطلب الأمريكى بركاكات السياسة إياها، وهى مزيج من أحاديث السلام مع إسرائيل مخلوطة بأحاديث الحروب بين الشيعة والسنة، والمحصلة : أن تبدو

الحرب مع إيران بديلا عن حرب مع إسرائيل لا نقدر عليها، فإيران القوية تذكر النظم العربية بذنوبها وخطاياها ، وكلما زادت قوة إيران تضاءلت هذه النظم، وبدت إيران - غير العربية - كأنها الدولة العربية الوحيدة فى المنطقة، والتى تدعم المقاومة العربية بكثافة على جبهات لبنان وفلسطين، وإن تخلفت - بدواعى التعقيد الطائفى - عن دعم المقاومة فى العراق الذى جرى غزوه واحتلاله أمريكيا بدعم مالي ولوجستى من النظم العربية .

وربما لا تكون فى حاجة إلى عين زرقاء اليمامة لتتنبأ بما سيجرى، فإحلال الصراع العربى - الإيرانى محل الصراع العربى - الإسرائيلى هو ذهاب إلى المكان الخطأ فى الزمان الخطأ، وهو يضيف إلى شعبية النظام الإيرانى وجاذبيته فى المنطقة كلها، فإيران لها استقلال قرارها، ولها مشروعها النووى والصاروخى وصناعاتها العسكرية المتطورة، ولها نظامها نصف الديمقراطى مقابل الديكتاتورية الكاملة للنظم العربية، وبوسعها امتصاص أثر أى ضربة إسرائيلية أو أمريكية محتملة، ثم أنها تستطيع أن ترد بعنف بالأصالة أو بالوكالة، وهو ما يعنى - فى الحساب الأخير - تكريسا لاعتراف أمريكى بالنظام الإيرانى وقوته الضاربة، بينما لا تبدو النظم العربية المعنية سوى سلال مهملات، وبقايا ديناصورات منقرضة، وموتى فى قبر بلا عنوان، فليس من عنوان يليق للعرب اليوم سوى حركات المقاومة، وهى فى الطرف الأقرب لإيران والأبعد عن النظم العربية، ثم أنها الطرف الأبقى فى الصراع الأبقى مع إسرائيل .

٢٠٠٩/٥/٢٥

نهاية التفاؤل بأوباما!

36

وعود أوباما الفلسطينية انتهت إلى لاشئ كما توقع العقلاء بالضبط .

وجاء خطاب نتنياهو كاشفا، فقد انتهت ضغوط إدارة أوباما إلى إقرار سياسة إسرائيل نفسها، وبدا أن الدولة الفلسطينية الموعود بها ليست إلا مسخا شائها، وربما يكون الوضع القائم ـ تحت الاحتلال ـ أفضل منه بكثير .

الدولة - أى دولة - هى أرض وشعب وسيادة، والدولة الفلسطينية الموعود بها ليست سوى كسرة من الأرض المحتلة فى عدوان ١٩٦٧، ويقيم عليها جزء من الشعب الفلسطينى، وبلا سيادة على الإطلاق، لا سيادة فى الأجواء، ولا سيادة على الأرض، فليس مسموحا لها بجيش، ولا مسموحا بدخول قطعة سلاح، والقدس ليست موضوعا للبحث، فهى عاصمة إسرائيل الأبدية الموحدة كما قال نتنياهو، وأوباما بدوره لم يتحدث عن قدس للفلسطينيين، فقط تحدث عن قدس مفتوحة للديانات جميعها، ولم يلفظ كلمة اعتراض واحدة على الاستيطان اليهودى فى القدس، فقط تحدث - كما تحدثت إدارات أمريكية قبله - عن تجميد الاستيطان فى الضفة الغربية، ونتنياهو - فى خطاب الاستجابة لأوباما - بدا قاطعا، فلا وقف لما أسماه "النمو الطبيعى" للمستوطنات فى الضفة الغربية، وعدد المستوطنين فيها الآن يزيد عن ٣٠٠ ألف، ووعد فقط أن

يعيد النظر فى الشروع ببناء مستوطنات جديدة، وهو مجرد تلاعب بالألفاظ، فالتوسع فى الاستيطان القائم يعنى استيطانا جديدا، وفوق الإصرار على ابتلاع القدس وتوسيع الاستيطان، فقد أغلق نتنياهو نهائيا باب الحديث فى حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وهم غالبية الشعب الفلسطينى، وكان أوباما ـ من قبل نتنياهو ـ قد أسقط حق عودة اللاجئين، وأصر نتنياهو على اعتراف العرب والفلسطينيين المسبق ـ الصادق والأمين ـ بإسرائيل كدولة يهودية، وهو ما يتوافق مع عبارة بدت عارضة فى خطاب أوباما للعالم الإسلامى من جامعة القاهرة، وحين تحدث عما أسماه "الوطن الإسرائيلى للشعب اليهودى"، وهكذا بدا أن أوباما أجمل رؤيته، فيما تكفل نتنياهو بكشف التفاصيل، وبصورة جعلته موضع امتداح علنى من أوباما (!)

تكشف الغبار إذن، وتكشف الخلل العقلى لهؤلاء الذين تفاعلوا بأوباما على

جبهة الهم الفلسطيني، ولمجرد أن أوباما فتى أسمر وكاريزمي وخطيب مفوه، فنتنياهو - أيضا - خطيب مفوه، وصاحب كاريزما لدى جمهوره الإسرائيلى، وقد حصل خطابه العنصرى الفاضح على رضا ثلثي الإسرائيليين فى استطلاعات الرأى، فيما لم يلتفت المتفائلون العرب والفلسطينيون إلى عنصرية خطاب أوباما، فقد أفرط أوباما فى الحديث عن المحرقة اليهودية، وردد أسطوانة الصهيونية المشروخة عن الستة ملايين يهودى الضحايا فى محارق النازى، فيما بدت المأساة الفلسطينية - فى خطابه الشهير بجامعة القاهرة - كأنها حادث سير، أو كأنها حظ عاثر تسأل عنه الأبراج والنجوم، ولا أحد مسئول عنها، أو كأنها مجرد أثر عرضى لسعى اليهود - المشروع (!) - إلى بناء وطنهم الإسرائيلى، مع أن أوباما يعرف الحقيقة، وهو متعلم بما يكفى، وليس غبيا تافها كسلفه جورج بوش الابن، ومع ذلك تصرف كالغبى تماما، وبروح تجاهل لم تخل ضمنا من الجلافة والصلافة، وهو يعرف - كما يعرف أى دارس مبتدئ - أنه لا صلة للعالم الإسلامى بما يسمى محرقة اليهود، كبرت أو صغرت، وسواء كان الضحايا ستة ملايين أو ستة آلاف، فالحضارة الغربية العنصرية - التى ينتسب إليها - هى التى أحرقت اليهود وغيرهم، ولم يكن العرب فى الموضوع، ولا للفلسطينيين دخل به، ثم أن الصهيونية - كالنازية - من منتجات الحضارة الغربية العنصرية العدوانية الوحشية، وأن الصهيونية نازية أخرى، وقامت - بدعم الغرب البريطانى فالأمريكى - بعملية حرق وجود الفلسطينيين، وإبادة شعب بالمذابح، وطرده من أرضه، وهذه كلها "حقائق لا وجهات نظر" لو استعرنا التعبير الذى كرره أوباما فى خطابه الشهير، وأبسط اعتراف بها يعنى إسقاط الاعتراف بأى شرعية لوجود إسرائيل ذاتها، وليس جعل الاعتراف بشرعية إسرائيل شرطا يمليه أوباما على العرب، ولا جعل أمن كيان الاغتصاب "بقرة مقدسة"، وإسقاط حق الشعب الفلسطينى فى المقاومة المسلحة، وهو الحق الشرعى المؤكد برسالات السماء وتعاليم الأرض، وهكذا

كان الأمر ويكون لكل الشعوب، فحق الفلسطينيين فى المقاومة ـ السلمية منها والعنيفة ـ لا يحتاج إلى اعتراف من أوباما ولا من غيره، وقد بلغ تنكر أوباما للحقائق وعنصريته القبيحة، أن أعقب خطابه للعالم الإسلامى بزيارة معسكر احتجاز نازى لليهود فى ألمانيا، ولم يقم ـ مثلا ـ بزيارة غزة، فضل أن يتذكر محرقة قديمة ارتكبها الغرب النازى فى دياره، بينما لوى عنقه عن زيارة المحرقة الأحدث التى ارتكبها الغرب الصهيونى فى ديار الفلسطينيين، ولم يفعل ما فعله جيمى كارتر الرئيس الأمريكى الأسبق بعده، والذى زار غزة، وفاضت عيناه بالدموع من هول ما رأى، وقال إن دمار غزة جرى بطائرات وقنابل أمريكية، وأننا ـ أى الغرب الأمريكى والأوروبى ـ نتعامل مع الفلسطينيين كحيوانات وليس كبشر (!) .

نعم بدا أوباما كمنافق صغير لإسرائيل، وبراجماتى، وحريص على منصبه، وبدا كمندوب مبيعات شاطر، وتعامل مع العرب والمسلمين كجماعة من البدائيين السذج، وباع لهم السياسة الأمريكية بآيات من القرآن الكريم، وتصور أن بلاغة خطاب علاقات عامة يكفى جدا، وكرر سذاجة نابليون مع بدء حملته العسكرية إلى الشرق قبل أكثر من قرنين، وقال للمصريين وقتها : أنا مثلكم مسلم وموحد وأحب النبى محمد"صلى الله عليه وسلم"، وبدا أوباما ـ بسمته الآسيوى الملون ـ كأنه داعية لتسامح الأديان والأوطان، ووضع البضاعة الأمريكية الفاسدة فى كيس نايلون لامع مصقول منقوش بآيات من القرآن الكريم، وكاد فى الجزء الأول من خطابه ـ المرصع بآيات القرآن ـ أن ينتهى للقول بأن الدين عند الله الإسلام، بينما بدا فى الجزء الثانى كأمريكى من رعاة البقر، كافر بآيات القرآن والإنجيل كلها، وفى تناوله للموضوع الفلسطينى بالذات، كاد يقول إن إسرائيل هى دين أمريكا، وبدا المستمعون الحاضرون لخطابه، وهم يصفقون له عندما نطق بعبارة "حل الدولتين"، وكأنهم من كوكب آخر، فلم يتحدث أحد عن "حل الدولتين" قدر ما تحدث بوش سلف أوباما، ولم

يعن ذلك شيئا أيام بوش الغبى ولا أيام أوباما الذكى، فليس المقصود ـ كظاهر اللفظ ـ دولة للفلسطينيين مقابل دولة للإسرائيليين، بل المقصود أن تكون لإسرائيل دولتان، دولة تخصها على أكثر من ٨٠٪ من أرض فلسطين التاريخية، ثم محمية للفلسطينيين ـ كحديقة حيوانات ـ تحت سيادة دولة إسرائيل، وهو ما بدا غائما فى كلام أوباما، وبدا ظاهرا فى كلام نتنياهو من بعده، فقد بدا أوباما حريصا على نزع سلاح الفلسطينيين، ولم يطلب ـ طبعا ـ نزع أو تقييد سلاح إسرائيل، وربما لا يجرؤ، فالثمن هو نزعه من منصبه، أو إرساله فى بعثة مستعجلة للآخرة .

وربما لا يكون من قيمة مضافة تذكر لخطاب أوباما فيما يخص الفلسطينيين، ولا لخطاب نتنياهو من بعده، فقد ذهب زبد الكلام، وظلت الحقائق كما هى على الأرض، فأمريكا وإسرائيل فى حال اندماج استراتيجى، والمفاوضات إياها مع إسرائيل خلل عقلى، والمقاومة المسلحة وحدها هى سبيل التفاوض الأمثل مع الأمريكيين والإسرائيليين، فأمريكا لا تسلم بحق إلا أن تدمى أصابعها، وإسرائيل لا تنسحب من أرض إلا أن يقهر جيشها، وعلى طريقة المقاومة العربية الباسلة ـ ممثل الأمة الشرعى الوحيد ـ على جبهات العراق ولبنان وفلسطين .

٢٠٠٩/٦/٢٢

اغتيال "فتح"

37

قد لا يصح لأحد أن يستهين بحركة فتح، لا بتاريخها، ولا بأسراها، ولا بشهدائها، ولا بدورها المجيد فى معركة التحرير الوطنى الفلسطينى، ولا بالمخاطر التى تهدد وجودها الآن، ولا بالشيخوخة التنظيمية والسياسية التى أطفأت بريق الاسم، ونخرت فى عظام الرسم .

وربما كـانت قنبلة فـاروق القـدومى الأخـيـرة مما يعكس عـمق أزمـة فـتح التنظيمية والروحية، فقد اتهم القدومى كلا من محـمـود عباس ومحمد دحلان بالمشاركة مع شارون فى خطة اغتيال عرفات بالسم، وقد وزع القدومى نسخة مختصرة من محضر اجتماع قال إن عرفات كان قد أرسله إليه، وهى اتهامات - لو صحت - تعنى نهاية اعتبار قيادة فتح الحالية كلها، فقد انتهت إلى عباس - المتـهم من قبل القـدومى - كل مـقاليـد حـركة فـتح، وجـمع فى يده كل مناصب عرفـات قائد فتـح التـاريخي، أصـبح رئيسـا لفـتح، ورئيـسـا لمنظمـة التـحـرير الفلسطينيـة، ورئيسـا لسلطة رام الله، بينمـا انتهى القدومى - وهو من مؤسسى فـتح الأوائل - إلى العراء، ترأس حركـة فتح لفـتـرة قـصـيرة جـدا عـقب وفـاة عرفات، ثم أصـبح سكرتيـرا للجنة فتح المركزية، وبدون أى صـلاحيـات، وبلا أدوار فعلية، ولن تكون مفاجـأة أن يجرى فصل القدومى فى المؤتمر السادس

الوشيك لحركة فتح، وهو المؤتمر الذى يعقد بعد حوالى عشرين سنة من آخر مؤتمر عقد قبل اتفاقات أوسلو، وذوبان "فتح" فى حمض كبريتيك سلطة أوسلو، وهزيمتها المريرة فى المعركة المسلحة مع "كتائب القسام" فى غزة قبل عامين من الآن .

وقد لا يكون بالوسع التأكد من صحة دعوى تورط الرئيس عباس فى اغتيال عرفات الذى رحل عن دنيانا فى أواخر ٢٠٠٤، فقد جرت العملية فى غموض مثير، ولم ينجح تقرير المستشفى الباريسى ـ الذى نقل إليه عرفات فى أيامه الأخيرة ـ فى تبديد الشكوك، وظل دم عرفات معلقا فى رقبة شارون الذى كان يكرهه بشدة، فقد كان عرفات ـ ورغم أى ملاحظات ـ رجل تكتيك من طراز فريد، كان ملكا للمناورة، وكان كالقط بسبعة أرواح، وكان قادرا فى كل وقت على القيام بأدوار مزدوجة، كان رئيسا لسلطة أوسلو، وكان فى الوقت نفسه

رأس جهاز الانتفاضة فى فتح، كان يبدى مرونة كبيرة تغرى باتهامه بالتفريط أحيانا، لكنه يدير - فى الوقت نفسه - تنظيمات فتح المسلحة، وكان قادرا على الإمساك بكافة الخيوط فى يده، وكان يسنده تاريخ كفاحى طويل، فهو مؤسس النواة الأولى لحركة "فتح" - مع خليل الوزير "أبو جهاد" - فى ١٩٥٧، وهو صاحب البيان الأول لجناح العاصفة - الذراع العسكرية الأولى لفتح - عن أول عملياته فى الداخل الفلسطينى فى الأول من يناير ١٩٦٥، وبعد هزيمة ١٩٦٧، كان صاحب مغامرة التسلل إلى الضفة الغربية المحتلة، وتنظيم خلايا، وتنفيذ عمليات عسكرية فدائية، وأصبح بعدها قادرا - بتفهم نظام جمال عبد الناصر - على انتزاع قيادة منظمة التحرير من أحمد الشقيرى، وبعدها أصبح تاريخ الفلسطينيين - فى غالبه - هو تاريخ ياسر عرفات نفسه، وإلى أن حاصرته قوات شارون فى مبنى "المقاطعة" برام الله، وعزلته عن الدنيا كلها، ووضعته فى الخيار الأخير بين الفرار أو الموت، وفضل عرفات الموت بكرامة على عار الفرار .

وفى اللحظة التى حوصر فيها عرفات، كان نفوذ محمود عباس يزيد باطراد، فقد بدا عباس كأنه الخليفة الأفضل للأمريكيين وللإسرائيليين، وضغط الأخيرون لتولية عباس رئاسة وزراء مستحدثة خصما من نفوذ عرفات الكلى، وناور عرفات بورقة أحمد قريع مسئول التعبئة والتنظيم بحركة فتح، وعينه رئيسا للوزراء نكاية فى عباس، وبعد وفاة عرفات، بدا أن المسافات تتلاشى بين قريع وعباس، فقد غاب "الختيار"، غاب القط، وعربدت الفئران، وراحت تنهش وتقرض أوراق "فتح" ومصادر قوتها، فالذى يطالع النظام الأساسى لحركة فتح يجد عجبا، مبدأ الحركة هو تحرير فلسطين بالكامل من النهر للبحر، وهدفها الرئيسى هو إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية على كامل التراب، ووسيلتها هى الكفاح المسلح والثورة الشعبية المسلحة، وبغرض تحطيم الكيان الصهيونى، والوقوف ضد أى قرارات دولية أو أى اتفاقات سياسية تنتقص من

حق الفلسطينيين فى كامل التراب الفلسطينى، والمثير أن النظام الأساسى لفتح ـ ودستور مبادئها ـ لم يتغير إلى الآن، وإن جرى حذف النصوص المأخوذة عنه فى ميثاق منظمة التحرير، وهنا يتبدى التناقض فادحا ومروعا، فالرئيس عباس ـ رئيس فتح الحالى ـ ضد كل مبادئ النظام الأساسى لفتح، وضد كل طلقة رصاص توجه لقوات كيان الاغتصاب الإسرائيلى، وهذا موقفه المعلن ـ والمخفى ـ ليس الآن فقط، بل منذ الأيام الأخيرة لياسر عرفات، ومنذ كان طرفا ـ ومعه أحمد قريع ـ فى صياغة اتفاق أوسلو السرى مع شيمون بيريز رئيس إسرائيل الحالى، وكان عرفات يعلم بالطبع، لكنه كان مسكونا بطبع المناور فيه، ويركب عدة جياد متعاكسة الطرق فى وقت واحد، ويجمع بين عباس ومروان البرغوثى قائد فتح الأسير من سنوات فى سجون إسرائيل .

طبع عرفات المناور حافظ على نبض حيوية فى حركة فتح، لكنه أثر سلبا بشدة على روحيتها وتماسكها، وحولها إلى عدة "فتحاوات" لا يجمع بينها غير اسم عرفات، وبعد أن رحل، بدت حركة فتح بدون غطاء عرفات، بدت ممزقة مهلهلة إلى أبعد حد، بين قادة أغلبهم من المليونيرات بل والمليارديرات، وقيادات وسطى تبحث عن وظائف تسد الرمق فى جهاز سلطة أوسلو، وتضخم دور السلطة وأجهزتها الأمنية خصما من رصيد فتح وجماعاتها العسكرية، وتوالت المحن على الفتحاويين فى القواعد الجماهيرية الواسعة، فقد خابت فتح فى انتخابات اكتسحتها حماس، ثم هزمت عسكريا وعلى نحو مريع فى غزة، وتعرضت لمحنة التجميد والاستيعاب فى سلطة رام الله المراقبة إسرائيليا وأمريكيا، ولم يعد أحد يتذكر شعار فتح القديم الذى تتوسطه كلمة "العاصفة"، وفى قاعدته نداء : الثورة حتى النصر، لم يعد أحد من قيادات فتح يذكر كلمة ثورة ولا كلمة نصر، ولم يعد أحد يرفع إصبعه بعلامة النصر على طريقة عرفات الحماسية، شاخ قادة فتح القدامى فى مقاعدهم، وجرى تأميم سلطة القرار الفتحاوى لصالح جماعة أوسلو أو "جماعة إسرائيل" فى السلطة

الفلسطينية، وتداعت حوافز التجديد مع انسداد الأفق، ولم يعد من حافز لوجود فتح غير الثأر من "حماس" التى استولت على غزة، وليس الثأر من إسرائيل، وهذه مفارقة عجيبة، وإن كانت مفهومة بطبائع الحياة وتوالى دولها، فقد نشأت حركة فتح من نفس المورد الذى نشأت منه حركة حماس فيما بعد، كلاهما انطلق من غزة، وكلاهما بدأ تكوينه الأول بعناصر من جماعة الإخوان المسلمين، فقد كان الأغلب الساحق من مؤسسى فتح - بمن فيهم عرفات - أعضاء أو أنصارا لجماعة الإخوان الفلسطينية، ربما الفرق أن حركة حماس - الإخوانية الجسد - لاتزال شابة، وعمرها المعلن جاوز العشرين بقليل، بينما تقدمت فتح إلى ضعف عمر حماس، وشاخت مبكرا ، وترهلت أوضاعها التنظيمية والإدارية، وساءت سمعتها بالفساد المالى والأخلاقى لعدد كبير من قياداتها، وربما لا ينجح المؤتمر السادس - الوشيك - فى استعادة حيويتها، فلا خطة سياسية، ولا رد اعتبار للمبادئ، بل طلاق بائن مع أصول التاريخ وعذاب الأسرى ودم الشهداء، واغتيال حقيقى لفتح بسم سياسة الرئيس عباس .

٢٠/٧/ ٢٠٠٩

"حزب الله" قضية أمة

38

ربما لا يصح أن تترك قضية حزب الله وسلاحه لمعادلات لبنان الداخلية، فلبنان بلد صغير وجميل، ومسكون بتناقضات الكون كله، ومعادلاته الطائفية، ونزاعات عائلاته السياسية، تحصر قضية سلاح حزب الله في التعايش معه أو الرغبة في نزعه.

صحيح أن حزب الله لبنانى بامتياز، لكن سلاح الحزب ومقاومته الفريدة قضية الأمة كلها، وقد نثق بقدرة رجال حزب الله وقادته، وحكمتهم ووعيهم وانضباطهم، وحسن إدراكهم، وكفاءتهم فى التفاعل المؤثر مع شباك الغابة اللبنانية، وإنجازاتهم الملحوظة فى تغيير بيئة لبنان الداخلية، وصياغة تفاهم مبكر مع كتلة العماد ميشال عون الزعيم المسيحى الأكثر شعبية، ومد سبل حوار ساهمت - مع مؤثرات أخرى - فى تحسين طفرى لمواقف وليد جنبلاط زعيم الدروز، وتجنب مزيد من الشحن الطائفى فى أوساط السنة ضد حزب الله الشيعى، وإقامة جسور وصل مع سعد الحريرى الذى انتهت له قيادة السنة ببركة المال السعودى، والحرص على علاقة مميزة مع الجيش اللبنانى، والذى تحول - على ضعف تجهيزاته - إلى مؤسسة وطنية جامعة، ومصنع

لتخريج رؤساء جمهورية محالفين للمقاومة من نوع العماد إميل لحود والرئيس الحالى العماد ميشال سليمان .

لكن البيئة اللبنانية الداخلية - مع ذلك - لا تخلو من عناصر شغب على حزب الله وسلاحه، ففى أوساط المسيحيين تبرز ظاهرة البطريرك نصر الله صفير، وبعيدا عن مقامه الدينى المحفوظ، فإن أداء الرجل - السياسى - ضد حزب الله وسلاحه فى المحصلة العامة، وهو ما يسند مواقف أسوأ لقادة مسيحيين من نوع أمين الجميل زعيم الكتائب وسمير جعجع زعيم القوات اللبنانية، وفى أوساط السنة، وهى الطائفة التى كانت يوما أقوى سند لعروبة لبنان ودعم المقاومة الفلسطينية، يبدو الشحن متصلا ضد حزب الله على قاعدة طائفية، ويلعب المال السعودى أخطر الأدوار، وتوضع الطائفة كلها تحت رعاية

النظامين السعودى والمصرى، ويجرى تصوير حزب الله كما لو كان مجرد ذراع مسلح لإيران، وكخطر وارد على السنة فى كوابيس حرب طائفية يروجون لها، وبتضخيم متعمد لحوادث ٧ أيار ٢٠٠٨، حين اضطر حزب الله للتلويح بسلاحه لحكومة السنيورة وتيار الحريرى، وعلى سبيل تأمين شبكة اتصالاته السرية التى كان يراد انتهاكها، وهكذا يجرى تصوير حزب الله وسلاحه، وجعل القصة كلها بندا مزمنا على "مائدة الحوار الوطنى " برعاية الرئيس، أو فى سياق استراتيجية دفاع لا يجرى الاتفاق عليها أبدا، ويجرى إنهاك حزب الله فى الدفاع عن سلاحه كما لو كانت تلك هى تهمته الأبدية (!).

وبالطبع، لا تبدو تصرفات الأطراف اللبنانية المعنية لبنانية بالمعنى المفهوم، فلبنان ساحة مفتوحة لتأثيرات إقليمية ودوليه، وتحالف ١٤ آذار - الذى يتفكك الآن - هو مجرد قطب لاقط لرغبات أمريكية تنهض السعودية ومصر للعمل بمقتضاها، وغايتها ببساطة : نزع سلاح حزب الله، وفى الحد الأدنى : تقييد استخدامه ضد إسرائيل، فقد لقيت إسرائيل الهزيمة المريرة مرتين على يد رجال حزب الله، مرة فى حرب التحرير التى انتهت لخروج إسرائيل ذليلة من الجنوب اللبنانى، وبلا قيد ولا شرط، أو اتفاقية سلام أو تطبيع، ثم جاءت الهزيمة الثانية فى حرب صيف ٢٠٠٦، والتى دكت نظرية الأمن الإسرائيلى وجعلتها حطاما، ونقلت النيران المشتعلة إلى قلب التجمع الاغتصابى الإسرائيلى، وجعلت حزب الله أكبر خطر وجودى يتهدد إسرائيل منذ قيامها، وهو ما يعنى أن قضية حزب الله أكبر من لبنان كله، فقد كان لبنان أضعف نقطة على خط المواجهة مع إسرائيل، وكان يقال دائما إن قوة لبنان فى ضعفه، ومع نمو ظاهرة حزب الله، تحولت الموازين كلها، وصار لبنان هو الأقوى عربيا، وبقوة حزب الله فى الأساس، ففى حرب ١٩٦٧ كانت تروى عن جنرال إسرائيلى حكاية أشبه بالنكتة، كان يقول : لقد جهزنا كذا فرقة عسكرية

للحرب مع مصر، وكذا فرقة للحرب مع سورية، وكذا فرقة للحرب مع الأردن، وحين سئل عن لبنان، ضحك وقال : أما لبنان فقد جهزنا له فرقة موسيقية !، وبعد عقود قليلة، تغير الموقف الاستراتيجى جذريا، وأصبح الخطر الأعظم على إسرائيل يأتى من لبنان، وبعد أن كان الخطر الأعظم يأتى من مصر التى تحولت - للأسف - إلى حليف استراتيجى لإسرائيل (!)

ومع كامل الاحترام - أو عدم الاحترام - لزعامات لبنان وأقطابه وبيوت الإقطاع السياسى فيه، فقد يصح أن نقول لهم : ارفعوا أيديكم عن سلاح حزب الله، وتوقفوا عن العبث الذى لا معنى له، وعن ترديد الاسطوانات المشروخة، ومن نوع حقوق "اليونيفيل" والقرار ١٧٠١ وتهريب السلاح لحزب الله، فهذه كلها أساليب وحيل صغيرة، ولن تنتهى إلى شئ مما يريدون، فالحقائق على الأرض تبقى هى الأقوى والأبلغ تأثيرا، والحقيقة الناطقة تقول : إن جيش حزب الله هو جيش العرب المستعد لقتال إسرائيل، وإن سلاحه مقدس بقداسة غايته، ولا يصح أن يكون موضعا لنقاش ولا لجدال، فقد كان حزب الله هو الجماعة المؤسسة لمقاومة عربية من نوع مختلف، مقاومة بدأت بثقافة الاستشهاد، وطورت أساليبها فى ميادين القتال، وبنت تكنولوجيا ملائمة بوجوه الدعم التى أتيحت لها، وفى الثلاثين سنة الأخيرة، لم تتحرر قطعة أرض عربية بغير سلاح المقاومة الجديدة، جرى ذلك فى تحرير الجنوب اللبنانى، ثم انتقلت الشعلة إلى فلسطين فى حرب الانتفاضة الثانية، ونجحت المقاومة الجديدة فى إجبار إسرائيل على الخروج من غزة وتفكيك مستوطناتها، ثم أثبتت هذه المقاومة ذاتها مقدرتها على الصمود والتحدى فى حرب غزة الأخيرة، وإذا كان الدعم الإيرانى موصولا للمقاومة فى لبنان وفلسطين، فإن الدعم ذاته تخلف فى حالة المقاومة العراقية، بل ولعبت إيران - وتلعب - أدوارا غاية فى السوء على جبهة العراق، ومع ذلك بدت المقاومة العراقية للاحتلال

الأمريكى أسطورية، وبنسخة عربية عبقرية تضاف لعبقريات حزب الله والمقاومة الفلسطينية .

لا نقول ذلك دفاعا عن حزب الله، فهو الذى يدافع عنا ويرهب إسرائيل، ليس فقط على جبهة لبنان، بل فى العمق الفلسطينى، وعلى جبهة مصر أيضا، والتى ابتليت بنظام جعل الأمن المصرى فى خدمة إسرائيل، ويحاكم ما يسمى " خلية حزب الله " أمام محكمة استثنائية، وبتهمة توريد السلاح للفلسطينيين فى غزة، وهى تهمة مشرفة لحزب الله، وللمتهمين وهم مصريون فى غالبهم، ونظن أن القوى الوطنية فى مصر، والمحامين الوطنيين، سوف يشكلون جبهة دفاع عن المتهمين الأبطال، فشرف مصر الأسيرة من شرف حزب الله المقاوم .

نعم، حزب الله قضية أمة، وليس قضية طائفة ولا قطر بذاته، وجغرافيا حزب الله ليست محصورة بالجنوب اللبنانى، بل على خرائط قلوبنا جميعا .

٣/٨/ ٢٠٠٩

سباق إلى الحرب

39

بقدر ما يبدو أننا على حافة حرب، فإن التسويات تبدو متعثرة، وكأنها فرصة لكسب وقت إضافى فى التجهيز لعمليات عسكرية، واختيار اللحظة المناسبة للتفجير .

هذه هى الخلاصة، وفى التفاصيل تبدو القصص مرتبكة ملتبسة .. ربما عن عمد.

الرئيس المصرى حسنى مبارك يستعد للذهاب إلى واشنطن، وفى التمهيد اتصالات لمبارك مع نتنياهو، ومحاولات لحلحلة ملفات صغيرة من نوع قضية تبادل أسرى فلسطينيين مع الجندى الإسرائيلى الأسير لدى حماس جلعاد شاليط، وتنشيط لاتصالات القاهرة مع قادة حماس، وتحضير لجولة حوار - يفترض أنها أخيرة - بين حماس وفتح، وليس من ثقة فى إمكان إنجاح الحوار الفلسطينى المفرط فى تعثره، وليبرمان - وزير الخارجية الإسرائيلى المتشدد - يسخر فى واشنطن من صراعات "حماسستان" فى غزة و"فتح لاند" فى الضفة الغربية، وقلق إسرائيلى من نتائج انتخابات اللجنة المركزية لحركة فتح، والتى لم تحسم الموقف تماما لصالح الرئيس عباس.

وفى غيبة وضوح وتماسك الموقف الفلسطينى، يحلو لمبارك أن يذهب إلى

واشنطن لتجديد أوراق اعتماده، وفى ظنه أن الورقة الفلسطينية فى يده، وربما يتحدث هناك عن رغبة فى تجميد الاستيطان الإسرائيلى، ورغبة فى رؤية شئ يتحقق على الأرض مما وعد به الرئيس الأمريكى باراك أوباما، بينما الأخير فى حالة إنهاك من العناد الإسرائيلى، ويميل إلى نسيان قصة الاستيطان، ويستذكر بدلا منها رغبة فى الضغط حيث يتوقع التجاوب، وباتجاه الأطراف العربية النظامية بالذات، ومقابل ضيقه المكتوم من عناد نتنياهو، فقد عبر عن ضيقه العلنى بتلكؤ الدول العربية المعنية فى التطبيع مع إسرائيل، وفتح المجال الجوى لطائراتها، واستقبال سياحها، وفتح مكاتب تجارية، وتنظيم مؤتمرات علمية واقتصادية ومسابقات رياضية مشتركة، وعلى نحو ما عبرت عنه رسالة وجهها ثلاثة أربا ع أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى أخيرا لأوباما، وطالبوه

فيها بإجبار الدول العربية المعنية على توسيع نطاق التطبيع مع إسرائيل، والقيام بمبادرات "مذهلة " على حد وصف الرسالة، ووقف ما أسموه بالتحريض والكراهية الإعلامية ضد إسرائيل واليهود، ومبارك - من جهته - فى حيرة من أمره، فليست لديه مشكلة شخصية فى التطبيع مع إسرائيل، وهو يترأس نظاما يخدم إسرائيل بعينيه، لكنه يواجه - فيما هو ظاهر - مشكلة فى إقناع الآخرين غير نظيره الأردنى الملك عبد الله، فالنظام السعودى لا يبدو شغوفا بتوسيع نطاق التطبيع العلنى الآن، والرياض - بتصرفات الشهور الأخيرة - حريصة على أخذ موقف يبتعد بها نسبيا عن ورطة الموقف المصرى، ويقترب بها أكثر من فرص تفاهم مع الموقف السورى الرافض للتطبيع الآن، ودون مقابل محسوس تقدمه إسرائيل، فالإعلان عن تجميد الاستيطان - حتى لو تم - قد لا يعنى شيئا مضافا، وربما تفضل دمشق تجديد صيغة مؤتمر مدريد الذى جرى فى أوائل التسعينيات، وربما تعتقد أنه لا فرصة لتفاوض حقيقى ناجز، وتتعامل مع قصة السلام على أنها مجرد لغة كلام مفيدة تفتح لها قلب واشنطن بعد تجاوب الاتحاد الأوروبى .

والمحصلة : أجواء توحى بالتهدئة، وليست أجواء تفاوض، وربما تتقدم واشنطن إلى خطوة معلقة فى فراغ، وتتجاوز قصة الاستيطان وتشدد إسرائيل، وتضغط على الطرف الفلسطينى المحاور، وتسعى لترتيب لقاء بين نتنياهو وأبى مازن يحضره أوباما، وربما أطراف من الرباعية الدولية، وحكام عرب من نوع الرئيس مبارك، وهو ما يعنى أننا قد نكون بصدد "أنابوليس" أخرى تعقد فى مكان آخر، وباحتمالات فشل أكبر هذه المرة، فقد انتهت "قصة أنابوليس" - سيئة الصيت - إلى حرب غزة، وربما تنتهى القصة هذه المرة إلى حرب إيران، وربما لبنان مجددا، فتصورات إدارة أوباما عن التسوية الفلسطينية هى ذاتها تصورات إدارة كلينتون القديمة، وملخصها : دولة

فلسطينية منزوعة السلاح والسيادة، وإجراء تبادل أراضى مقابل مستوطنات الضفة الغربية، ومنح الفلسطينيين مزايا رمزية فى القدس لا تخل بتبعيتها المطلقة لإسرائيل، وإغلاق ملف عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى الأبد، وتوطينهم حيث هم الآن، وتنظيم حملة تعويضات قد تصل إلى ٦٠ مليار دولار تدفع عبر السلطة الفلسطينية والأردن وسوريا، وتلك صفقة تقول المصادر الأمريكية إن النظم العربية توافق عليها فى المناقشات المغلقة، لكنها لا تجرؤ- بالطبع - على الإعلان أو التوقيع، وهو ما يعنى العودة إلى نقطة الصفر مجددا، وإجراء مفاوضات تلو المفاوضات لمجرد الإيهام بتحرك ما، وتسريب وعود لسوريا بإمكان حل مشكلة الجولان، وبترتيبات أمنية تجعل دمشق نفسها تحت احتلال سياسى فعلى .

المحصلة مرة أخرى : مجرد كلام وإيحاء بارد بتسويات، بينما تبدو التصرفات ساخنة على جبهة الذهاب لحرب مع إيران ولبنان، ففى البدء أوحى أوباما بتفضيل سكة "الحوار مع إيران"، ووجه رسائل محبة واعتذار إلى الشعب الإيرانى والقيادة الإيرانية، وهو ما بدا موضع قلق فى الظاهر عند إسرائيل، والتى أرادت التعجيل بتوجيه ضربة عسكرية لمشروع إيران النووى، وتحفظت أمريكا، ثم بدا أنها تبتلع تحفظها، وتميل أكثر إلى تسوية مع إسرائيل فى الملف الإيرانى، وخصوصا مع الاضطرابات التى أعقبت إعلان فوز أحمدى نجاد برئاسة إيران للمرة الثانية، فعادت اللغة الأمريكية تجاه إيران إلى عدوانية مستعادة، وقرر الكونجرس تقديم دعم إضافى على للمعارضة الإيرانية، وسحبت إدارة أوباما تصريحا عن الاعتراف بنجاد كرئيس منتخب، وعبرت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلارى كلينتون عن دعم أمريكى غير محدود للمعارضة الإيرانية، وفى الوقت نفسه كانت فكرة الحوار مع إيران تتراجع، ويتحول الحوار إلى ما يشبه الإنذار فى قمة الثمانية الكبار،

واستعجال الخضوع من إيران للمطالب الأمريكية، وتقصير أجل الحوار إلى مدة لا تتجاوز نهاية العام ٢٠٠٩، فيما لا تبدو إيران راغبة فى خضوع، ولا مستعدة للتفريط بحقها فى تخصيب اليورانيوم والمشروع النووى السلمى، والمحصلة : ميل متزايد إلى الصدام على جبهة إيران، وفى الطريق تسعى واشنطن إلى تعبئة دولية ضد إيران، تسعى إلى نوع من تحييد روسيا والصين، واستقطاب النظم العربية إلى تحالف ضمنى مع إسرائيل ضد إيران، وتوسيع التطبيع وفتح المجال الجوى، والوعد بمظلة نووية وصاروخية أمريكية لحماية العرب من الخطر الإيرانى(!) وإعادة صياغة المشهد العسكرى الأمريكى فى منطقة الخليج، وباتجاه ضغط استفزازى لإيران تمهيدا لضربة جوية عاصفة فى الوقت المناسب، وفى سياق متصل، تبدو نذر الصدام واردة على جبهة إسرائيل مع لبنان، وحزب الله بالذات، فقد تضاعفت القوة الصاروخية لحزب الله لأربع مرات عقب حرب صيف ٢٠٠٦، وتنظر إسرائيل لقوة حزب الله كأكبر خطر وجودى يتهددها، وفى حلقها مرارة هزائم متوالية تستنفرها لعدوان ما، والأغلب ـ فيما نظن ـ أن يمضى صيف ٢٠٠٩ إلى نهاية خريفه بلا حرب، وإن بدت الحرب واردة فى الصيف هذه المرة أيضاً.

والمحصلة مرة أخيرة : أن المنطقة ذاهبة إلى حرب فى الشرق، وإن تأجلت مواعيدها، وليس إلى تسوية تتعثر مواعيدها وتتبخر وعودها .

٢٠٠٩/٨/١٧

شرط التوحيد الفلسطينى

40

ربما لا تكون من قيمة - كبيرة أو صغيرة - لجولات الحوار الفلسطينى المؤجلة والمعجلة فى القاهرة، فمواقف حماس - كما مواقف فتح - هى هى، وموضوعات التداول عقيمة، والفرز متصل إلى جناحين لا يكاد يفرق بينهما غير الولاء القبلى لعباس أو لقيادة حماس.

عباس ضمن قيادة موالية فى لجنة فتح المركزية، وسد الفرج والثقوب فى إطار تنكارى متآكل لمنظمة التحرير، وعقد مجلسا وطنيا شكلانيا انتهى إلى استكمال عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وطوى معارضة فاروق القدومى بالضغط المالى والإدارى، بينما تستند حماس إلى ثقلها الذاتى، وحكمها المنفرد لغزة، وتحالفها الثابت مع حركة الجهاد الإسلامى، ومع "تحالف القوى الفلسطينية" التى تقيم أغلب قياداتها فى دمشق .

وكلا الطرفين فى أزمة مقيمة ومخيمة، فقد يستطيع عباس تجاهل ما يجرى كله، والاستناد إلى دعم محسوس من الأمريكيين والإسرائيليين واللجنة الرباعية الدولية، والمجازفة بتجاهل وجود حماس من أصله، والدعوة لانتخابات رئاسية وتشريعية تجرى مبكرة، ولا يعنيه من يقاطع، ويحصر سلطته فى حكم إدارى محدود بنفوذ رام الله، ويسقط غزة من الحساب، فهو يعرف أنه لا فرصة لإجراء الانتخابات فى غزة دون موافقة حماس، والأخيرة تملك ورقة الإعاقة، وتنسج خيوط تواصل تخصها مع الأطراف المعنية، وتدير مفاوضات غير مباشرة مع نتنياهو مقابل مفاوضات عباس المباشرة، ومن حول موضوعات تملك حماس وحدها فرصة البت فيها دون عباس، ومن نوع الوضع فى غزة، وقصص المعابر، وملف جلعاد شاليط الذى دخلت المخابرات الألمانية

على خط التفاوض فيه، وبعد تعثر وساطات القاهرة المأزومة داخليا، والمشغولة بأولوية خدمة إسرائيل على سبيل المقايضة - لدى واشنطن - مع تسهيل سيناريو توريث الرئاسة لابن مبارك، أو تجديد بطاقة الاعتماد للأب الموغل فى عقده التاسع .

والمحصلة: أن انسدادا انتهت إليه مفاوضات عباس وحماس، وربما لم تتبق غير المناكفات، ومن نوع تأكيد السيطرة على إمارة رام الله أو إمارة غزة، وتبادل الاتهامات حول الاعتقالات والاحتجازات، والسباق إلى إثبات جدارة التفاوض مع الإسرائيليين، ومع علم الطرفين - الأكيد - بأنه لا فرصة لتسويات ذات بال، فالوسيط الأمريكى بلغ حد الإنهاك، وباراك أوباما ينزل من فوق الشجرة، ويطوى ملف الضغط على الإسرائيليين لوقف الاستيطان، ويتنازل عن

فكرة تحقيق اختراق عاجل، ويترك الوقائع على الأرض تجرى على ما هى عليه، ومع تدخل محدود بهدف التهدئة لا التسوية، والتحكم فى رد الفعل الفلسطينى، وهكذا تظل إسرائيل تأكل - بالتهويد - ما تبقى من عروبة القدس، ويتوحش الاستيطان فى الضفة، والضغط على سلطة عباس لتحسين دورها كوكيل أمنى، وإدارة عملية تفاوض لمجرد التفاوض وكسب الوقت، ولفت النظر عما يجرى فى فلسطين بإشعال خطوط التماس مع حزب الله ومع إيران، بينما تتصل حلقات خنق غزة، وتظل نشرات الأخبار على ما هى عليه، خبر عن قصف أو توغل إسرائيلى هنا أو هناك، وردم أنفاق الحياة، وفتح معبر رفح بالقطارة، وإدامة عذاب الشعب الفلسطينى فى غزة، ودفعه لمقارنة وضعه المعيشى البائس مع يسر أحوال نسبى فى الضفة الغربية، وبهدف تقويض سلطة حماس بالحصار بعد أن استعصى تقويضها بالحرب .

المحصلة - مرة ثانية - أن لا أحد بوسعه التعاطف الخالص مع عباس أو مع حماس فى هذه اللحظة على الأقل، فقد ضاقت الفروق فى الممارسة العلمية إلى حد التلاشى، نعم .. يعمل عباس وسلطته بتنسيق تام مع الإسرائيليين والأمريكيين، فيما لم تتورط حماس - بعد - فى الخطيئة، وتبدى صلابة فى التفاوض غير المباشر، ثم أن النقاء الأخلاقى لقياداتها ميزة عظيمة مقارنة بسوء سيرة رجال عباس وذمتهم، هذا كله صحيح، ويضيف مصداقية وإقناعية أكبر لصورة حماس العامة، لكن الصحيح - أيضا - أن الصور اختلطت إلى حد بعيد، فقد تبدو الفروق ظاهرة فى النظر عن قرب، فيما لا تبدو كذلك من بعيد، وإلى حد تعذر التمييز فى المدى الجماهيرى العام .

فلا "فتح" تقاتل الإسرائيليين، ولا أحد يزعم أنها تفعل، ولا حماس تفعل الآن، بينما قتال الإسرائيليين وحده هو الذى يستعيد الحيوية للقضية الفلسطينية، وليس التفاوض بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فالاحتلال قائم

نسبيا فى غزة بوسائل الخنق والحصار، والاحتلال هو سلطة الزمن الممتد فى الضفة والقدس وباقى فلسطين، وهذه هى الحقيقة الصلبة، والتى لا تفيد فى مواجهتها مراوغات أو التفات عن الموضوع، وإرجاء المقاومة تهربا من واجب الوقت، أو الاكتفاء بترديد مواقف مبدئية دون ممارسة تشفع وتصدق، وقد لا يكون خطاب كهذا مما يصح توجيهه لعباس، فموقف الرجل قاطع ضد المقاومة بالسلاح أو بالسياسة، وإن كانت فتح - فى قواعدها بالذات - أكبر وأعظم من أن تخضع لنفوذ "جماعة إسرائيل " فى قيادتها، وقد نتفق على أن فتح - فى ظرفها الملتبس الراهن - لا تصلح كمركز قيادة لتجديد نداء المقاومة وبعثه فعلياً، لكن حماس - فيما نظن - لها أن تقوم بالدور، وربما لا يكون لها من دور غيره يستحق الأولوية، وربما تحتاجه لنفض الغبار عن صورتها، فقد كسبت حماس شرعية فعلية بدواعى صمودها المجيد فى حرب غزة الأخيرة، وليس بدواعى الانتخابات الرئاسية والتشريعية التى تبدو بلا قيمة، والتى تنتهى إلى سلطات وهمية هى مجرد قبضة هواء، ولم تضف إلى قيمة حماس قدر ما أضاف إليها صمود جيشها وتضحيات قياداتها وعذاب أسراها ودم شهدائها، وهنا - بالذات - مكمن قوة حماس الذى يعطيها جدارة واستحقاق الدور، فبوسع حماس - الآن - أن تدعو إلى وحدة سلاح الفصائل فى جيش حرب عصابات حقيقى، بوسع حماس أن تدعو إلى إطار تنظيمى يتجاوز منظمة التحرير المتهالكة وتحالف القوى الفلسطينية .. محدود الأثر، بوسع حماس أن تدعو الجميع - دون استثناء فتح - إلى قيادة سياسية وعسكرية مشتركة، وأن تصوغ هدفا مباشرا فى استكمال تحرير غزة وإشعال انتفاضة ثالثة فى الضفة والقدس، ولا أحد يستهين بالمصاعب الميدانية الراهنة فى الضفة والقدس بالذات، وحيث تتعاون سلطة عباس مع سلطة الاحتلال فى مطاردة واعتقال وتصفية المقاومين، لكن صياغة سلطة ميدانية لانتفاضة ثالثة، وتنويع

أساليب المقاومة فى الضفة والقدس، وإعطاء ثقل أكبر للتحركات السياسية والجماهيرية، واستعادة عظات انتفاضة الحجارة الأولى، ووضع الفصائل كلها أمام اختيار الانحياز لسلطة مقاومة على حساب سلطات التفاوض البائس، وتعظيم الاستفادة من فرصة إفلاس خط التسوية، والاستناد إلى "مرجعية أخلاقية" من قيادات الأسرى الفلسطينيين من كافة الفصائل فى المعتقلات الإسرائيلية، كل ذلك - وغيره - له أن يضيف لمكنات بعث مشروع مقاومة وانتفاضة مؤثرة تغير الموازين، ويعوض - إلى حد معقول - ما جرى من تفكيك وإنهاك للجهاز التنظيمى السرى فى الضفة والقدس بالذات.

والمحصلة - مرة أخيرة - أن الأوراق اختلطت، وأن سبيل التوحيد الفلسطينى ليس بحوارات القاهرة، بل فى بعث المقاومة والانتفاض بالسلاح وبالسياسة، وفى ميادين القتال الفعلى للاحتلال على أرض فلسطين المقدسة.

٢٠٠٩/٩/٧

مريض بغداد

41

أيا ما كانت نهاية الوساطات التركية والإيرانية الجارية بين بغداد ودمشق، وأيا ما كانت طبيعة الاستجابات السورية لقلق حكومة المالكى بعد وصول تفجيرات بغداد إلى المنطقة الخضراء، فإن الحقيقة تظل كما هى، وهى أن المالكى وحكومته، أو أية حكومة أخرى تتبعه فى بغداد، وفى ظل الاستقواء بنفوذ الاحتلال الأمريكى، أية حكومة من هذا النوع سوف تنتهى - وإن تأخر الوقت - إلى نهاية دموية على الطريقة العراقية المفضلة .

وربما لا تبدو أمريكا مشغولة بالمالكى، وبقدر انشغالها بخيبتها فى العراق، ثم تداعى هزائمها المتوالية فى أفغانستان، والتى ظن أوباما أنه ينقل التركيز الأمريكى إليها تخففا من ضرائب الدم والمال فى العراق، وسعيا لتحقيق نصر فى كابول عز عليه فى بغداد، فإذا بأمريكا ـ وقوات الإيساف الأطلنطية عموما ـ تجد نفسها فى مصيبة لم تخطر على البال، وقد استجارت من رمضاء العراق بنار أفغانستان .

ولا تبدو الإدارة الأمريكية مستعدة لتراجع عن خططها بشأن انسحاب ناجز من العراق، وفى المواعيد المحددة التى تنتهى بعد سنتين، فالخزانة الأمريكية المرهقة لا تستطيع تحمل نزيف مال جاوز التريليون دولار إلى الآن فى العراق وأفغانستان، وشعبية أوباما المتراجعة بشدة لا تمكنه من احتمال

رؤية مزيد من نعوش الموت التى تحمل الجنود الأمريكيين، خاصة أن نزيف الدم الأمريكى لم يتوقف تماما فى العراق، صحيح أن شهر أغسطس الماضى كان أقل الشهور دموية فى العراق بالنسبة للأمريكيين، ويبدو ذلك طبيعيا فى ضوء انسحاب القوات الأمريكية من داخل المدن إلى قواعد محصنة خارجها، لكن المقاومة العراقية - فى قطاعاتها الأكثر تأهيلا - لا تزال قادرة على الوصول للأمريكيين، ولديها إمكانات استخبارية عالية، ومقدرة ملحوظة على تطوير التكتيكات الحربية، خصوصا مع تخلف قوات الحكومة العراقية الموالية للأمريكيين، وضعف معنوياتها، والاختراقات المتشعبة لجهازها الأمنى، وتعدد مصادر النيران المتربصة بها، ومن أول تنظيم القاعدة وجماعاته الانتحارية، وإلى أدوار أجهزة استخبارات أجنبية تجد المجال مفتوحا لعملها فى العراق،

وإلى عصابات سلاح تابعة لمتنافسين سياسيين، وإلى قوات المقاومة العراقية بشقيها البعثى والإسلامى .

ويكاد العراق الآن ينتهى إلى صورة فريدة، هى أبعد ما تكون عن الاستقرار بكل تأكيد، وأقرب إلى الخطر ونذره الدموية المفزعة، فحكومة المالكى - أو أى حكومة على طرازها - هى أشبه بلص بغداد ومريض بغداد معاء المعنى اللصوصى لا يحتاج إلى بيان، فنحن بصدد جماعة أقرب إلى لصوص الحرب وأغنياء الحرب معا، كلهم عاشوا يتحدثون عن جرائم منسوبة لنظام صدام حسين، وهى لا تقارن إلى نزيف الدم فى يوم عراقى واحد الآن، فقد قتل ما يزيد على المليون ونصف المليون عراقى فى سنوات الاحتلال وسنوات حكومات الدمى، وجرى تهجير ما يزيد على أربعة ملايين عراقى فى الداخل والخارج، وجرت جرائم تطهير طائفى وعرقى غير مسبوقة فى التاريخ العراقى كله، وتحولت الحكومة التى يقيم وزراؤها تحت الاحتلال، أو فى خارج العراق أغلب الوقت، تحول هؤلاء إلى لصوص مليارات من الوزن الثقيل، وبصورة لم ترد على بال ولا خطرت فى خيال، وبرغم تكدس السرقات وصنوف الحماية المرئية والمخفية، فإن صورة هؤلاء العامة تبدو أقرب لفئران مذعورة، يتحدثون كثيرا عن فولكلور العملية السياسية، وعن الانتخابات محلية أو عمومية، وتحس وأنت تسمعهم أو تشاهدهم، أنك بصدد أشخاص هاربين من شئ ما، ويشعرون - فى قرارة النفس - أنهم كالقشة فى مهب ريح، فقد جاءوا إلى حكم العراق على ظهر دبابات الاحتلال أو فى بطن طائراته، وليس بوسعهم أن يبقوا يوما واحدا بغير حماية الاحتلال الأمريكى أو التدخل الإيرانى، وهم محشورون بين اختيارين كلاهما أمر من العلقم، فولاؤهم للأمريكيين له الأولوية، وحيرتهم تزداد مع التحرش الأمريكى المتزايد بإيران نفسها، قطاعات الأكراد فى اللعبة تبدو أقل حيرة، وحسمت أمرها فى الولاء

المطلق للأمريكيين، فقد كان هؤلاء يطالبون ـ فيما مضى ـ بحق تقرير المصير للأكراد، وحقق لهم الاحتلال أهدافا أبعد مما حلموا به، فقد تحولت كردستان العراق إلى دولة منفصلة بالكامل، والأكثر من ذلك، فقد تم تكريد العراق نفسه، وانتهينا إلى صورة أشبه بكوميديا سوداء، فرئيس العراق " العربى " كردى، ووزير خارجيته كردى، وكأن الأكراد قد كسبوا دولتين بدلا من الحلم بدولة واحدة، ويسعون لكسب الثالثة بالاستيلاء على كركوك وحقول بترولها الغنية، بينما المتصدرون لزعامة شيعة العراق العرب فى مأزق، فروابطهم التاريخية والحالية مع إيران سبب واضح للارتباك، قطاعات أكثر ارتباطا مع إيران سعت لإعادة إنشاء الائتلاف الشيعى بدون المالكى هذه المرة، بينما المالكى ورجاله فى قلب الحيرة، ويريد أن يبدو عراقيا لا طائفيا، وسعى لإضعاف حلفائه السابقين بنفوذ السلطة والمال وتأثير الأمريكيين فى انتخابات بلدية جرت قبل شهور، وربما يستطرد فى المسعى نفسه فى انتخابات عامة مقبلة، لكن تهمة العمالة للأمريكيين تلاحقه، تماما كما تلاحق حلفاءه الحاليين أو المحتملين فى أوساط سنة العراق من نوع الحزب الإسلامى، وليس أمامه من فرص لكسب استقرار، فحكومات المحاصصة الطائفية تبدو غريبة على التكوين العراقى، وهى أفضل وصفة لتفجير حروب أهلية لا تنتهى، وكلما زاد الميل الأمريكى إلى استهداف إيران، زاد موقف حكومات الدمى حرجا، وزادت وتيرة مباريات الدم، واستنادا إلى المال الإيرانى أو المال السعودى، وفى بيئة عراقية شرسة تستعصى بطبعها على الانقياد الطوعى . .

المحصلة: أن أخبار العراق فيما يلى سوف تصطبغ أكثر بلون الدم، ولن يفيد المالكى ـ ولا غيره ـ استفزاز سوريا أو غيرها، فالعراق يحتاج إلى حكم مركزى قوى يلم أشلاءه المبعثرة، والوطنية العراقية تحتاج إلى إعادة بناء من نقطة الصفر، وهذه مهمة أوسع من مجرد تنظيم انتخابات لا معنى لها تحت

حراب الاحتلال، أو إجراء تعديلات على الدستور تسمح بانتخاب رئيس من الشعب مباشرة لا من البرلمان، وأية حكومة عراقية - بالمالكى أو غيره - فى ظروف اللحظة لا تحقق المعنى المركزى الحاكم، وتظل أشبه بمريض خاص جدا، لا يشفى بغير دواء الموت المستعجل، لكن السؤال يبقى : من أين تأتى رصاصة الرحمة ؟، ربما تكون فى القصة فصول دم طويلة، وربما تحتاج المقاومة العراقية بشقيها البعثى والإسلامى (المجلس السياسى ومجلس التخويل) إلى وحدة سياسية وعسكرية عاجلة، فوقت الصدام النهائى يقترب، والمخاطر لا يستهان بها، وقد تعب *العراق* من كثرة الحروب، *لكنه* ربما يحتاج إلى حرب أخيرة إضافية، وعلى رأس الحكم هذه المرة .

٢٠٠٩/٩/١٤

هل يغفر لنا الله؟

42

لا نريد أن نصدم أحدا، ولا أن نسئ إلى المشاعر الدينية للمسلمين، ونحن منهم، بل نرنو إلى لحظة عظة وتدبر .

ولا يخالجنا أدنى شك فى أن أغلب هذه الأمة صامت وصلت وقامت وأفطرت على ظن طاعة الله ورسوله، وأدت زكاة عيد الفطر قبل أن تشرق شمسه .

وربما لا يخالجنا شك - فى المقابل - فى أنه لن تقبل لها صلاة ولا صيام ولا زكاة، وأنها أمة منكوبة روحيا، لا يغتفر الله لعصاتها، ولا يستجيب لتقاتها، والسبب فى اعتقادنا المتشائم بسيط، وشرحه فى هذا الفصام النكد بين فرائض المسلمين التى تؤدى آليا، وواقع المسلمين الذى يتدهور ذاتيا .

اذهب إلى أى بلد عربى أو إسلامى، ولن تجد لسنة الخلق تبديلا، المساجد ممتلئة عن آخرها، والساحات مفتوحة على مدد الشوف لأداء صلاة العيد، والزينات والأنوار معلقة وبالألوان، وبقايا موائد الرحمن على الأرصفة وفى الفنادق الكبرى والصغرى، وصيحات المآذن متلاطمة، وكأنك أمام جماعة من التقاة أخلصت الوجه لله، بينما لا دليل واحداً يصدق القول بالعمل، فصيحة "الله أكبر" تملأ الدنيا من حولك، بينما الذين يطلقونها فى حال آخر، وأقرب إلى قطيع من الأغنام، يدعون الخوف من الله وحده، بينما قلوبهم غلف، ويخافون - حقا - من سلاطين وحكام جرى فرضهم على الرقاب، يموتون فى جلودهم خيفة أن يقولوا "لا"، بينما الظلم يحكم ويعظ، وبينما وجود الحكام فى ذاته ذروة الظلم، فلا يوجد حاكم فى بلد عربى واحد - ربما باستثناء موريتانيا

ـ جرى انتخابه بطريقة ديمقراطية مقبولة، وقد تتعدد أوصاف الحكام، فهنا ملك وهنا أمير وهنا رئيس فى وضع الملك، كلهم يحكمون بالحق العائلى، وكأننا خلقنا لهم ميراثا ومتاعا، فوجودهم فى ذاته مخالف لشرع الله وشريعة الناس، بينما الناس الصائمون القانتون المصلون كأنهم أصيبوا بالخرس، يسكنهم الرعب، ويخشون المعارضة، إذا قامت مظاهرة عدوها جنونا، وإذا سمعوا عن إضراب حسبوه بطرا وكفرانا بنعمة السيد الحاكم، وإذا دعوتهم إلى نفرة تثاقلوا إلى الأرض، وإذا قال لهم كاتب : مالكم كيف تقعدون؟، قالوا: هذا ما وجدنا عليه آباءنا، وإنا لأحذية السلاطين عابدون، واذهب أنت وصحبك فقاتلا، إنا هاهنا نائمون (!)، فهل تكون هذه حالنا، ونزعم أننا مسلمون؟!، نعبد الواحد القهار، ولا نخشى من دونه، وهم فى غيهم سادرون، يعبدون الحاكم

القهار، وإن لهجت ألسنتهم بذكر الله، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يخادعون أنفسهم، ويكذبون على الله، هكذا يسلك العوام ويسلك المشايخ أيضا، يحدثونك عن سيرة النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وعن ظلم قومه من ذوى القربى، وعن هجرته إلى الحق، بينما هم يوالون الباطل، ويختمون الأدعية والفتاوى بطلب طول العمر للسلطان، ويصدمون عينيك وأذنيك في كل اتجاه، فهم على منابر المساجد، وفي صلوات الجمعات والأعياد، وفي الفضائيات التي ينفق عليها سلاطين البترول، ويملأون ساعات الإرسال والاستقبال بكلام معاد ومكرور، يحدثونك عن الصدر الأول للإسلام، وينسون البطن الأخير، ويدعون أنهم يقاومون الكفر، بينما ينشرون العهر، وليست مصادفة أن هؤلاء الذين يمولون فضائيات المشايخ، ويضيفون فضائيات الفتنة الدينية، وينشرون الفرقة بين مسلمين شيعة ومسلمين سنة، وبين المسلمين وأهل الكتاب من المسيحيين العرب بالذات، ليست مصادفة أن هؤلاء الذين ينفقون المال لخدمة دين الطاعة والتسليم للحكام، هم أنفسهم الذين يمولون فضائيات الفيديو كليب وهز البطن وتأوهات الليل وآخره، ورغم تناقض الذقون الكثيفة في جانب، ومسابقات التعرى على الجانب الآخر، فالعملية واحدة، والهدف هو ذاته، والنتيجة هي الإلهاء عن واجب الوقت بدين الوقت أو بفتنة الوقت.

ثم ماذا تفيد - والحال كالحال - صلاتنا وصيامنا وقيامنا وإفطارنا؟، ماذا يعنى انخلاع الطقس عن النفس ؟، في المأثور الإسلامي عبارة فريدة، وهي اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، فالآخرة في الإسلام ليست على هذا الانفصال والفصام النكد مع الحياة الدنيا، والدنيا في الإسلام هي مزرعة الآخرة، والقيم الإسلامية الكبرى كالتوحيد والعدالة والمساواة وأولوية المصلحة والجماعة، كلها ليست كلمات نتغنى بها والسلام،

بل عمارة نقيم بها الحياة الدنيا على الصورة التي يريدها الله، والأمر بالمعروف هو سنة الله، وليس الصلاة والصيام مع موالاة المنكر، فلا صلاة ولا صيام يقبل ممن يوالي أو يسكت عن السرقات العامة، ونظم دنيانا السياسية والاقتصادية ـ أني نظرت ـ تسرقنا جهارا نهارا، كلها نظم سرقة بالإكراه، تضع يدها في جيبك، وتشهر في وجهك مطواة قرن غزال، تماما كقطاع الطرق، وقد تلحظ أن هذه النظم في حال الانتفاخ ذاته، وأيا ما كان اسمها ورسمها، انتفاخ بالمال وانتفاخ بالسلاح، انتفاخ بالنهب العام، وانتفاخ بالكبت العام، تريليونات الدولارات في جيب الحاكم وأهله وحاشيته ومحاسيبه ومحازبيه، وخازوق أمني متضخم متورم يجلس الحاكم على قمته، تريدون مثالا ؟، لا أحدثكم بما تعرفون عن حكام البترول وتريليوناتهم المتسكعة في مصارف أوروبا وأمريكا، وعن القصور والجواري وخصيان العصر من مشايخ الإسلام وأزلام الإعلام، وتلك ظاهرة فاشية في البلدان الأفقر بعد البلدان الأغنى بمصادفات البترول، خذوا عندكم ـ مثلا ـ بلدا كمصر، وهي أكبر دولة عربية، وحاضرة العالم الإسلامي بامتياز، وهي بلد محدود الموارد، ولا نهاية للسرقات العامة فيه، والنتيجة : أن تحولت مصر إلى سكن لأفقر شعب، وإلى محط لأغنى طبقة في المنطقة، فطبقة أمراء مصر الجدد أغنى من طبقة أمراء الخليج، طبقة أمراء الخليج هبة البترول، وطبقة أمراء مصر الجدد هي هبة الأرض، وبفوائض المال الحرام تشترى الصحف والفضائيات والمشايخ أيضا، وفي مصر المسروقة ـ أيضا ـ أزهر وشيخه ومفتي وطبقة رجال دين أثقل من الهم على القلب، ومساجد لا تفرغ من روادها، وبصورة قد لا تصادفك في بلد إسلامي آخر، المشكلة : أن التدين الظاهر قد تحول إلى بضاعة مضافة لخزائن السرقات العامة، فالمشايخ إما يسكتون أو يمالئون، والناس يصلون ويرتشون بالسلاسة نفسها، يذهبون إلى صلاة الفجر "حاضر"، ويفتحون

الأدراج والجيوب لتلقى الرشاوى عند صلاة الظهر، وينهضون إلى صلاة العيد كأنهم ذاهبون للقاء الله، والله برئ منهم ومما يفعلون، وقس على ما يجرى فى مصر ما يجرى فى غيرها.

نعم، هذه أمة لا يغتفر الله لمذنبيها، وهم غالب أهلها الآن، فالله الرحمن الرحيم يغفر كل ذنب إلا أن يشرك به، وقد أشرك هؤلاء حكامهم الظالمين السارقين فى الطاعة والعبودية، واتخذوا من أمريكا وإسرائيل أربابا مع الله أو من دونه، فهل يقبل الله صلاة أو صياما ممن يحالفون إسرائيل ويتبعون هوى أمريكا ؟، هل يقبل الله عبادة ممن سلوا صيامهم بلقاء قادة إسرائيل؟، ويقيمون معهم علاقات المودة، ويتبادلون السفراء، ويوقعون الاتفاقات، ويدفعون جزية البترول والغاز، ويحاصرون أهلنا فى فلسطين، ويسكتون عن تهويد القدس، وهل يقبل الله صلاة أو صياما ممن يسكتون عن خيانات الحكام؟، وهل يكفى الدعاء ؟، وماذا نقول لله يوم نلاقيه؟، هل نقول إننا وجدنا حكامنا على أمة، وإنا على آثارهم لمقتدون؟!، لو كنا نعبد الله حقا، ولو كانت صلاتنا له تحررنا حقا من قعودنا وهواننا، لو كنا كذلك، لتحولنا من قطيع قرود إلى أمة من الناس الأحرار، وتحولت صلواتنا إلى تظاهرات براءة من ظلم وسرقة وخيانات الحكام، وتحولت مساجدنا إلى ملاذات اعتصام بكلمة الله إلى يوم يرحلون، وحمتنا خشية الله من خشية الحكام .

ولأننا لا نفعل، فقد حق علينا غضب الله، وانقطع عنا رجاء المغفرة، وذهب ثواب صلاتنا وصيامنا، وتقطعت أنفاسنا فى سباق إلى عذاب جهنم لا إلى نعيم الجنة .

٢٠٠٩/٩/٢١

بدأت الحرب

43

نحن لا ننتظر الحرب، فقد بدأت الحرب فعلا على جبهة الشرق إلى لبنان وسوريا، ومن قبل - ومن بعد - إلى جبهة إيران ومشروعها النووى.

على جبهة إيران، تراجعت أصوات الاختراق الغربى لصفوف المعارضة الإيرانية، وبدا قادة المعارضة الأبرز - من نوع خاتمى وموسوى وكروبى - على استعداد لتهدئة جبهة الصدام مع حكومة الرئيس نجاد، واندفاع جماعة الستة (ألمانيا + الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن) لفرض عقوبات إضافية على طهران يؤدى لعكس المطلوب، ويضيف إلى قوة الداخل الإيرانى، فالجميع مع المشروع النووى، ومع التقدم الإيرانى الباهر فى مجالات الذرة والفضاء وتكنولوجيات السلاح العالية، واستعراضات القوة الإيرانية تبدو فى محلها تماما، فقد توافر زمان طويل لإيران كى تستعد، وتدرس البدائل، وتشترى وقتا، وتراوغ بمزيج فريد من العناد والمرونة، وتستفيد من تجربة عراق صدام حسين، ولا تكرر أخطاءها، وعلى نحو تبدو معه أية ضربة أمريكية أو إسرائيلية لإيران غير ذات أثر صادم أو نهائى، فقد يمكن

لواشنطن أو تل أبيب، أو كليهما، قد يمكن لهما توجيه ضربة جوية صاعقة، لكنها لن تصعق المشروع النووى الإيرانى، والذى تجاوز العتبة الحرجة، وقطع أشواطا متقدمة جدا، وتنتشر منشآته جغرافيا على نحو يصعب معه تدميرها كلها، وحتى لو افترضنا تدميرها بالتمام، فإن إعادة البناء سوف تتم بسرعة، ودون المساس بالقاعدة العلمية الهائلة التى توافرت لإيران، وهذه نقطة قوة حاسمة لإيران فى موازين الحساب، أضف إلى ذلك عجز أمريكا المقعد عن تكرار تجربة غزو العراق، فقد كان الغزو البرى للعراق هو آخر تجربة من نوعها فى حياة أمريكا إلى يوم يبعثون، وأمريكا التى عجزت عن النصر فى العراق وأفغانستان، وتريد أن تتخفف من ضرائب الدم والمال، هذه الأمريكا لا يمكن أن تفكر فى غزو برى لإيران، وهو ما يعنى ـ ببساطة ـ أن النظام الإيرانى سيظل قائما حتى لو وجهت له أعتى الضربات الجوية، أضف إلى

ذلك رد فعل إيران فى اليوم التالى لأول ضربة جوية، وهو رد فعل سيكون قاسيا، وعلى جغرافيا واسعة تنتشر فيها قواعد الوجود الأمريكى فى العراق ودول الخليج، وإلى إسرائيل ذاتها، وبتكلفة دمار غير مسبوق فى تاريخ الحروب مع إسرائيل .

وفيما تبدو سوريا ـ على جبهة الحرب الوشيكة ـ نقطة الحرج فى القصة كلها، وتستثير مخاوف تتعلق بطبيعة النظم العربية عموما، وطبيعة النظام السورى، وهو ما يفسر اتجاه الضغط النفسى الإسرائيلى إلى جبهة سوريا بالذات، وعلى ظن أنها النقطة الأضعف فى حلقة السلسلة الواصلة من طهران إلى حزب الله اللبنانى، والتى قد يصح تحطيمها، وإغراقها فى بحر الرعب، وعلى طريقة تصريحات ليبرمان ـ وزير الخارجية الإسرائيلى الوقح ـ بتدمير سوريا وخلع عائلة الأسد من الحكم، لكن النظام السورى بدا على رباطة جأش فاجأت الإسرائيليين، فسوريا تملك سلاحا كافيا، وجيشها استفاد من تكتيكات حزب الله فى حرب ٢٠٠٦، ولديها قوة ردع صاروخى مؤثرة، وفيما تبدو مدنها الكبرى قريبة من خط الجبهة، فإن مدن كيان الاغتصاب الإسرائيلى قريبة هى الأخرى، وفى متناول يد النار السورية، وهو ما جعل النظام السورى يرد على إسرائيل بالمثل، ويكلف وزير خارجته وليد المعلم بالرد على وزير الخارجية الإسرائيلى، ويهدد بتدمير المدن الإسرائيلية، ويحذر من اختبار سوريا، وقد يرى البعض فى التهديدات السورية نوعا من عنتريات النظم الجوفاء، وربما استنادا إلى مواريث قديمة، ولا تدرك التحول الاستراتيجى الذى جرى، والذى رفع مستوى التنسيق الإيرانى السورى إلى مرتبة القيادة المشتركة، وهو ما يعنى أن سوريا لن تدخل الحرب وحدها، بل كطرف على جبهة حرب واسعة، وفى تواصل جغرافى وميدانى مباشر مع حزب الله الذى هو العدو الأعظم لإسرائيل .

وفى ذكرى اغتيال الشهيد عماد مغنية القائد العسكرى لحزب الله، بدا خطاب السيد حسن نصر الله كأنه البروفة النهائية للحرب، وحين يتحدث السيد حسن، تصخى إسرائيل سمعها، فهى تعرف أنه لا ينطق عن الهوى المتزيد، وأنه لا يبالغ فى شئ، وأنه ينفذ ما يقوله بالحرف والفاصلة، فالرجل يعرف كل شئ عن إسرائيل، وعن قوة جيشها، وخططه وتدريباته، ومناوراته، وأهدافه، ويعرف أن إسرائيل تريد حربا تنتصر فيها، وهو ما أصبح مستحيلا، وحتى لو انحصرت المواجهة بين إسرائيل وحزب الله، ورغم أن السيد يقول - لملاعمات السياسة اللبنانية - إنه لن يبدأ الحرب، فهو يؤكد أن رجال الله مشتاقون إلى لقاء إسرائيل فى حرب، ويدعو إسرائيل لإرسال الفرق الخمس التى تهدد بها لغزو لبنان بريا، أو حتى الفرق السبع، ويتعهد - وهو رجل الوعد الصادق - بإبادتها جميعا، ثم يلقى بورقة التفوق الجوى الإسرائيلى فى أقرب سلة مهملات حربية، وقد لا تكون لدى حزب الله طائرات، لكن لديه قوة الردع الصاروخى، والتى زادت بعشرة أضعاف عما كانت عليه فى حرب ٢٠٠٦، وزادت مدياتها ودقة تصويبها وأثرها التدميرى، وبديهى أن إسرائيل تملك جهاز مخابرات قويا، وهى القدرة ذاتها التى يملكها حزب الله، والتى تجعل إسرائيل قادرة على تجميع بنك أهداف صالحة للقصف فى لبنان، وتجعل حزب الله - فى المقابل - عارفا بكل شبر فى كيان الاغتصاب الإسرائيلى، وهو ما يفسر لغة الردع الواثقة فى خطاب حسن نصر الله، فقد طور معادلة قصف تل أبيب مقابل قصف بيروت، ونقلها من معنى الردع الرمزى إلى معنى مادى مشفوع بتفاصيله المرعبة، وقال للإسرائيليين - ببساطة مذهلة - ما الذى ينتظرهم فى الحرب، فإن قصفتم مطار رفيق الحريرى، فسوف نقصف مطار بن جوريون، وإن هدمتم بناية فى الضاحية الجنوبية لبيروت، فسوف نهدم بنايات فى تل أبيب، وإن قصفتم مصفاة نفط عندنا، فسوف نقصف مصافى النفط عندكم، وإن قصفتم مصنعا فى لبنان، فسوف نقصف كل مصانعكم،

وهو ما يعنى أن بنية لبنان التحتية لن تكون وحدها المعرضة للدمار، بل إن البنية التحتية لإسرائيل معرضة لدمار أعظم، وهكذا قلب السيد حسن موازين الحرب النفسية، وأنزل الرعب فى قلوب قادة إسرائيل المتخبطين التائهين، والذين ليس بينهم سوى جنرال واحد، هو إيهود باراك المهزوم مرتين فى لبنان وفى حرب غزة، وفوق توازن الرعب الذى أقامه السيد حسن، فقد استبقى مفاجآت أخرى تحت حساب الصدمة والترويع، ولم ينس الرجل أن يذكّر الإسرائيليين بحرب تصفية الحساب القديم، فقد أكد الرجل أن حزب الله لم يثأر إلى الآن لاغتيال قائده الجهادى الشهيد عماد مغنية، وأنه قد وقعت فى يد حزب الله عشرات الأهداف الإسرائيلية على خرائط الدنيا كلها، لكنه لم يضرب، ولسبب بسيط، وهو أنها أهداف متواضعة لا تليق بمقام الثأر لعماد مغنية، وأن وقت الحساب مفتوح، ولن نتعجل الثأر، ولن ننساه، وإلى أن يتم الحساب، ويجرى ضرب رأس إسرائيلى يصلح مقابلا لرأس الشهيد عماد مغنية، وهو كلام يعنى إبقاء الإسرائيليين فى حالة الطوارئ والتوتر المستديم، والذى يعيشون فيه منذ إقدام "الموساد" على جريمة اغتيال مغنية فى دمشق، والمرشح للاستمرار إلى وقت يعلمه الله وحزب الله، وإلى أن تأتى اللحظة، وينفذ رجال الله ضربتهم القاتلة .

وباختصار، فقد بدأت الحرب، والأصابع ظاهرة، وهى تضغط على الزناد، ونتائج الحرب تبدو معلومة سلفا، فلن تنتصر إسرائيل، ولن تنتصر أمريكا، وربما لا يتبقى لأرامل البيت الأبيض - من ملوكنا ورؤسائنا وأمرائنا - غير دفن الرءوس فى أقرب مقبرة .

٢٢/٢/ ٢٠١٠

صدر من هذه السلسلة

١ ــ محمد (ص)
٢ ــ صدام الحضارات
٣ ــ عصر الجينات
٤ ــ القدس
٥ ــ العولمة والعولمة المضادة
٦ ــ التاريخ السرى للموساد
٧ ــ من يخاف استنساخ الإنسان؟
٨ ــ حريم محمد على
٩ ــ عولمة الفقر
١٠ ــ صور حية من إيران
١١ ــ البحث عن العدل
١٢ ــ لورانس: ملك العرب غير المتوج
١٣ ــ الصهيونية تلتهم العرب
١٤ ــ معارك فى سبيل الإله
١٥ ــ التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
١٦ ــ التسوية: أى أرض.. أى سلام
١٧ ــ المكنز الكبير
١٨ ــ الحق يخاطب القوة
١٩ ــ نساء فى مواجهة نساء
٢٠ ــ مؤامرة الغرب الكبرى
٢١ ــ روسيا.. إلى أين
٢٢- موسوعة الأم والطفل
٢٣- الخدعة الرهيبة
٢٤- نهاية الإنسان
٢٥- خدعة التكنولوچيا
٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة
٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟
٢٨- أين الخطأ ؟
٢٩- اللولب المزدوج
٣٠- رجال بيض أغبياء
٣١- سادة العالم الجدد
٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل
٣٣- اللعب مع الصغار
٣٤- الإبادة السياسية
٣٥ - حكومة العالم السرية
٣٦ - ما بعد الإمبراطورية
٣٧ - بوش في بابل
٣٨ - المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى
٣٩ - تزييف الوعى
٤٠- القانون فى خدمة من ؟
٤١ - كفى
٤٢ - معنى هذا كله
٤٣- حياة بلا روابط
٤٤ - ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٤٥- أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٦- جسدى سلاحاً
٤٧- ثالوث الشر
٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية

قد يكون لدينا ألف سبب لكراهة حالنا، بؤس الحكام وغيبوبة الشعوب، وتردى الثقافة، والغنى السارق، والفقر الداهس، وسيوف الأعداء السالكة فينا، وتداعى الأمم علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعة الزم.

قد يكون لدينا ألف سبب لكراهة حال الأمة، وضعف قوتها، وقلة حيلتها، وهوانها على الناس، وغربتها عن التاريخ الجارى، وغيبتها الكبرى، وكأنها قد أخذت إجازة مفتوحة من سباق الحياة اللاهث، وأنتهت إلى منافى الروح وفيافى العقل ومرافىء الموت المعلن .

فى كل حروب الدنيا، كانت حسابات العقل البارد بالورقة والقلم والمسطرة، موازين السلاح والاقتصاد هى الأهم، وحساب المعنويات فى حواشى الهوامش على متن السلاح. لكن المقاومة العربية الجديدة قلبت حسابات العقل الجامد، وابتدعت حروبا من نوع مختلف. بدأت بصبر القلة المؤمنة، المفارقة لعجزنا، ولقهود الجاذبية الأرضية، والمعتصمة بروح الله، وأدارت المنازلات الكبرى، وتوالت مشاهد الدراما الدموية على جبهة الصدام المباشر مع العدو الأمريكى الإسرائيلى. دار الصدام بين قرار الروح العفية وجبروت السلاح الذكى، بين أعلى قيمة إنسانية وأعلى قيمة تكنولوجية، وثبت أن سلاح الجسد الناسف أقوى من التكنولوجيا المدمرة، ثم ثبت أن [illegible] الأستشهادية تقدر على اكتساب [illegible] فيما تعجز التكنولوجيا الفائقة عن [illegible] الشهادة.

على باب الدم الشهيد، تقف سطور هذا [illegible] المتفرقة، تقرأ فى دفتر الزمن، تفسر وتحلل [illegible] ويكون . وتتابع لحظات تحول العالم وخيانة [illegible] إسرائيل، وخريف أمريكا، وربيع المقاومة الجديدة التى [illegible] الصور من رماد أحزاننا .



عبد الحليم قنديل